رضيت بالإسلام دينًا

صالح أحمد الشّامي

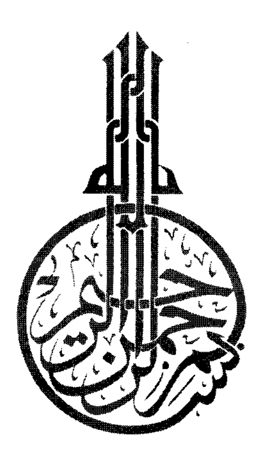
دار القلم
دمشق

رضيت بالإسلام دينًا

تأليف

صالح أحمد الشامي





قال الله تعالى:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].



طبعة دار القلم الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

www.alkalam-sy.com

توزَّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

في يوم عرفة من حجة الوداع، حيث كان النبي ﷺ يلقي خطبته المشهورة نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

كان هذا النزول إيذاناً بانتهاء مهمة الرسول ﷺ، وقرب موعد وفاته، وهذا ما أدركه بعض الصحابة رضي الله عنهم.

ولم تطل حياته ﷺ بعد عودته من حجته، فقد انتقل إلى الرفيق الأعلى في شهر ربيع الأول؛ أي بعد ثلاثة أشهر.

كانت حكمة الله بالغة وفضله عميماً في نزول هذه الآية في هذه المناسبة التي جمعت عشرات الآلاف من الصحابة، حتى يشهدوا نزولها، ويسمعوا تلاوتها لأول مرة من فمه ﷺ.

فلو توفي ﷺ ـ ولم تكن هذه الآية قد نزلت ـ لظن بعضهم أن الدين لم يستكمل، وأنَّ وفاته ﷺ حالت دون ذلك، ولكن الله رؤوف

بعباده المؤمنين، فكان نزولها في أكبر تجمُّع إسلامي حتى يومئذ، ليكون البلاغ عامّاً وليطمئن المؤمنون على تمام نعمة الله عليهم.

والآية الكريمة تقرر ثلاثة أمور مرتبط بعضها ببعض:

١ ـ إكمال الله تعالى لهذا الدين عقيدة وشريعة.

٢ ـ إتمام نعمته تعالى على عباده بهذا الإكمال.

٣ ـ وأنه تعالى ارتضى لعباده الإسلام ديناً.

إنها نِعَم كبرى ينبغي أن تقابل بالشكر... وبالشكر الذي يناسبها.

ولكننا لن نعرف حجم هذه النعم، ولن نقدرها حق قدرها إلا إذا عرفنا معالم هذا الدين، وما قدمه لهذا «الإنسان» من الكرامة التي تفضَّل الله عليه بها.

إنَّ معرفة معالم هذا الدين ليس نافلة من النوافل، بل هي من «الأولويات» التي لها الصدارة فيما ينبغي على المسلم عمله.

وفي سبيل معرفة إجمالية، تركز على المعالم الرئيسة لهذا الدين، كانت هذه الصفحات، التي هي جهد المُقِلِّ، راجياً من الله تعالى حسن المثوبة والعفو عن التقصير والزلل.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

محرم ١٤٢٥ هـ — **الفقير إليه تعالى**

آذار ٢٠٠٤م — **صالح أحمد الشامي**

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله ربِّ العالمين، حمداً طيِّباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

تُعدُّ بحوث الاعتقاد في طليعة ما يحتاجه الإنسانُ المسلم، وما ذاك إلا لأنَّ هذا الميدان من العلم ممَّا لا يسمح فيه بالتقليد، ولا بدَّ فيه من إعمال الفكر للوصول إلى الإيمان عن قناعة ورضا.

ومعظم كتب هذا الفن مليئة بالمصطلحات والعبارات التي قد يستغلق على كثير من الناس فهمُها.

فجاء هذا الكتابُ ليقرِّر قواعد هذا العلم بلغة سهلة واضحة، تتناسبُ مع سهولة الاعتقاد ويسره في هذا الدين الحنيف، وقد أضافَ إلى الموضوع الآثارَ المترتبة على الإيمان؛ وهو جانبٌ قلَّما التفتَ إليه المؤلفون في هذا الفن.. وبهذا استكمل الكتاب أركان الموضوع، فكان ـ بحمد الله ـ وافياً بالغرض.

وما زلت ـ منذ ظهور الطبعة الأولى ـ أعيدُ النظر فيه مرة بعد مرة، بغية الوصول إلى الأفضل؛ الأفضل من حيث استكمال بعض الأفكار، والأفضل من حيث سهولة العبارة ويُسرها.

وقد يسَّر الله تعالى ـ بعونه ـ ذلك، فأضفتُ عدداً من الفصول،

وحذفتُ بعضَ الفصول والفقرات بسبب وجود معانيها في الفصول الجديدة، أو بسبب تكرار معانيها في فصول أخرى.

وبهذا تكون هذه الطبعة ـ الثانية ـ إن شاء الله وافيةً بما يتطلبه الموضوع من وضوح، مستوفيةً لأركان البحث وعناصره.

والوصول إلى الكمال أمر صعب المنال، ولكن الصدر ـ والحمد لله ـ رحب لاستقبال كلِّ اقتراح يُثري البحث، أو يرشد إلى خطأ.

والمأمول من القارئ الكريم أن لا يبخلَ بدعوة صالحة لكاتب هذه الأحرف؛ فله مثلها.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

غرة المحرم ١٤٣١هـ
١٨/ ١٢/ ٢٠٠٩م

وكتبه
صالح أحمد الشامي

بين يدي الكتاب



المبحث الأول

مع قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾

كان قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣] آخر ما نزل من القرآن الكريم.

وبهذا كمل الدين، وتمَّتِ النعمة..

والمسلم الذي رضي لنفسه ما رضيه الله له، هو الذي حكَّم هذا الدينَ في حياته، وصبغها بصبغته:

فأسلم عقلُه..

وأسلمتْ روحُه..

وأسلمتْ مشاعرُه..

وأسلم جسمُه..

وأسلمتْ كلماتُهُ وألفاظُه..

وأسلمَ كلُّ ما فيه..

ومن حقِّ هذا المسلم أن ينعم بهذا الخطاب الإلٰهي الكريم، فهو أحد المخاطبين بكلمة ﴿لَكُمُ﴾ الواردة في الآية الكريمة.

ومن واجبه أن يقف أمام هذه الآية يستجلي ما تحمله من معانٍ

ومقتضياتٍ.. ثم يعيش في ظلالها طول حياته؛ فظلالها وارفةٌ تمتدُّ حتَّى تصل إلى الآخرة.

«إنها كلمات هائلة يقفُ المؤمنُ أمامها، فلا يكادُ ينتهي من استعراضِ ما تحمله في ثناياها من حقائق كبيرة، وتوجيهات عميقة، ومقتضياتٍ وتكاليف.

إن المؤمن يقف أولاً: أمام إكمال هذا الدين ـ الذي لم يعد فيه زيادةٌ لمستزيد ـ يستعرض موكبَ الإيمان، وموكبَ الرسالات.

حتى إذا أراد الله أن يختم رسالاته إلى البشر، أرسل ـ إلى الناس كافة ـ رسولاً ختم به النبيين، برسالة «للإنسان» لا لمجموعة خاصة من الأناسي، في زمان خاصٍّ وفي ظروف خاصة.

رسالة تخاطب «الإنسان» من وراء الظروف والبيئات والأزمنة، لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدَّل، ولا ينالها التغيير: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وفصَّل في هذه الرسالة شريعةً تتناول حياة «الإنسان» من جميع أطرافها، ومن كل جوانب نشاطها، وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطوَّر بتغيُّر الزمان والمكان، وتضع لها الأحكام التفصيلية، والقوانين الجزئية فيما لا يتطور بتغيُّر الزمان والمكان.

لقد تمَّ إكمال العقيدة وإكمال الشريعة معاً.. فهذا هو الدين.

ولم يعدْ للمؤمن أن يتصوَّر: أن بهذا الدين ـ بمعناه هذا ـ نقصاً يستدعي الإكمال، ولا قصوراً يستدعي الإضافة، ولا محلية أو زمانية

تستدعي التطوير والتحرير.. وإلا فما هو بمؤمن، وما هو بمرتضٍ ما ارتضاه الله للمؤمنين.

ويقف المؤمن ثانياً: أمام نعمة الله على المؤمنين، بإكمال هذا الدين.

هذا الدين الذي يحقق «للإنسان» إنسانيته كاملة..

يحققها له وهو يخرجه بالتصور الاعتقادي ـ في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ـ من دائرة الحسِّ الحيوانيِّ الذي لا يدرك إلا المحسوسات، إلى دائرة التصور الإنساني، الذي يدرك المحسوسات وما وراء المحسوسات: عالم الشهادة وعالم الغيب، عالم المادة وعالم ما وراء المادة.

يحققها له وهو يخرجه ـ بتوحيد الله ـ من العبودية للعباد، إلى العبودية لله وحده، والتساوي والتحرر، والاستعلاء أمام كل من عداه.

ولا يدرك حقيقة نعمة هذا الدين، ولا يقدرها قدرها، من لم يعرف حقيقة الجاهلية، ومن لم يذق ويلاتها.

والجاهلية في كلِّ زمان، وفي كلِّ مكان: هي منهج الحياة الذي لم يشرعه الله.

فهذا الذي عرف الجاهلية وذاق ويلاتها ـ ويلاتها في التصور والاعتقاد، وويلاتها في واقع الحياة ـ هو الذي يحسُّ ويشعر، ويرى ويعلم، ويدرك ويتذوَّق حقيقة نعمة الله في هذا الدين.

الذي يعرف ويعاني ويلات الضلال والعمى، وويلات الحيرة والتمزُّق، وويلات الضياع والخواء، في معتقداتِ الجاهلية

وتصوُّراتها ـ في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان ـ هو الذي يعرف ويتذوق نعمة الإيمان.

والذي يعرف ويعاني ويلات الطغيان والهوى، وويلات التخبط والاضطراب، وويلات التفريط والإفراط في كلِّ أنظمة الحياة الجاهلية،هو الذي يعرف ويتذوَّق نعمة الحياة في ظل الإيمان بمنهج الإسلام[١].

ويقف المؤمن ثالثاً: أمام ارتضاء الله الإسلام ديناً للذين آمنوا.

يقف أمام رعاية الله سبحانه وعنايته بهذه الأمة، حتى ليختار لها دينها ويرتضيه، وهو تعبير يشي بحبِّ الله لهذه الأمة، ورضاه عنها، حتى ليختار لها منهج حياتها.

إنَّ ارتضاء اللهِ الإسلامَ ديناً لهذه الأمة، ليقتضي منها ابتداءً أن تدرك قيمة هذا الاختيار، ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين جهد ما في الطاقة من وسع واقتدار، وإلا فما أنكد وما أحمق من يهمل ـ أو يرفض ـ ما رضيه الله له، ليختار لنفسه غير ما اختاره الله»[٢].

إنَّ من نعمة الله على الإنسان أن يكون في عداد المؤمنين المخاطبين بهذه الآية الكريمة، العاملين على التزام وتنفيذ ما تقتضيه.

وطوبى لمؤمن شمله الخطاب الإلٰهي بـ ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ﴾، ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ﴾ فذلك هو التكريم الإلٰهي، والعطاء الإلٰهي.

* * *

(١) ستأتي الأمثلة على ذلك في أقوال الذين أسلموا في مبحث «لماذا الإسلام؟».
(٢) في ظلال القرآن، مقتطفات من (٢/ ٨٤٢ ـ ٨٤٦).

المبحث الثاني
رضيتُ بالإسلام ديناً

لعلَّه من المستحسن ـ باديءَ ذي بدء ـ أن نتعرَّف على مفردات هذه الجملة، التي هي عنوان الكتاب؛ فهذا مما يلقي الضوء على طبيعة هذا البحث.

فـ «الوضع المنطقي السليم في ترتيب أعمالنا العقلية يقتضينا حين نطلب تفسير حقيقة معينة، أن نبدأ بمعرفة عناصرها العامة، ومقوِّماتها الكلية، قبل أن نأخذ في البحث عن مميزاتها ومشخصاتها»[1].

أولاً: الدِّين:

«إذا نظرنا في اشتقاق هذه الكلمة ووجوه تصريفها، نجد أنَّها تعود إلى ثلاثة معانٍ؛ تكاد تكون متلازمة، وهناك تفاوتٌ يسير بين هذه المعاني الثلاثة، مردُّه في الحقيقة إلى أن الكلمة التي يُراد شرحها ليست كلمة واحدة، بل ثلاث كلمات، أو بعبارة أدق: إنها تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب.

بيانه: أن كلمة «الدين» تؤخذ تارة من فعل متعدٍّ بنفسه: «دانه يدينه»، وتارة من فعل متعدٍّ باللام «دان له»، وتارة من فعل متعدٍّ بالباء: «دان به».

---

(١) كتاب «الدين»، للدكتور محمد عبد الله دراز، ص (٢٨).

وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية:

١ ـ فإذا قلنا: «دانه ديناً» عنينا بذلك: أنه ملكه وحكمه وساسه، ودبره وحاسبه، فالدين في هذا الاستعمال يدور على معنى الملك والتصرف بما هو من شأن الملوك من السياسة والتدبير، والحكم والقهر، والمحاسبة.

ومن ذلك: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؛ أي: يوم المحاسبة والجزاء.

وفي الحديث: **(الكيس من دان نفسه)** أي: حكمها وضبطها.

٢ ـ وإذا قلنا: «دان له» أردنا أنه أطاعه، وخضع له، فالدين هنا: هو الخضوع والطاعة، والعبادة، وكلمة «الدين لله» يصح أن يراد منها كلا المعنيين: الحكم لله، أو: الخضوع لله.

٣ ـ وإذا قلنا: «دان بالشيء» كان معناه اتخذه ديناً ومذهباً، أي: اعتقده، أو اعتاده، أو تخلَّق به.

فالدين على هذا: هو المذهب والطريقة التي يسير عليها المرء نظريّاً أو عمليّاً.

وجملة القول في هذه المعاني اللغوية: أنَّ كلمة «الدين» عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين، يعظم أحدهما الآخر ويخضع له.

فإذا وُصِفَ بها الطرف الأول؛ كانت خضوعاً وانقياداً.

وإذا وُصِفَ بها الطرف الثاني؛ كانت أمراً وسلطاناً، وحكماً وإلزاماً.

وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين؛ كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة، أو المظهر الذي يعبِّر عنها.

فالمادة تدور على معنى «لزوم الانقياد» فالدين:

في الاستعمال الأول: هو إلزام الانقياد.

وفي الاستعمال الثاني: هو التزام الانقياد.

وفي الاستعمال الثالث: هو المبدأ الذي يلتزم ـ الإنسان ـ الانقياد له»[١].

وخلاصة ما سبق: أننا أمام طرفين:

أحدهما: في غاية الرفعة والسمو والسلطان.

والثاني: في غاية التواضع والخضوع والذل للأول.

والعلاقة والمنهج الذي يضبط علاقة الثاني بالأول هي ما نسميه «الدين».

* * *

وتعدُّ ظاهرة التديُّن ظاهرة عريقة في القدم.

جاء في معجم «لاروس» للقرن العشرين: «إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية، وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلٰهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسان».

ويقول: «إن هذه الغريزة الدينية لا تختفي، بل لا تضعف ولا تذبل، إلا في فترات الإسراف في الحضارة، وعند عدد قليل جدّاً من الأفراد».

وقال بارتيلمي سانت هيلير: «هذا اللغز العظيم الذي يستحثُّ

(١) المرجع السابق، ص (٣٠ ـ ٥٢) باختصار كبير.

عقولنا: ما العالم؟ ما الإنسان؟من أين جاءا؟ من صنعهما؟ من يديرهما؟ ما هدفهما؟ كيف بدأا؟ كيف ينتهيان؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الدنيا؟ أيُّ مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة؟...

هذه الأسئلة لا توجد أمة، ولا شعب، ولا مجتمع، إلا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة، مقبولة أو سخيفة، ثابتة أو متحولة».

وقال هنري برجسون: «لقد وُجِدَتْ ـ وتوجد ـ جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة».

ويقول أرنست رينان في (تاريخ الأديان): «إن من الممكن أن يضمحل كلُّ شيء نحبه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي، الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية»(١).

فالتدين فطرة قائمة في بنيان الإنسان، وفي أصل تكوينه، ولذا فهي باقية ما بقي الإنسان، ولا يمكن أن تخضع للإزالة، ولكنها قد تتحول من مظهر إلى آخر.

والإنسان الذي كتبت له السعادة، هو من هُدي إلى الدين الصحيح الذي يقدِّر العقل ويكرم الإنسان.

ثانياً: الإســـــلام:

«الإسلام في لغة القرآن ليس اسماً خاصّاً لدين خاص، وإنما هو

---

(١) المرجع السابق، ص (٨٢، ٨٣، ٨٧).

اسم للدين المشترك الذي هتف به كلُّ الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء.

وهكذا نرى نوحاً عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

ويعقوب عليه السلام يوصي بنيه: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وموسى عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

والحواريون يقولون لعيسى عليه السلام: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وبالجملة: نرى اسم الإسلام شعاراً عامّاً يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية.

غير أن كلمة «الإسلام» قد أصبح لها ـ في عرف الناس ـ مدلول معين، هو: مجموعة الشرائع والتعاليم التي جاء بها محمد ﷺ، أو التي استنبطت مما جاء به»[1].

ثالثاً: الرضـــا:

بعد أن تعرفنا على معنى الكلمتين، يحسن بنا الوقوف على معنى «رضيتُ».

والرضا في هذه الجملة يعنى القبول التام الذي ينبع من داخل

---

(١) المرجع السابق، ص (١٧٥ ـ ١٧٦).

الذات بعيداً عن كل ضغط أو إكراه مادي أو معنوي، وهو بهذا المعنى: القناعة التامة التي تستقر في النفس نتيجة لحرية الاختيار.

فالدين لا يتصور أن يقوم على الإكراه، لأنه ـ عندئذ ـ لن يؤدي الوظيفة المطلوبة منه، ومن هنا جاءت القاعدة الكبرى في هذا الدين والتي يقررها القرآن الكريم بقوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهذا النفي الذي جاء في الآية الكريمة هو نفي مطلق لأنه نفي للجنس؛ فالإكراه غير متصوَّر في قضية الدين.

والخلاصة: فالرضا بالشيء: هو قبوله عن رغبة وحب، بعيداً عن كل الضغوط، بحيث تجد النفس راحتها به، وتجد الروح أنسها به، ويكون الإنسان في سعادة وطمأنينة.

فلا بد من إرادة حرة، واختيار حر حتى يكون الرضا.

* * *

وفي ضوء ما سبق يكون معنى قولي: «**رضيت بالإسلام ديناً**» هو:

إني اخترتُ الإسلام ـ من بين الأديان والعقائد ـ ليكون ديني ومذهبي، وقنعتُ واكتفيتُ به، ولن أنظر أو أطلب غيره.

* * *

وبهذا نكون قد ألقينا الضوء على المعنى الإجمالي لعنوان الكتاب، ليكون ذلك مقدمة ـ من المقدمات ـ قبل البدء بتفصيل الموضوع.

❁ ❁ ❁

المبحث الثالث

لماذا الإسلام؟

قد يسأل بعضهم: لماذا الإسلام خاصّة؟.

والجواب: لأن الإسلام يمتلك من الميزات والخصائص ما يجعله النظام الوحيد الذي يلبي حاجة «الإنسان» كل إنسان بغضِّ النظر عن الزمان والمكان.

ـ فهو الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، وهذه ـ وحدها ـ كافية للجواب على السؤال المطروح.

ـ والله هو خالق الإنسان، وهو أعلم بما يصلح لهذا الإنسان من تعاليم وقوانين.. ومن البدهي ومن المسلَّمات: أن مخترع الآلة هو الذي يضع نظام تشغيلها، ولله المثل الأعلى؛ فالله هو خالق الإنسان، وهو ـ وحده ـ العالم بما يصلح له، وقد أرشدهُ إلى الإسلام ليكون نظام حياته.

ـ والإسلام هو دين الفطرة، فهو يتساوق معها ولا يتعارض مع تلبيتها.

ـ وهو الدين الذي لا يقمع الغرائز، بل يبقي عليها وينظِّمها ويهذِّبها.

ـ وهو الدين الذي أعطى للعقل مكانته، وأتاح له العمل بحرية وفعالية.

ـ وهو الذي كرَّم الإنسان على كل المخلوقات.

ـ وهو الذي أقام التوازن بين الدنيا والآخرة، وأجاب على كلِّ الأسئلة التي تدور في خلد الإنسان.

والخصائص والمميزات كثيرة كثيرة، وليس هذا مكان الحديث عنها بالتفصيل، وإنما هو مكان الإشارة والمثال.. وفيما ذُكِرَ بعض ما يلبي الحاجة، وفيه بعض الجواب على السؤال...

ولهذا نقول: «**رضيت بالإسلام ديناً**».

إنها «كلمة» يرددها عشراتُ الملايين كلَّ يوم، إما بلسان الحال وإما بلسان المقال.

وفي كل يوم يعلن بعض الناس انتماءهم إلى الإسلام، ولسان حال كل منهم يقول: «**رضيت بالإسلام ديناً**» قبل أن يجهر بكلمة الإخلاص.

فالرضا هو الخطوة الأولى في هذا الطريق؛ حيث يستقر الإيمان في القلب، ثم يكون الإعلان باللسان.

إن كل إنسان ينتسب إلى هذا الدين، يحمل بين جنبيه دافعاً أو سبباً أو قصةً جعلته يعجب بهذا الدين، فيبادر إلى الدخول فيه.

وهذه الأسباب تُظْهِرُ لنا ـ نحن الذين نشأنا في أحضان الإسلام ـ ميزات وخصائص غابتْ عنا بسبب الإلف، فإلفُ الأشياء ينسي جمالها وخصائصها وميزاتها.

ولهذا وجدت أنه من المستحسن استطلاع بعض أقوال هؤلاء

الذين أعلنوا إسلامهم، وهم في الغالب من علية القوم، ومن طبقة المثقفين والباحثين، ففي ذلك التعرف على ما كان يفتقده هؤلاء ما يرشدنا إلى ميزات هذا الدين التي غابت عن بعضنا نتيجة الإلف، كما سبق ذكر ذلك.

* * *

هذا، وسوف أقدم لكل منهم ترجمة قصيرة:

● **إبراهيم خليل أحمد**: قسّ مبشِّر من مواليد الإسكندرية عام (١٩١٩م)، يحمل شهادات عالية في علم اللاهوت، عمل أستاذاً بكلية اللاهوت بأسيوط، كما عمل سكرتيراً عامّاً للإرسالية الألمانية السويسرية، وكانت مهمته التنصير والعمل ضد الإسلام، لكنَّ تعمقه في دراسة الإسلام قاده إلى الإيمان فأعلن إسلامه عام (١٩٥٩م).. **من أقواله**:

«استوقفني كثيراً **نظام التوحيد في الإسلام**، وهو من أبرز معالم الإسلام، إن التوحيد يجعلني عبداً لله وحده، لست عبداً لأيِّ إنسان، التوحيد في الإسلام يحرر الإنسان ويجعله غير خاضع لأيِّ إنسان، وتلك هي الحرية الحقيقية، فلا عبودية إلا لله وحده».

* * *

● **الدكتور دوغلاس آرشر (عبد الله آرشر): شاب من جامايكا، عمل مديراً للمعهد التربوي في منطقة الكاريبي، كان بروتستانتيًّا.. وبعد انتمائه إلى الإسلام قدَّم استقالته من عمله كأستاذ لعلم النفس في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تخصص هناك، وعاد إلى بلاده لكي يسهم في دعوة أبناء وطنه إلى الإسلام.. من أقواله**:

«إن بحثي لنيل إجازة الدكتوراه كان عن التربية وبناء الأمة، ومن

هنا عرفت ما تحتاج إليه الأمم لبنائها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكذلك البناء الروحي، **واكتشفت أن أركان الإسلام الأساسية تقدِّم أساساً عظيماً، وقاعدة قيمة لإعادة بناء الأمة اجتماعيًّا واقتصاديًّا وروحيًّا**، ولذلك فإذا سألتني: لماذا اعتنقت الإسلام؟ سأقول لك: لأن الإسلام هو دين فريد من نوعه، تشكل فيه أركانه الأساسية قاعدة للحكم، تهدي كلّاً من الضمير، وكذلك حياة المؤمنين به، على حد سواء».

* * *

● **ركس انجرام**: ولد في اسكتلندا أواخر القرن الماضي، وشارك في الحرب العالمية، رحل إلى العديد من بلاد الشرق، ودرس لغاتها وأديانها، وانتهى به المطاف مصوِّراً سينمائيّاً في هوليود، اعتنق الإسلام بعد أن وجد فيه ضالته المنشودة.. **من أقواله**:

«إني أعتقد أن الإسلام هو الدين الذي يدخل السلام والسكينة إلى النفس، ويلهم الإنسان العزاء وراحة البال والسلوى في هذه الحياة.

وقد تسرب روح الإسلام إلى نفسي، **فشعرت بنعمة الإيمان بالقضاء الإلٰهي**، وعدم المبالاة بالمؤثرات المادية من لذة وألم.

لقد درست الدين الإسلامي في عدة سنين، ولم أتخذه ديناً إلا بعد بحث قلبي عميق، وتحليل نفسي طويل، لم أغيِّر ديني إلَّا لكي أجد الراحة من ضجيج الحياة الجنوني، ولأنعم بالسكينة في ظلال الهدوء والتأمُّل، بعيداً عن متاعب الهموم والمحن التي يسببها التكالب على الكسب، والتهالك على المال، الذي أصبح اليوم معبودَ

البشرِ وإلـٰههم، ولأخلِّص نفسي من براثن الإغراء، وخدع الحياة الباطلة، والشراب والمخدرات، وجنون فرقة الجاز.

أسلمت لكي أنقذ ذهني وعقلي وحياتي من الهدم والتدمير».

* * *

● **ماري أوليفر**: مسيحية لم تستطع عقيدتها أن تمنحها القناعة، فأخذت تدرس البوذية والهندوسية، وإذ لم تجد فيها ما كانت تبحث عنه، انتهى بها المطاف إلى الإسلام؛ حيث اعتنقته مؤمنة بأنه الدين الوحيد الذي يستجيب لمطالب الإنسان.. **من أقوالها**:

«إن أهم الجوانب في الإسلام التي أثَّرت في نفسي، **هي بساطة تعاليمه**، وطريقة الحياة المستقيمة البسيطة التي يحياها المسلمون المتمسكون بتعاليم الإسلام.

كما أن الإسلام لا يعتبر أحداً خاطئاً منذ ولادته.

والإسلام هو دين السلام، فهو يدعو إلى إشاعة السلام والانسجام بين المسلمين».

* * *

● **ديبورا بوتر**: ولدت عام (١٩٥٤م) في ولاية متشيغان الأمريكية، وتخرجت من فرع الصحافة بجامعة متشيغان، اعتنقت الإسلام عام (١٩٨٠م) بعد زواجها من أحد الدعاة الإسلاميين في أمريكا، بعد اقتناع عميق بأنه ليس ثمة من دين غير الإسلام يمكن أن يستجيب لمطالب الإنسان ذكراً كان أم أنثى.. **من أقوالها**:

«إن الناس في أوربة وأمريكة يقبلون على اعتناق الإسلام بأعداد كبيرة؛ **لأنهم متعطّشون للراحة النفسية والاطمئنان الروحي**، بل إن عدداً من المستشرقين والمبشرين النصارى، الذين بدؤوا حملتهم

مصممين على القضاء على الإسلام، وإظهار عيوبه المزعومة، أصبحوا هم أنفسهم مسلمين، وما ذلك إلا لأن الحق حجته دامغة، لا سبيل إلى إنكارها».

* * *

● **فاطمة تزفسكن**: ولدت في تشيكوسلوفاكيا عام (١٩٤٣م)، كان اسمها مونيكا، تخصصت في الرسم الهندسي، اتصلت بعدد من المسلمين الألمان، وأعلنت إسلامها بعد اقتناعها عام (١٩٦٣م).. **من أقوالها**:

«دخلت عالم الإسلام الروحي عن طريق القرآن والكتابات الإسلامية، فشعرت ببطء كيف يجذبني الإسلام، **وكانت تعاليمه تخاطب عقلي وفطرتي**، وكان من أهم ما شدني إلى النظام الاجتماعي المثالي في الإسلام، **تساوي جميع الأجناس، والتسامح الذي لا حدَّ له**، والحرية التامة في جميع المجالات الدنيوية والروحية.. وأخيراً وليس آخراً أعجبت بالعلاقة المباشرة بين العبد وربه».

* * *

● **كوفهي لال جابا (خالد لطيف جابا)**: رجل سياسة ومؤلف وصحفي، ولد في مدينة لاهور، منحدراً من أسرة هندوكية عظيمة الثراء، عالية التعليم، وبعد أن أعلن إسلامه انتقل إلى بومبي، من مؤلفاته «الأصوات العامرة»، و«رسول الصحراء».. **من أقواله**:

«كنت كلما مررت بأحد المساجد للمسلمين في الهند، أُفعم قلبي بالإحساس بعظمة هذا المكان وقدسيته، كان قلبي يريد الانضمام إلى جماعة المؤمنين في المسجد، وكان النداء والدافع قويّاً إلى درجة

أنني لم أتمالك نفسي من الدخول إلى المسجد والوقوف في صف المصلين، والحقيقة أنني لم أستطع مقاومة ذلك، وظللت أفعله فترة طويلة من الزمن.

وإذا أراد الناس أن يعرفوا لماذا فضَّلْتُ الإسلام على سائر الأديان الأخرى، بما فيها دين آبائي وأجدادي؟ فسوف أقول لهم: إن أول ما جذبني إلى الإسلام **هو بساطته وصراحته التامة**، ونحن بطبيعة الحال لا نستطيع أن نعدد على أصابعنا كافة الميزات والخصائص العظمى لهذا الدين».

* * *

● **جاوبا**: هندوكي مثقف ومحامٍ كبير بالمحاكم العليا، درس الإسلام... وانتهى به الأمر إلى اعتناقه.. **من أقواله**:

«إن الدين الإسلامي لا يقيم **مراسيم خاصة** لكل داخل في الإسلام، كما تفعل الأديان الأخرى، وإنما حسب المرء أن ينطق بالشهادتين، حتى يغدو عضواً في أعظم أخوة عالمية، يتساوى في ظلها الناسُ جميعاً في الواقع العملي الملموس، إلى جانب الناحية النظرية المجردة وليس في العالم كله أشمل وأصدق من هذه الأخوة الإسلامية..

وإن الأمر الآخر الذي من أجله اخترتُ الإسلام، هو قدرة الإسلام على **التلاؤم والتكيف** مع متطلبات الحياة الحاضرة، فليس هناك أي دين من الأديان المعاصرة يتمتع بمثل هذه المقدرة على حل المشكلات الحاضرة التي تواجه الإنسان في هذا الزمان».

* * *

● **ناجيمو راموني**: ولد لأبوين مسيحيين من غانا، عضو في

كنيسة البعثة المعمدانية، تلقى تعليمه في المدارس التبشيرية، ثم بدأ مهمته كمبشر متحمِّس، ولكن قناعاته اهتزت عندما قدم صديق له كتاباً عن الإسلام، وأعلن إسلامه عام (١٩٦٣م).. من **كلامه**:

«لم يكن لي خيار في المقارنة بين مبدأ التوحيد في التصور القرآني، وبين اعتقادي في الثالوث كمسيحي.. ومن تلك البقعة بالذات بدأتُ أفقد الثقة في الديانة المسيحية..

لقد اعتنقت الإسلام لأنه **دين طبقات الناس جميعاً**، كبيرها وصغيرها، غنيها وفقيرها، دين الأحرار والعبيد، والسادة والمسودين».

❊ ❊ ❊

● **عامر علي داود**: ينتمي إلى أسرة هندية برهمية، تنصَّرتْ على أيدي المبشرين الذين قدموا مع الاستعمار.. ولما اطلع على القرآن الكريم دخل الإسلام.. **من أقواله**:

«بفضل دراستي الحرة البعيدة عن كل تعصُّب مقيت، أصبح إيماني بهذا الدين ـ الإسلامي ـ قويّاً راسخاً، لقد آمنت برسالة القرآن، وأحسستُ أن **الإسلام هو دين الفطرة والكمال**.

لقد اكتشفت أن الإسلام يخاطب الناس مباشرة، ودون أية وساطة من أي نوع، من أجل ذلك كان هذا الدين متمشياً مع الفطرة البشرية».

❊ ❊ ❊

● **فيلويز**: ضابط بحرية بريطاني، نشأ في بيئة نصرانية، أعلن إسلامه عندما قرأ القرآن الكريم عام (١٩٢٤م).. **من أقواله**:

«الإسلام يحقق **الانسجام** التام مع الحياة في هذا العالم، فهو

دين سهل لا التواء فيه ولا تعقيد، مباشر، مجرد من كل الافتراضات التي لا سبيل إلى الإيمان بها، وأشكال العبادة في الإسلام تعكس كل صدق وإخلاص وأمانة».

* * *

● **ليوبولد فايس**: مفكر وصحفي نمساوي، أعلن إسلامه وتسمى بمحمد أسد، وحكى في كتابه القيم «الطريق إلى مكة» تفاصيل رحلته إلى الإسلام.. **من أقواله**:

«إن أي إنسان لديه قسط من العلم ـ حتى ولو كان سطحيّاً يسيراً ـ عن تعاليم الإسلام، يعرف أن هذه التعاليم لا تقف عند حد **تنظيم العلاقة بين الإنسان وخالقه**، ولكنها تتعدى ذلك إلى وضع نظام محدد للسلوك الاجتماعي الذي يجب على المسلم اتباعه، كأثر من آثار تلك العلاقة وكنتيجة لها».

* * *

● **جميلة قرار**: ولدت في النمسا عام (١٩٤٩م) لأبوين ملحدين، حاولت أن تكون مسيحية، ولكن النصرانية لم تستطع إقناعها، فقرأت الإسلام.. واعتنقته في العشرين من عمرها.. **من أقوالها**:

«شعرتُ أني كمسلمة يمكنني أن أحيا حياة كاملة جديرة بالحياة، وأن الإسلام يجعل المرء **يشبع حاجاته الروحية والمادية** على حدٍّ سواء، في توازن يضمن تطور عقليةٍ ثقافيةٍ مبدعة، ويحقق اجتهاداً دائباً لتحسين الوضع المادي للإنسان على أساس من العلاج، لا للإنسان وحده بل لجميع الخلائق».

* * *

● **قرة العين**: هذا اسمها الجديد بعد إسلامها، سيدة أمريكية من

أسرة مسيحية متدينة، تخرجت من جامعة بنسلفانيا، وجدت في الإسلام بغيتها.. **من أقوالها**:

«كنت أشعر أن شيئاً فيما أقرأ يقنعني عقليّاً، ويملأ فراغاً روحيّاً من قلبي كذلك، كنت أشعر والحمد لله بأنني أقرأ عن دين جديد، وليس بجديد على نفسي، كانت القراءة تجيب **بالمنطق والحجة** على تساؤلات كثيرة كانت تدور داخلي من قبل، ولم أكن أجد لها إجابة، باختصار **وجدت في الإسلام الرضا** الذي كنتُ أنشده من قبل عندما كنت مسيحية أبحث عن الحقيقة فلا أهتدي إليها.

وجدت نفسي سعيدة لأنني أخيراً وجدت الدين الذي يمكنني من التعامل مع نفسي وربي أولاً على أساس سليم، مما ينعكس في تعامل صحي وأخلاقي مع باقي أفراد المجتمع».

* * *

● **توماس محمد كلايتون**: مسيحي أمريكي، حدث أنه عثر يوماً على ترجمة لمعاني القرآن الكريم، ففتحت أمامه الطريق إلى الحقيقة.. واعتنق الإسلام عام (١٩٤٧م).. **من أقواله**:

«كان الناس يخلعون أحذيتهم وينتظمون في صفوف طويلة؛ الواحد منها وراء الآخر، وقد أثار دهشتنا، ونحن نرقبهم في صمت، أنه **لا توجد فوارق** من أي نوع بين أفراد هذا الاجتماع، فلقد كان البيض والصفر والسود، إلى جانب الفقراء والأغنياء والشحاذين والتجار، يقفون جنباً إلى جنب، دون التفات إلى العنصر أو المكانة الاجتماعية في الحياة.. إن روح الأخوة التي تجلَّت في ذلك الجمع

المتباين من الناس قد تركت انطباعاً لا يمكن أن يمحى من نفسي ما حييت»[١].

* * *

نكتفي بهذه النماذج القليلة التي يتبين لنا من خلالها كم هو عظيم هذا الدين!..

إنه دين التوحيد الذي يحرر الإنسان من كل العبوديات سوى عبوديته لله تعالى.

وهو الدين الذي تشكل أركانه قاعدة للحكم..

وهو الدين الذي يريح الضمير من خلال الإيمان بالقضاء الإلٰهي..

وهو الدين الذي يحمل البساطة في تعاليمه، ويؤمن الراحة النفسية والاطمئنان الروحي...

وفيه تتساوى جميع الأجناس وتنعدم الفوارق بينها..

وفيه التسامح الذي لا حدَّ له..

وليس له مراسيم خاصة للدخول فيه..

وهو الدين القادر على التلاؤم والتكيُّف مع متطلبات الحياة..

وهو الذي يخاطب الناس مباشرة دون أية وساطة..

وهو الذي يحقق الانسجام التام مع الحياة في هذا العالم..

---

(١) هذه الأقوال جاءت في كتاب «قالوا عن الإسلام»، الذي أعده الدكتور عماد الدين خليل، ونشرته الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

وفيه التنظيم الكامل للعلاقة بين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان والناس..

وفي تعاليمه إشباع للحاجات الروحية للإنسان والمادية على حد سواء..

وهو يجيبك على كل أسئلتك بالمنطق السليم والحجة الواضحة..

كل معنى من هذه المعاني كان سبباً كافياً لانتقال إنسان ـ أو ما شاء الله من الناس ـ إلى هذا الدين الحنيف.

وذلك بعض ما رأيناه في الأقوال السابقة، التي توصَّل إليها الباحثون عن طريق الدراسة والتجربة، ومن خلال الواقع المعاش، ومن خلال المقارنة مع الأديان الأخرى..

فكان صوت الجميع ـ على الرغم من اختلاف أجناسهم ولغاتهم وأماكنهم وأزمنتهم ـ يرتفع بالرضا بهذا الدين قائلاً: «**رضيت بالإسلام ديناً**».



المبحث الرابع
الباعث على تأليف الكتاب

كنت أقرأ في كتاب «الروح» للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكانت المسألة تتعلق بسؤال القبر، عندما استوقفني واسترعى انتباهي نص السؤال الذي هو عن: الرب، والدين، والنبي.

وقد مرَّ بي هذا البحث كثيراً، قرأته في كتب العقيدة، وكتب الحديث، وغيرها...

وكل ما استقر في ذهني من ذلك: هو أن هذه الأسئلة ستكون أول ما يواجه الإنسان في حياته البرزخية، ولكن الذي لفت انتباهي ـ وأنا أقرأ في هذه المرة ـ هو مكانة موضوعات هذه الأسئلة وشمولها.

فهي الخلاصة الكاملة لهذا الدين العظيم.

وإذا كانت العادة في أسئلة الامتحانات والاختبارات أنها تكون مفاجئة ولا يدري المسؤول ما سوف يطرح عليه منها، فإن الله تعالى جعل هذه الأسئلة مكشوفة، وأعلم الناس بها وأتاح لهم حياتهم كاملة فرصة للاستعداد للإجابة عليها.

إن هذه القضايا المسؤول عنها، هي ـ في الحقيقة ـ أصول الإسلام، وقواعده الكبرى، وبغضِّ النظر عن كونها أسئلة القبر، فهي مما يجب على كل مسلم معرفته، معرفة كلية إجمالية، أو معرفة تفصيلية، والجهل بها غير مقبول بحال من الأحوال.

إننا بحاجة لأن تكون بين أيدينا الخطوط العريضة عن هذا الموضوع.

وهذا ما دفعني إلى إعداد هذا البحث، ليكون مرجعاً لي أولاً، وليكون بعد ذلك بين أيدي من أحب من إخواني المسلمين، عسى الله أن ينفع به، وأن يجعلنا ممن قال الله فيهم: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

هذا وسوف يكون عرض الموضوع من خلال مقدمات، ومقصدين:

نتحدث في **المقصد الأول** عن معرفة الأصول الثلاثة.

ونتحدث في **المقصد الثاني** عن أثر الالتزام بها على الإنسان.

والله المسؤول أن يجعل أعمالنا خالصة له، وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



المبحث الخامس
مقدمات بين يدي الكتاب

من المستحسن ـ وقبل مباشرة الحديث عن الموضوع ـ أن نمهِّد له بثلاث مقدمات:

الأولى: وفيها بيان الأسئلة محل البحث.

الثانية: وفيها مؤيِّدات الموضوع.

الثالثة: وفيها بيان مصدر التلقِّي للإجابة على هذه الأسئلة.

* * *

(١)
الأسئلة

وردتْ أسئلة القبر في أحاديث كثيرة، وأوسع هذه الروايات وأشملها ما جاء عند الإمام أحمد وأبي داود رحمهما الله تعالى.

• فعن البراء بن عازب ﵁ قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي ﷺ فقعد، وقعدنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وهو يلحد له. فقال: «**أعوذ بالله من عذاب القبر**» ثلاث مرات، ثم قال: «**إنَّ العبد إذا كان في إقبال من الآخرة، وانقطاع من الدنيا؛ نزلت إليه ملائكة... فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟**».

فيقول: ربي الله.

فيقولان له: ما دينك؟.

فيقول: ديني الإسلام.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟.

فيقول: هو رسول الله.

فيقولان له: وما علمك بهذا؟.

فيقول: قرأتُ كتاب الله، فآمنتُ به وصدَّقتُ.

فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي..

وإن الكافر تعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان، فيقولان له: من ربك؟.

فيقول: هاه هاه!.. لا أدري.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟.

فيقول: هاه هاه!.. لا أدري.

فينادي منادٍ من السماء: أن كذب عبدي»[(١)].

• وفي رواية أبي داود:

«ويأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟.

فيقول: ربي الله.

فيقولان له: وما دينك؟.

---

(١) رواه الإمام أحمد.

فيقول: ديني الإسلام.

فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟.

فيقول: هو رسول الله ﷺ.

فيقولان: وما يدريك؟.

فيقول: قرأتُ كتاب الله، فآمنتُ به وصدقتُ.

فذلك قول الله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ...﴾ الآية [إبراهيم: ٢٧]»[1].

وجاء هذا الحديث في الصحيحين: عن البراء بن عازب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾، قال: **نزلت في عذاب القبر، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله ونبيِّي محمد ﷺ، فذلك قول الله ﷻ:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾»[2].

إنها ثلاثة أسئلة تمثّل أصول العقيدة، يواجَه بها الإنسانُ بعد موته وعند بدء حياته البرزخية، والنجاح بها مؤشر على الفوز في الحياة الآخرة..

وإذا كان الأمر كذلك، فإن التعرف على هذه الأصول في الحياة الدنيا، يُعدّ واجباً له الأولوية.

واختيار هذه الأسئلة للامتحان في القبر يدلُّ على أن المعلومات

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٥٣، ٤٧٥٤).

(٢) رواه البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١) واللفظ له.

والمعارف المتعلِّقة بها، هي من أهمٍّ ما ينبغي أن يعنى الإنسان به في دنياه.

كيف يكون الإنسان مسلماً، وهو لا يعرف ربه؟!.

وكيف يكون مسلماً، وهو لا يعرف دينه؟!.

وكيف يكون مسلماً، وهو لا يعرف نبيه؟!.

إنها أصول الاعتقاد التي لا يكون الإنسان مسلماً إلا بالإيمان بها على الوجه الذي جاء به رسول الله ﷺ.

وهو ما سيكون تفصيله في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

* * *

(٢)
المؤيِّدات

لم يكن من قبيل الصدفة أن تأتي السنة لتحثَّ المسلم على أن يذكِّرَ نفسه بهذه الأصول الثلاثة في كل يوم.

ولم يكن من قبيل الصدفة أن تأتي الأحاديث بهذه الثلاثة حصراً، حتى تكون مطابقة لما جاء في أحاديث سؤال القبر.

وما ذلك إلا لأنها الأصول الكبرى لهذا الدين الحنيف.

ففي سنن الترمذي: عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال حين يمسي: رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيّاً، كان حقّاً على الله أن يرضيه**»[١].

وفي مسند أحمد: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد مسلم يقول**

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٩).

حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات: رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبيّاً؛ إلا كان حقّاً على الله أن يرضيه يوم القيامة»[١].

وهكذا جاء الحثُّ في هذين الحديثين على إعلان الرضا بهذه الأصول الثلاثة صباحاً ومساءً، وما ذلك إلا لتأكيد الصلة بهذه الأصول، ومراجعة الانضباط مع مستلزماتها يوميّاً.

وروى أبو داود: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال: رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة**»[٢].

كما روى الإمام مسلم في صحيحه: عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً**»[٣].

هذه بعض روايات الحديث وغيرها كثير، وكلها تؤكد على هذه القواعد، وتجعلها أسس العقيدة التي لا يكون الإسلام إلا بها؛ وجميعها جاء بهذه الأمور الثلاثة على هذا الترتيب.

* * *

وإذا نظرنا في «الجزاءات» التي وضعتها هذه الأحاديث، وجدناها كالتالي:

«**... كان حقّاً على الله أن يرضيه**».

---

(١) قال في مجمع الزوائد (١٧٠٠٤): رواه أحمد ورجاله ثقات. ورواه أبو داود (٥٠٧٢)، وابن ماجه (٣٨٧٠).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٩).

(٣) رواه مسلم (٣٤).

«. . . كان حقّاً على الله أن يرضيه يوم القيامة».

«. . . وجبت له الجنة».

«ذاق طعم الإيمان. . .».

وهي ما يسعى إليه كل مسلم طول حياته.

فهل تستحق هذه الكلمات الثلاثة ذلك؟.

من الواضح أن هذه الأحاديث جميعها ـ وغيرها مما لم أذكره ـ جاءت بلفظ: «**رضيت**»؛ والرضا يعني: قبول الشيء، قبولاً صادراً عن إرادة حرة في اختيارها، بعيداً عن الإكراه والإجبار، تدفع إليه الرغبة فيه وانشراح الصدر له.

وما كان كذلك من «العقود» فإنه تترتب عليه مقتضياته.

فالذي رضي بالله تعالى ربّاً: أعلن العبودية والخضوع له. . والتوجه إليه بالعبادة والدعاء والنذر، وأعلن اللجوء إليه، والتوكل عليه، والخشوع له.

والذي رضي بالإسلام ديناً: أعلن التزامه بكل ما جاء به هذا الدين.

والذي رضي بمحمد رسولاً: آمن بكل ما جاء به، واتبعه، واتخذه أسوة. .

وإذن فهي كلمات قليلة، وقولها صباحاً، أو صباحاً ومساءً،أو عقب الصلوات، إنما هو إعلان عن تجديد العهد، وتوثيق الالتزام مرة بعد مرة.

فالجزاء ليس على الكلمات، وإنما على ما تحمله هذه الكلمات من معنى ومضمون.

* * *

إن من ثمرات ترديد هذه الكلمات: العيش في معانيها.

ومن عاش في معانيها: «**ذاق طعم الإيمان...**» ولبس حلة الإيمان.

والله تعالى يقول: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وبهذا لا تعدو أسئلة القبر أن تكون عن واقع عاشه المسلم طول حياته، فكانت حياته كلها استعداداً عمليّاً للإجابة على الأسئلة الكريمة.

* * *

(٣)
مصدر التلقِّي

جاء في آخر حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، الذي سبق ذكره في الفقرة الأولى؛ قوله ﷺ: «**فيقولان له: وما علمك بهذا؟**

فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت وصدّقت».

هذه رواية الإمام أحمد، وفي رواية أبي داود:

«**فيقولان له: وما يدريك؟**

فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت وصدّقت».

ومن الواضح أن هذا السؤال لا يتعلق بموضوع الأسئلة الثلاثة التي كانت عن الرب تعالى، والدين، والنبي ﷺ.

إنه سؤال عن مصدر الأجوبة التي أدلى بها المسؤول، فبيَّن أنها من كتاب الله تعالى.

وإذن فهذه الفقرة من الحديث تؤكد على ضرورة سلامة المصدر والمرجع الذي يُعزى إليه العلم.

وإذا كان السؤال عن المصدر أو المرجع واقعاً في حياة البرزخ ومطلوباً الإدلاءُ به، فالحاجة إليه في الحياة الدنيا من باب أولى.

فلا بد للمسلم من التأكُّد من صحة المعلومة وصحة نسبتها إلى المصدر، وبخاصة إذا كانت في أمر الاعتقاد.

والمرجع للمسلمين: هو الكتاب والسنة، ولن يضلَّ من تمسَّك بهما.

* * *

ولهذا السؤال ـ من أسئلة القبر ـ إيحاؤه الكبير.

فهو سؤال من جملة الأسئلة، والإعداد له ـ كبقية الأسئلة ـ إنما يكون في الدنيا.

فتوثيق العلم وأخذه من مصادره، من أهم واجبات المسلم.

* * *

نخلص مما سبق، إلى أن:

ـ معرفة الربِّ تعالى.

ـ ومعرفة الدين.

ـ ومعرفة النبي ﷺ.

ينبغي أن تكون في أوائل اهتمامات المسلم، وذلك لأنها لو لم تكن لها هذه المكانة المتقدمة، لما انصبّت أسئلة القبر عليها.

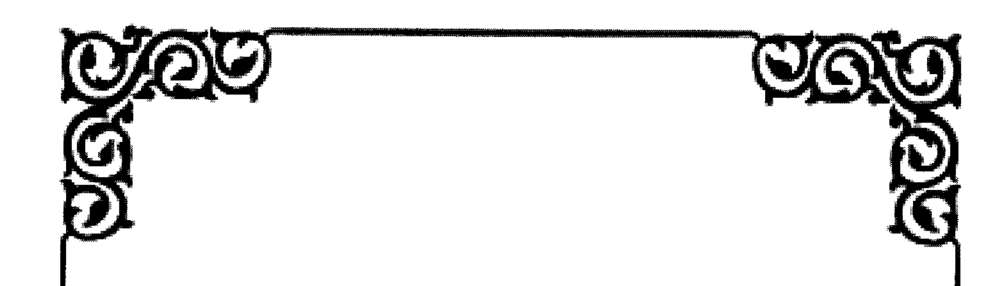
ولو لم تكن كذلك أيضاً، لم يكن لطلب إعلان الرضا بها صباحاً ومساءً معنى.

ولهذا وجب على كل مسلم أن يتعرف على هذه الأصول الثلاثة، فهي قواعد الدين الكبرى وأركانه المتينة.

وأن تكون هذه المعرفة مستندة إلى القرآن والسنة حتى تكون خالصة نقية بعيدة عن كل زيغ أو انحراف.

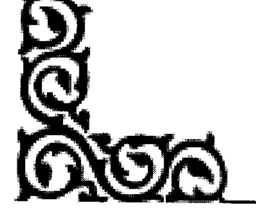
وهو ما سوف نبينه ـ إن شاء الله ـ في المقصد الأول.



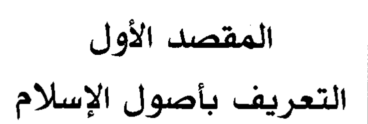


المقصد الأول

التعريفُ بأصولِ الإسلامِ







البَابُ الأَوَّلُ

في معرفة «الربِّ» تعالى

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾

[محمد: ١٩]

تمهيد
مكانة «المعرفة»

تعد «معرفة الله تعالى» أول فرائض هذا الدين، إذ لا يكون المسلم مسلماً إلا بها.

وقد نبَّه علماء هذه الأمة على مكانة هذا الركن العظيم وخطره، ومن ذلك قول الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فلو أن عبداً عاش دهره مجتهداً في العبادة ولم يعرفها، ولم يعمل عليها، ثم صار إلى الله عَزَّوَجَلَّ على الجهل بها، لم ينتفع بشيء من ذلك، إلا أن يتفضَّل الله - جل ثناؤه - عليه.

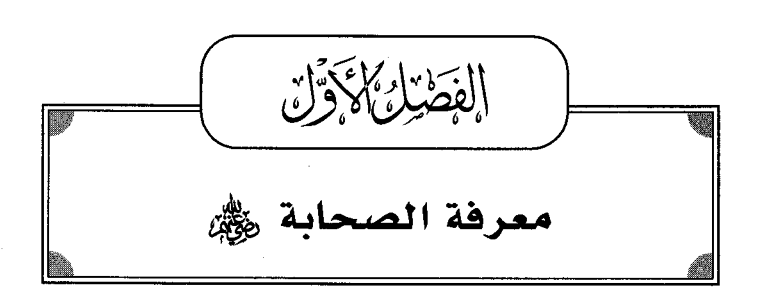
وهي فرض من الله عَزَّوَجَلَّ على العباد.

وهي موجودة في كتاب الله تعالى المنزّل.

ولو أن عبداً عبدَ الله تعالى ألف سنة، ثم ألف سنة، ثم لم يعرفها، ولم يعمل بها، لم يزدد بعمله من الله تعالى إلا بعداً»[1].



(١) مقدمة «شرح المعرفة» للحارث المحاسبي، تحقيق صالح أحمد الشامي، نشرته دار القلم بدمشق.



الفصل الأول

معرفة الصحابة ﷺ

كان العرب قبل الإسلام يعبدون الأصنام التي انتشرت حول الكعبة وفي أماكن متعددة من أرجاء أرض العرب، ومع ذلك كانوا يعترفون بأن الخالق هو الله سبحانه، ويرون في عبادة الأصنام وسيلة تقرّبهم إلى الله زلفى.

وجاء الإسلام بالتوحيد الخالص، ولم يكن على من أراد إعلان إسلامه أكثر من أن يقول: (**أشهد أن لا إلـٰه إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله**)، وكلمة التوحيد هذه ـ في معناها السهل، الميسر فهمه لكل إنسان ـ تعني نبذ كل الآلهة والبراءة منها، والاعتراف بإلـٰه واحد هو الله ﷻ، والاعتراف بأن محمداً ﷺ هو المبلِّغ عن الله سبحانه.

ولقد نطق بهذه الكلمة أبو ذر الغفاري مع بدء الدعوة إلى الله في مكة حينما أعلن إسلامه، ونطق بها عبد الله بن سلام بعد الهجرة مباشرة، ونطق بها عمير بن وهب عقب غزوة بدر، ونطق بها ثمامة بن أثال في السنة السادسة للهجرة عندما أعلن إسلامه. . . ونطق بها كل من دخل بهذا الدين.

هي كلمة واحدة: (**أشهد أن لا إلـٰه إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله**) لم يضف إليها شيء مع مرور الزمن.

لم يكن لها طقوس أو شكليات.. كل ما هناك كان يسبقها الاغتسال أو يعقبها.. وكان الصحابي الجديد يتفقه على أيدي الصحابة الذين سبقوه، كما قال ﷺ للصحابة عندما أسلم عمير بن وهب: «**فقِّهوا أخاكم**».

هذا هو الإسلام: عقيدة سهلة ميسرة.

ونتساءل كيف كانت تحصل معرفتهم بالله تعالى؟.

ما من شك أنه لم تعقد لهم الحلقات لدراسة علم الكلام، ولم تناقش بينهم مسألة الصفات، ولا قضية التفريق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية.

وإنما كان الصحابي بعد أن يُسلم، يتربَّى في أمر الاعتقاد على ما يفهمه من آيات القرآن الكريم، ولم يكن بحاجة إلى من يفسر له أو يشرح له، فقد نزل القرآن الكريم بلغته، وهو يعرف حقيقتها ومجازها، والخاص منها والعام، والمطلق والمقيد.

وصلته بالقرآن وثيقة، فهو يسمع آياته كل يوم في الصلاة الجهرية ثلاث مرات يسمعها من الرسول ﷺ، كما كان للصحابة جلسات يتلون فيها كتاب الله ويتعلمونها.

ولقد عاشوا مع هذه الآيات وهي تتنزل على رسول الله ﷺ آية آية... وكان السابقون الأولون منهم يعرفون مكان وزمان نزول كل آية، والمناسبة التي نزلت بشأنها.. فلم يكن يصعب عليهم فهم القرآن.

فكان أحدهم إذا قرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، أو سمعه؛ فهم منه أن الخالق الذي أوجد السموات والأرض وما بينهما واحد، لا ثاني له، يتصرَّف في ملكه كيف يشاء.

وإذا سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]؛ فهم من ذلك أن لله تعالى قدرة، يقدر بها على كل شيء.

وإذا سمع قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]؛ علم أن الله تعالى متصف بصفة الكلام.

وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]؛ فهم أن لله تعالى صفة الإرادة.

وإذا قرأ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ علم أن لله تعالى سمعاً وبصراً.

وهكذا من خلال قراءة القرآن وسماعه تكونت لديهم صورة واضحة عن صفات الله تعالى... كل ذلك في ضوء قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١].

* * *

وأما ما جاء من الصفات في الآيات المتشابهة مثل قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]... وما شابه ذلك من الآيات الكريمة، فلم ينقل عنهم أنهم فسروها أو سألوا رسول الله ﷺ عنها، أو تناقشوا في معناها.

علماً بأنهم اختلفوا في فهم بعض النصوص، ففي الحديث المتفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبيّ ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: «**لا يصلّين أحدٌ العصرَ إلّا في بني قريظة**».. فأدرك بعضَهم العصرُ في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال

بعضهم: بل نصلّي، لم يرد منا ذلك، فذكر للنبيّ ﷺ، فلم يعنِّف واحداً منهم[1].

وإذا كان قد نقل لنا مثل هذا الخلاف، فلو أنهم اختلفوا في آيات الصفات لنقل لنا.. ولكن ذلك لم يحدث.

وإنما حصل الاختلاف فيمن أتى بعدهم، ولقد كان الموقف من فهم الصفات سبباً في نشوء عدد من فرق المسلمين؛ فمنهم من قال بالتجسيم والتشبيه، ومنهم من نفى الصفات.. ومنهم.. ومنهم، مما لا مجال للحديث عنهم.

والذي ذهب بهم إلى تلك المذاهب، هو عدم الانضباط مع القواعد التي وضعها الإسلام لهذا الموضوع، والتي التزم بها الصحابة ومن سار على هديهم من التابعين ومن بعدهم.

لقد تجنب الصحابة رضي الله عنهم الخوض فيما لم يأمر الشرع بالتنقيب عنه، وتجنبهم هذا حسم مادة الخلاف، فلم يؤثر عنهم شيء من هذا.

قال أنس رضي الله عنه: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] فلما أتى على هذه الآية: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١] قال: قد عرفنا ما الفاكهة، فما الأبُّ؟ ثم قال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلُّف، قال ابن كثير: وإسناده صحيح.

قال ابن كثير: أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض. اهـ.

---

(١) رواه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

لقد اكتفى عمر رضي الله عنه بالمعرفة الكلية والفهم العام، ورأى أن التنقيب فيما وراء ذلك من التكلف.

وإذا كان شأن الصحابة هو عدم التنقيب في مثل هذه الآية؛ فمن باب أولى أن يكتفوا بما جاء في النص القرآني فيما هو أعظم من ذلك فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته.

* * *

إن موقف الصحابة من هذه الآيات الكريمة، التي وصفَ الله تعالى بها نفسه، أنهم اعتقدوها وآمنوا بها، وسلَّموا بما فيها، ووكلوا معناها إلى الله تعالى.

ولقد علمنا موقفهم هذا، من خلال الضوابط التي التزموا بها، فكانت الحافظ لهم من الوقوع في الزلل والانحراف، ومن هذه الضوابط:

١ ـ أنَّ إدراك حقيقة ذاته تبارك وتعالى غير ممكنة، والعقل ليس مؤهَّلاً لذلك، وصفاته تبارك وتعالى كذلك أيضاً، والواجب هنا التسليم، لما أخبر الله تعالى به على الجملة دون التنقيب الذي لا طائل وراءه.

٢ ـ الوقوف عند قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ فهي الحكم الفصل فيما يتعلَّق بالله تعالى وصفاته، وإن فهمها والعمل بمقتضاها يوفر على العقل جهوداً كبيرة لو بذلها لم يكن وراءها طائل، ويبعده عن الزيغ والانحراف، ومثلها قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]؛ فالأحد هو الذي لا مثيل له.

٣ ـ وقد بَيَّنَ القرآن موقف المسلم من الآيات المتشابهة؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ

وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

لقد كان موقف الصحابة ﷺ أنهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾.

٤ ـ **احترام وتقديس النص القرآني**، وعدم التدخُّل في تفسير الآيات التي تتعلَّق بجلال الله وعظمته، فما يبلغ قول قائل مهما بلغ ما يبلغ القرآن الكريم في بيان المقصود، ولهذا لم يؤثر عن الصحابة الكرام شرحٌ أو تفسير لهذه الآيات.

٥ ـ **التزام الصحابة ﷺ بعدم الخوض والجدال في هذه المسألة** تنفيذاً لأمر الرسول ﷺ، وسيأتي بيان ذلك مفصلاً.

٦ ـ **لقد اكتفى الصحابة الكرام بفهم المراد الأعم من هذه النصوص جميعاً**، وهو أنها دالة على تعظيم الله تعالى وتقديسه وأن له صفات الكمال كلها.

وإذا فهم من هذه الصفات معناها العام الذي سيقت له، وهو بيان جلال الله تعالى وعظمته وكبريائه، فذلك هو المطلوب، ولا حاجة للتنقيب.

تلك هي بعض الضوابط التي التزم بها الصحابة، فكانوا القدوة التي تتبع، كيف لا، وهم تلاميذ الرسول ﷺ، الذين أخذوا عنه، وفهموا عنه، وهم خير القرون.

إن التزام منهجهم فيه السلامة، وهو ما فعله السلف الصالح ممن أتى بعدهم.

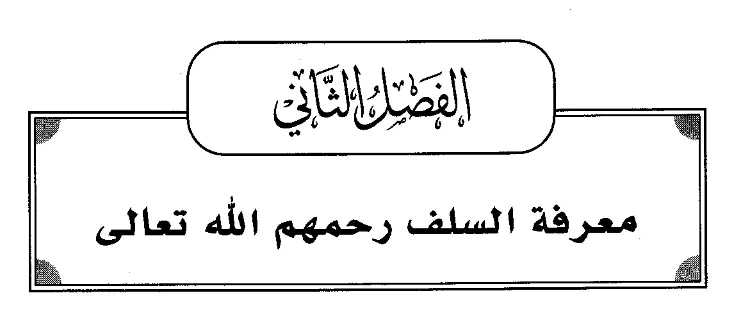
قال الشيخ محمد السفاريني في كتابه «لوائح الأنوار البهية»:

«اعلم أن الصحابة الكرام، قد تنازعوا في كثير من مسائل الأحكام ـ وهم سادات المؤمنين ـ ولكن بحمد الله تعالى لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة على كل حال، فكلمتهم واحدة من أولهم إلى آخرهم، لم يسوموها تأويلاً، ولم يحرِّفوها عن مواضعها تبديلاً.. بل تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم»(١).



---

(١) نموذج من الأعمال الخيرية، لمحمد منير عبده آغا الدمشقي، ص (١١٢)، الناشر: مكتبة الإمام الشافعي ـ الرياض.



الفصل الثاني

معرفة السلف رحمهم الله تعالى

بعد أن تعرَّفنا على موقف الصحابة رضي الله عنهم من مسألة «معرفة الله تعالى» وبخاصة ما يتعلق بالصفات؛ يحسن أن نعلم كيف اقتدى بهم السلف الصالح.

جاء في كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني، قوله:

«إن أحمد بن حنبل وجماعة من أئمة السلف، جروا على منهاج السلف المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث، مثل مالك بن أنس ومقاتل بن سليمان، وسلكوا طريق السلامة؛ فقالوا: نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة، ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعاً أن الله عز وجل لا يشبه شيئاً من المخلوقات..

وكانوا يحترزون عن التشبيه إلى غاية أن قالوا: من حرَّك يده عند قراءة قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، أو أشار بإصبعيه عند رواية حديث: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن**» وجب قطع يده وقلع إصبعيه..

وقالوا: إنما توقفنا في تفسير الآيات وتأويلها لأمرين:

أحدهما: المنع الوارد في التنزيل في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ

تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]؛ فنحن نحترز عن الزيغ.

والثاني: أن التأويل أمر مظنون بالاتفاق، والقول في صفات الباري بالظن غير جائز، فربما أوَّلنا الآية على غير مراد الباري تعالى فوقعنا في الزيغ، بل نقول كما قال الراسخون في العلم: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ [آل عمران: ٧]، آمنَّا بظاهره، وصدقنا بباطنه، ووكلنا علمه إلى الله تعالى، ولسنا مكلفين بمعرفة ذلك، إذ ليس ذلك من شرائط الإيمان وأركانه»[١].

هذا هو الخط العام الذي جرى عليه السلف رضوان الله عليهم، ويحسن بنا إيراد بعض من أقوالهم، وبعضٍ من مواقفهم، لتكون أمثلة من الواقع عن مسلكهم.

***

قال الإمام الشافعي: سئل الإمام مالك عن الكلام والتوحيد، فقال: «محال أن نظن بالنبيّ ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد، والتوحيد ما قال النبيّ ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إلـه إلا الله، فإذا قالوا: لا إلـه إلا الله، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها**»[٢] فما عصم الدم والمال فهو حقيقة التوحيد»[٣].

هذه هي العقيدة في يسرها، كما فهمها الإمام مالك والصحابة من قبله، وهي الصورة التي ظلَّت قائمة في نهج السلف.

---

(١) الملل والنحل، ص (١١٩ ـ ١٢٠)، دار المعرفة ـ بيروت.

(٢) رواه مسلم (٢١).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٦).

وقد سئل الإمام عمر بن عبد العزيز عن الأهواء وكيفية البعد عنها، فقال للسائل:

«عليك بدين الصبيان، الذين في الكُتّاب، والأعرابيِّ، والْهَ[١] عما سواهما»[٢].

ودين الصبيان هو ما تعلموه في الكُتَّاب من شهادة أن لا إلٰه إلَّا الله، وأن محمداً رسول الله، ومعرفة أركان الإسلام وأركان الإيمان على الجملة، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام الذي رواه عمر رضي الله عنه - والذي سيأتي ذكره - وهو ما عليه عامة المسلمين.

إنها عقيدة سهلة ميسرة... بعيدة عن التعقيد.

ويلخص لنا ابن قدامة المقدسي طريقة السلف بقوله:

«وكل ما جاء في القرآن أو صحَّ عن المصطفى ﷺ من صفات الرحمن، وجب الإيمان به، وتلقيه بالتسليم والقبول، وترك التعرض له بالردِّ والتأويل والتشبيه والتمثيل، وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظاً، وترك التعرض لمعناه.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه، في قول النبيّ ﷺ: «**إن الله ينزل إلى سماء الدنيا**»[٣] وما أشبه هذا الحديث: نؤمن بها، ونصدق بها، لا كيف ولا معنى[٤]، ولا نرد شيئاً منها.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: آمنت بالله، وبما جاء عن الله، على

---

(١) **الْهَ**: من اللهو، والمراد: عدم الالتفات إلى غير ذلك.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص (٥٤).

(٣) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٤) أي: لا نقول: كيف هي؟ ولا نقول: معناها كذا وكذا، بل نقول: صفة أثبتها الله تعالى لنفسه، فنحن نثبتها له، ونكل كيفيتها ومعناها إليه تعالى.

مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله.

وعلى هذا درج السلف، وأئمة الخلف ﷺ كلهم متفقون على الإقرار والإمرار والإثبات، لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله من غير تعرض لتأويله»[١].

***

إن ما حدث بعد الصحابة من جعل «الصفات» محلّاً للجدل والنقاش، وطرح أسئلة لم تكن في زمنهم يُعدُّ بدعة منكرة.

قال يحيى بن يحيى: كنا عند مالك بن أنس، فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟.

فأطرق مالك رأسه، حتى علاه الرحضاء، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً، ثم أمر به أن يخرج[٢].

والموقف يوحي بأن الإمام يتعرض لهذا السؤال لأول مرة، وقد عدَّه بدعة، فقد تعودوا أن يقرؤوا القرآن، وأن تمرَّ بهم هذه الآية وأمثالها، فيفهم الواحد منهم ما كتب الله له من الفهم، ولا يحوِّل ذلك إلى نقاش.

وللأدرمي موقف دقيق في هذه المسألة، أوضح فيه أن التكلم بمثل هذه المسائل بدعة:

---

(١) عن كتاب: لمعة الاعتقاد، للإمام ابن قدامة.

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٠ ـ ٤١).

«قال محمد بن عبد الرحمن الأدرمي لرجل تكلم ببدعة[١]، ودعا الناس إليها:

قال الأدرمي: هل علمها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي، أو لم يعلموها؟.

قال: لم يعلموها.

قال: فشيء لم يعلمه هؤلاء، علمته أنت؟!.

قال الرجل: فإني أقول قد علموها.

قال: فوسعهم أن لا يتكلموا به، ولا يدعو الناس إليه، أم لم يسعهم؟.

قال: بلى وسعهم.

قال: فشيء وسع رسول الله ﷺ وخلفاءه لا يسعك أنت؟!.

فانقطع الرجل!..»[٢].

وهكذا رأوا أن ما سكت عنه الصحابة ينبغي السكوت عنه، وأن اقتفاء أثرهم فيه السلامة.

***

وهكذا كان الالتزام بمسلك الصحابة هو المنهج الذي سار عليه السلف الصالح من هذه الأمة:

«**قال ابن الجوزي**: قال رجل لابن عقيل: ترى لي أن أقرأ علم الكلام؟.

---

(١) هي بدعة القول بخلق القرآن.

(٢) لمعة الاعتقاد، للإمام ابن قدامة.

فقال: الدين النصيحة، أنت الآن ـ على ما بك ـ مسلم سليم، وإن لم تنظر في الجزء، ولا عرفت الخلا والملا، والجوهر والعرض، وهل يبقى العرض زمانين؟ وهل القدرة مع الفعل أو قبله؟ وهل الصفات زائدة على الذات؟ وهل الاسم عين المسمى أو غيره؟ **وإني أقطع أن الصحابة ﷺ ماتوا وما عرفوا ذلك**، فإن رأيت طريقة المتكلمين أجود من طريقة أبي بكر وعمر فبئس الاعتقاد»[(١)].

وقال ابن عقيل: «قد رجعت إلى معتقدي في المكتب ـ أي التعليم الابتدائي ـ متبعاً للكتاب والسنة، وأبرأ إلى الله ﷻ من كل قول حدث بعد أيام رسول الله ﷺ ليس في القرآن ولا في السنة».

وقال أيضاً: «واعجباً! يختلف الناس في ماهية العقل ولا يدرون، فكيف يقدمون على الكلام في خالق العقل؟!»[(٢)].

وهكذا يرجع ابن عقيل إلى نصيحة عمر بن عبد العزيز عندما قال: «عليك بدين الصبيان الذين في الكتاب» ويرى أن ذلك هو الطريق الأسلم.. وهو ما وقف عنده الصحابة الكرام.

* * *

وللشيخ علي الطنطاوي ﷺ كلام جميل من أجل السلامة في هذا الموطن يقول فيه:

«وهو ـ أمر الصفات ـ موضوع نزاع بين العلماء طويل، والحق أن هذه الآيات نزلت من عند الله.

من أنكر شيئاً منها كفر.

---

(١) الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/ ٢٠٤).

(٢) المرجع السابق (١/ ٢٠٦).

ومن عطَّلها تماماً فجعلها لفظاً بلا معنى كفر.

ومن فهمها بالمعنى البشري، وطبَّقه على الله، فجعل الخالق كالمخلوق كفر.

والمسلك خطر، والمفازة مهلكة.

والنجاة منها باجتناب الخوض فيها، واتباع سنن السلف، والوقوف عند حدِّ النصّ.

وهذا ما أدين الله به، وما أعتقده»(١).

* * *

وأختم هذا الفصل بكلمات **للإمام ابن الجوزي**؛ ففيها السلامة لمن أراد الحق واتباع السنة، قال رحمه الله:

«جاء الرسول ﷺ بكتاب عزيز من الله ﷻ، قيل في صفته: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وبيَّن ما عساه يشكل مما يحتاج إلى بيانه بسنته، كما قيل له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال بعد البيان: «**تركتكم على بيضاء نقية**»(٢).

فجاء أقوام فلم يقنعوا بتبيينه، ولم يرضوا بطريقة أصحابه، فبحثوا، ثم انقسموا»(٣).

وقال أيضاً:

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام، ص (٩٧ ـ ٩٨)، الناشر: دار المنارة ـ جدة.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦).

(٣) صيد الخاطر، لابن الجوزي، الفصل (٧١).

«إن الشِّرب[١] الأول لم يتكلموا في شيء من هذا الخلاف، ثم جاء فقهاء الأمصار فنهوا عن الخوض في الكلام.

ومن لم يقنع بعقيدة مثل الصحابة، ولا بطريق مثل طريق أحمد والشافعي في ترك الخوض، فلا كان من كان»[٢].



(١) الشرب: القوم، والمراد هنا: الجيل الأول، وهم الصحابة رضي الله عنهم.

(٢) صيد الخاطر، الفصل (١٩٥).

الفصل الثالث

أقوال العلماء في بيان معرفته تعالى

بعد أن وقفنا على طريقة الصحابة والسلف من بعدهم رضي الله عنهم بشأن معرفته سبحانه وتعالى، رأيت أن أضع بين يدي القارئ الكريم نماذج متعددة من جهود أئمة العلماء في بيان هذا الموضوع، وشروحهم له، إذ لكل منهم طريقته في العرض، وأسلوبه في الشرح، وقد اجتهد في تقديم ما رأى أنه يؤدي الغرض ويوصل إلى المطلوب.. رحمهم الله تعالى وأثابهم على ما قدموا وما بينوا.

وسيكون عرض أقوال العلماء حسب الترتيب الزمني:



١ - الإمام الحارث المحاسبي

قال الإمام أبو عبد الله الحارث المحاسبي:

«معرفة الله تعالى: هي أن يَلْزَمَ قلبَكَ قربُه منك، وقيامه عليك[1]، وقدرته عليك، وشهادته وعلمه بك،، وأنه رقيب حفيظ عليك.

---

(١) المعنى: أن يلازم قلبك معرفة أنه سبحانه وتعالى قريب منك، قائم عليك.

وأنه واحد لا شريك له في ملكه.

وأنه عندما وعد صادق، وعندما ضمن وافٍ، وأنه عندما دعا وندب العباد إليه مليء.

وله وعد ينجزه، ووعيد ينفذه فيمن يشاء.

وله مقام تصير إليه الخلائق، وثواب وعقاب.

ليس له شبيه ولا مثيل.

وأنه رحيم ودود، سميع عليم.

وأنه كل يوم هو في شأن، لا يشغله شأن عن شأن.

يعلم الخفي وفوق الخفي، والضمير والخطرات والوساوس، والهمة والإرادة، والحركة والطرفة، والغمزة والهمزة وما فوق ذلك، وما دون ذلك، مما دقَّ فلا يعرف، وجلَّ فلا يوصف، مما كان ويكون.

وأنه عزيز حكيم»[١].



٢ ـ الإمام ابن الجوزي

قال أبو الفرج، ابن الجوزي:

«من أعجب الأمور طلب الاطلاع على تحقيق العرفان لذات الله ﷻ، وصفاته، وأفعاله، وهيهات! ليس إلا المعرفة بالجملة»[٢].

---

(١) شرح المعرفة، للحارث المحاسبي، ص (٣٠ ـ ٣١).

(٢) صيد الخاطر، الفصل (٢٤٧).

«واعلم أن ذاته سبحانه لا تشبه الذوات، وصفاته ليست كالصفات، وأفعاله لا تقاس بأفعال الخلق.

فليعلم أن الصفات تابعة لتلك الذات، فلا يجوز أن نقيس شيئاً منها على ما نفعله ونفهمه، بل نؤمن به ونسلّمه.

وكذلك أفعاله.

ومن قاس فعله على أفعالنا غلط الغلط الفاحش.

فإياك إياك أن تقيس شيئاً من أفعاله على أفعال الخلق، أو شيئاً من صفاته، أو ذاته سبحانه وتعالى»[(١)].

* * *

٣ ـ الإمام فخر الدين الرازي

الإمام فخر الدين الرازي، العلامة الشافعي المفسر المتكلِّم، صاحب التصانيف المشهورة؛ ومنها: التفسير الكبير.. المتوفى سنة (٦٠٦هـ).

جاء في ترجمته: أنه حفظ اثني عشر ألف ورقة في علم الكلام[(٢)].

ولكنه بعد ذلك ندم ندماً شديداً، وقال: يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام.. وبكى.

وقال: «اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فلم

(١) صيد الخاطر، الفصل (٢٣٨).
(٢) المباحث المشرقية، للإمام الرازي، ص (١٨)، الناشر: دار الكتاب العربي.

أجدها تروي غليلاً، ولا تشفي عليلاً، ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن.

اقرأ في التنزيه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

واقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، و﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، و ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

واقرأ في أن الكل من الله قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]».

ثم قال: «وأقول من صميم القلب من داخل الروح: إني مقرٌّ بأن كلَّ ما هو الأكمل الأفضل الأعظم الأجل فهو لك ـ سبحانك ـ، وكل ما هو عيب ونقص فأنت منزَّه عنه»(١).

وقال في وصيته: «وأقول: ديني متابعة الرسول محمد ﷺ، وكتابي القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما»(٢).

❊ ❊ ❊

إن تجربة الإمام الرازي تجربة غنية بالفوائد، فقد شغل جلَّ حياته في كتب الفلسفة وعلم الكلام.. ليصل إلى هذه النتيجة التي وضعها بين أيدينا حتى نستفيد منها فلا نقع بما وقع فيه.

إن الطريق المستقيم الموصل إلى المعرفة بيُسر وسهولة، هو

---

(١) شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي (٥/ ٢١).

(٢) المباحث المشرقية، ص (٥٥).

الرجوع إلى الكتاب والسنة؛ ففيهما الغُنية عن غيرهما، وتلك هي طريقة السلف.

***

٤ ـ الإمام ابن قدامة المقدسي

قال الإمام موفق الدين ابن قدامة[(١)]:

«هو الله المحمود بكل لسان، المعبود في كل زمان، الذي لا يخلو من علمه مكان، ولا يشغله شأن عن شأن.

جلَّ عن الأشياء والأنداد، وتنزه عن الصاحبة والأولاد، ونفّذ حكمه في جميع العباد.

لا تمثله العقول بالتفكير، ولا تتوهمه القلوب بالتصوير، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

له الأسماء الحسنى والصفات العلى.

أحاط بكل شيء علماً، وقهر كل مخلوق عزة وحكماً، ووسع كل شيء رحمة وعلماً: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

موصوف بما وصف به نفسه في كتابه العظيم، وعلى لسان نبيه الكريم.

---

(١) هو: الإمام الفقيه، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، أحد الأئمة في مذهب الإمام أحمد، صاحب «المغني» وغيره من الكتب، توفي سنة (٦٢٠هـ) رحمه الله تعالى.

وكلما جاء في القرآن، أو صحّ عن المصطفى ﷺ من صفات الرحمن؛ وجب الإيمان به، وتلقِّيه بالتسليم والقبول، وترك التعرض له بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل.

وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظاً، وترك التعرض لمعناه»[١].

***

٥ ـ الإمام ابن قيّم الجوزية

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

«معرفة الله سبحانه نوعان:

الأول: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس، البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

والثاني: معرفة توجب الحياءَ منه، والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه.

ولهذه المعرفة بابان واسعان:

الباب الأول: التفكُّر والتأمل في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله ﷺ.

والباب الثاني: التفكُّر في آياته المشهودة، وتأمُّل حكمته فيها، وقدرته ولطفه، وإحسانه وعدله، وقيامه بالقسط على خلقه.

---

(١) عن كتاب: لمعة الاعتقاد، للإمام ابن قدامة.

وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنى، وجلالها وكمالها، وتفرّده بذلك، وتعلقها بالخلق والأمر:

فيكون فقيهاً في أوامره ونواهيه.

فقيهاً في قضائه وقدره.

فقيهاً في أسمائه وصفاته.

و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤]»[(١)].

* * *

وقال رحمه الله تعالى:

«أعلمُ الناسِ معرفةً لله من عرفه من كلامه.

فإنه يعرف ربّاً قد اجتمعت له صفات الكمال ونعوت الجلال، منزّه عن المثال، بريء من النقائص والعيوب.

له كل اسم حسن، وكل وصف كمال، فعّال لما يريد، فوق كل شيء، ومع كل شيء، وقادر على كل شيء، ومقيم لكل شيء.

أكبر من كل شيء، وأجمل من كل شيء.

أرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين.

فالقرآن أنزل لتعريف عباده به، وبصراطه الموصل إليه»[(٢)].

* * *

---

(١) كتاب الفوائد، للإمام ابن القيم، الفصل (٩٦).

(٢) كتاب الفوائد، الفصل (١٠٥).

٦ ـ العلاّمة سيّد قطب

تكلم العلاّمة سيّد قطب رحمه الله بكلام مطوّل حول معرفة الرب سبحانه وتعالى تحت عنوان: «حقيقة الألوهية»، ونقل كلامه لا يتناسب مع مخطط هذا البحث فرأيت أن أجتزئ بجمل قليلة تمثل عناصر البحث ووجهته.

قال رحمه الله:

«الحقيقة الأولى، والحقيقة الكبرى، والحقيقة الأساسية، والحقيقة الفاعلة في التصور الإسلامي هي: حقيقة الألوهية.

وهي في طبيعتها الكلية المطلقة الأزلية الأبدية أكبر من مجال إدراك الكينونة البشرية الجزئية المحدودة الحادثة الفانية، ولكن حسب «الإنسان» منها ما يصح به تصوره، وما يستقيم به فكره، وما يصلح به ضميره، وما تنتظم به حياته، وما يعرف به مقتضيات عبوديته لهذه الألوهية.

وهو قادر على إدراك هذا القدر عن تلك الحقيقة الكلية المطلقة الأزلية والأبدية.

والمنهج القرآني يزحم الشعور الإنساني بحقيقة الألوهية، ويأخذ على النفس أقطارها جميعاً بهذه الحقيقة، وهو يتحدَّث عن ذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته، وآثار قدرته وإبداعه، فتتمثل في الضمير البشري تلك الحقيقة، حقيقة الذات الخالقة لكل شيء المالكة لكل شيء، المحيطة بكل شيء، المهيمنة على كل شيء، المدبرة لكل شيء، المؤثرة في كل شيء.

لقد جلّى القرآن للناس حقيقة الألوهية من خلال آثار فاعليتها المتجلية في الكون والحياة، المصرّفة لأقدار العباد.

فالله هو الأول والآخر، والله هو الظاهر والباطن، والله هو الخالق والرازق، والله هو المسيطر المدبر، والله هو الرافع والخافض، والله هو المعز والمذل، والله هو القابض والباسط، والله هو المحيي والمميت، والله هو النافع والضار، والله هو المنتقم الجبار، والله هو الغفور الودود، والله هو العليّ الكبير، والله هو القريب المجيب.. والله هو الذي يحول بين المرء وقلبه، والله هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه.. وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا.. وهو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل..

ولا يبلغ قول قائل في تقرير «حقيقة الألوهية» ولا في تجلية هذه الحقيقة في الضمير، ما يبلغ القرآن الكريم بمنهجه الرباني الفريد..».

«إن التعريف بالله سبحانه في هذا المنهج يبدأ من نبذ كل ما تصوره «الفكر البشري» أو يتصوره من عند نفسه عن ذات الله ـ سبحانه ـ وخصائصه وصفاته وأفعاله، وكيفيات أفعاله، وكيفيات تعلق مشيئته بالحوادث.

إن معرفة الله سبحانه تبدأ من نبذ كل الصور التي انبثقت ابتداء من تصورات البشر وأوهامهم عن ذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته.. لتستقي مباشرة من تعريف الله لعباده بذاته وصفاته، وهي تُتلقى من هذا المصدر (القرآن) وحده، ولا تتلقى من مصدر آخر غيره.. فالله ـ سبحانه ـ ليس كمثله شيء مما خلق على الإطلاق..

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

وبتحكيم هذه النصوص الجازمة تسقط كلُّ التصوُّرات التي جاءت بها الوثنيات، والتي جاءت بها الفلسفات..».

ثم قال:

«إن المنهج القرآني في التعريف بحقيقة الألوهية يجعل الكون والحياة معرضاً رائعاً تتجلى فيه هذه الحقيقة.. تتجلى فيه بآثارها الفاعلة..».

ويطيل في المشاهد القرآنية التي يشرح فيها هذه القاعدة...

ثم يقول:

«يخلص لنا من استعراض المنهج القرآني بحقيقة الألوهية: أن التركيز فيه ليس منصبّاً على إثبات «الوجود الإلٰهي» ـ فهذا «الوجود» إنما هو بديهية من بديهيات الفطرة ـ وإنما التركيز فيه ابتداءً على «التوحيد».

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

وهكذا يمضي المنهج القرآني في توحيد الذات الإلٰهية، وفي تفرّدها بصفاتها كذلك».

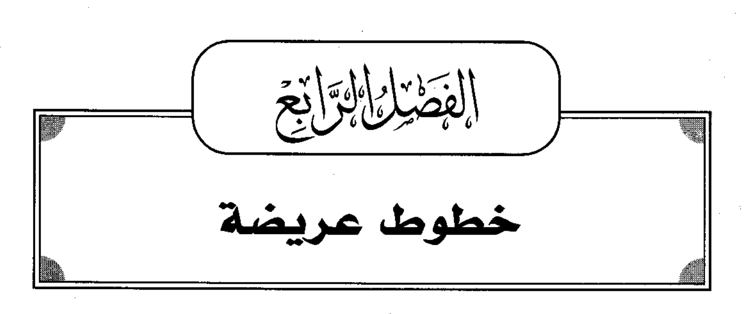
«وبما أن الله ـ سبحانه ـ هو وحده الخالق، وهو وحده الرازق،

وهو وحده الكافل، وهو وحده المدبّر، وهو وحده العليم المحيط، وهو وحده القادر القاهر، وهو وحده الذي يبدئ الخلق ثم يعيده... فيجب إذن أن يكون هو وحده «الإلـٰه»، وأن يكون هو وحده «الرب»، وأن تخلص الدينونة والعبودية له وحده بلا شريك، في عالم الضمير، وفي عالم الواقع على السواء.

وهذه هي القضية الكبرى التي يستهدفها المنهج القرآني بتلك التقريرات السابقة جميعاً»[1].



(١) باختصار شديد عن: مقومات التصور الإسلامي، ص (١٨٧) وما بعدها.



الفصل الرابع

خطوط عريضة

تلك كانت طريقة السلف في مسألة معرفة الربِّ تعالى، وتلك أقوال الأئمة الذين جاؤوا من بعد، وقد تحدّث كل منهم عما رأى الحاجة إليه ملحَّة في الزمن الذي عاش فيه.

وهي أقوال ـ غير متعارضة ـ يتمم بعضها بعضاً.

وقد يكون من المستحسن إجمال ما سبق في نقاط واضحة، تمثل المعطيات التي جاءت في الفصول السابقة.

فمن ذلك:

أول هذه المعطيات: أن مسألة «معرفة الربِّ تعالى» تعدُّ من أوجب المسائل التي ينبغي أن يبادر المسلم إلى تعلُّمها وفهمها.

الثاني: أن هذه المعرفة تشتمل على:

ـ إثبات ذاته سبحانه وتعالى.

ـ وإثبات صفاته وأسمائه.

ـ وإثبات أفعاله.

الثالث: أنه سبحانه في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ فلا تمثله العقول بالتفكير، ولا تتوهمه القلوب بالتصوير، كما قال الإمام ابن قدامة.

الرابع: أن إدراك حقيقة ذاته ﷻ غير ممكن، وإنما هي المعرفة على الجملة من خلال التعامل مع الأسماء والصفات.

الخامس: أن معرفة الله سبحانه تقتضي نبذ كلِّ التصورات البشرية في هذا الشأن.

السادس: وكما أن إدراك حقيقة الذات غير ممكن؛ فكذلك إدراك حقيقة الأسماء والصفات غير ممكن.

السابع: جاء التركيز في القرآن الكريم منصبّاً على قضية «التوحيد» لا على قضية «الوجود الإلـٰهي»؛ وذلك لأن قضية «الوجود» قائمة في فطرة الإنسان.

الثامن: السبيل إلى معرفته ﷻ هو القرآن الكريم.

قال الحارث المحاسبي: «معرفته تعالى فرض من الله ﷻ على العباد، وهي موجودة في كتاب الله تعالى المنزّل».

وقد أرشد القرآن إلى طريقين للوصول إلى هذه المعرفة:

الطريق الأول: النظر في القرآن وتدبر آياته، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [صٓ: ٢٩].

ومن معجزات هذا الدين أن هذا التدبر ما زال يؤتي ثماره عبر السنين، وفي وقتنا المعاصر كم قرأنا عن الذين أسلموا بسبب اطلاعهم على القرآن، على الرغم من أن قراءتهم له كانت عبر الترجمات التي لا تؤدي المعنى كاملاً.

الطريق الثاني: النظر والتفكير في مخلوقات الله.

وقد كُتبت مؤلفاتٌ بهذا الموضوع.. ومنها ما ذكره الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابيه: «شفاء العليل»، و«مفتاح دار السعادة»[1].

التاسع: من أراد التعرف على الله تعالى، فقد تعرَّف ـ سبحانه ـ لعباده بكلامه، فكلامُه هو النص الأوضح والأنصع بياناً، والذي يخاطب العقل والمشاعر في آن واحد فينبغي أن يكون المعوّل عليه.

وهذا ما جعل بعض الأئمة يوردون النصَّ القرآنيَّ بياناً لمعرفة الله تعالى دون تعليق منهم.. وهذا ما نجده عند الإمام ابن تيمية في رسالته «الواسطية» عندما أراد الحديث عن الصفات؛ لم يفعل أكثر من ذكر الآيات الكثيرة الواردة في الموضوع، والتي شغلت تسع صفحات من الكتاب دون أي تعليق سوى قوله: «وهذا الباب في كتاب الله كثير، ومن تدبر القرآن طالباً للهدى منه، تبيّن له طريق الحق»[2].

وهذا ما فعله سيّد قطب تماماً في كتابه «مقومات التصور الإسلامي»، ثم قال:

«ويجب أن نبادر إلى القول بأن هذه الحقيقة لا تتجلى في قول قائل كما تتجلى في العرض القرآني... فالذي ينبغي أن يستجلي هذه

---

(١) يسَّر الله لي جمع المادة الواردة في هذين الكتابين عن المشاهد الكونية التي تدعو إلى التفكير في عظمة الله تعالى، وكذلك النظر في بنية الإنسان نفسه، في كتاب تحت عنوان: (قل انظروا)، وطبعه المكتب الإسلامي.

(٢) من الغريب أن بعضهم شرح هذه الرسالة، والواضح من سياقها لكل من قرأها أن الإمام قصد إلى عدم التدخل في شرح الآيات، بل ولا في شرح الأحاديث التي أوردها، ولو قصد ذلك لفعله ولكان أقدر من غيره على شرح ذلك وبيانه. وأعجب ما رأيت هو ما ذهب إليه الشارح عند قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطّارق: ١٥-١٦]، فقد قوّل الشارح الإمام ابن تيمية ما لم يقل.

الحقيقة كاملة ليس أمامه إلا أن يقرأ القرآن، إنه في هذا المصدر وحده يمكن أن يستجلي هذه الحقيقة كما هي في جمالها الباهر وكمالها الرائع وإشراقها وجلالها وشمولها وإحاطتها»[(١)].

إذاً:

فالرجوع إلى القرآن في تلقي هذه «المعرفة» هو الطريق الأجدى والأفضل لأسباب عدة:

منها: أنه يخاطب الفطرة.

ومنها: أنه يخاطب العقل والمشاعر في آن واحد، وهذه قضية يصعب على البشر القيام بها.

ومنها: ما يضفيه القرآن على أجواء تلقي هذه المعرفة من القداسة والتعظيم، فالقارئ لهذا الكتاب العظيم، أو السامع، أمام كلام الله تعالى يستشعر قداسة النص، وعظمة المتكلم سبحانه وهو يقرأ أو يسمع كلامه...

وهكذا يكون الإنسان متلقِّياً لهذه المعرفة بكيانه كلِّه، روحاً، وعقلاً، ومشاعر.

وكل قارئ لمسألة «معرفة الرب تعالى» في الكتب التي اعتمدت العقل وحده مرجعاً لهذا الأمر، يشعر بضيق في الصدر، وظلمة في القلب، ذلك أن هذه المعرفة بالذات أكبر من أن يستقل العقل بها.

لابد من تعاون رصيد الفطرة، مع نظر العقل، ويقظة المشاعر

---

(١) مقومات التصور الإسلامي، ص (٢٣٧).

عند تلقي «المعرفة بالله تعالى»، أو الحديث عنها، وهذا ما يوفره الخطاب القرآني وحده.

العاشر: بهذه الطريقة كانت معرفة الصحابة ﵃ بكلام الله تعالى الشافي والكافي، فلم يحتاجوا إلى طرح تلك الأسئلة التي حدثت فيما بعد، لأن التلقي كان عن طريق واحد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليقينهم بأن الله تعالى أنزل لهم ما يفي بالحاجة، ويوصل إلى الغرض، وهو أعلم بخلقه ﷻ.

فمن أراد السلامة في هذا الباب فعليه بطريق الصحابة الكرام فقد كانوا على بيضاء نقية.





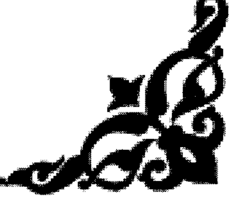
المقصد الأول
التعريف بأصول الإسلام

الباب الثاني

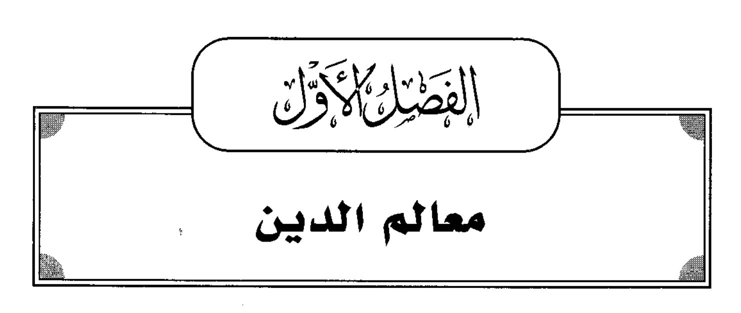
في معرفة «الدين»

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾

[المائدة: ٣]







الفصل الأول

معالم الدين

«معرفة الدين» هي الركن الثاني من أركان المعرفة الواجبة على كل مسلم، وهو موضوع هذا الباب.

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وخير من يحدد لنا معالم هذا الدين الوارد ذكره في الآية الكريمة، هو رسول الله ﷺ، وقد قال: «**فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**».

فماذا فعل جبريل عليه السلام في تعليم الصحابة دينهم؟.

هذا ما نجده في الحديث التالي:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال:

يا محمد! أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**».

قال: صدقت.

قال: فعجبنا له، يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟.

قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**».

قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان؟.

قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

قال: فأخبرني عن الساعة؟.

قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**».

قال: فأخبرني عن أماراتها؟.

قال: «**أن تلد الأمةُ ربَّتَهَا، وأن ترى الحفاة العراة، العالة، رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان**».

قال: ثم انطلق، فلبثت مليّاً.

ثم قال لي: «**يا عمر! أتدري من السائل؟**».

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «**فإنه جبريل، أتاكم يعلّمكم دينكم**»[1].

وهكذا ينزل جبريل عليه السلام بأمر من الله سبحانه، ليعلّم الصحابة المعالم الكبرى لهذا الدين.

ونزول جبريل من أجل ذلك لشد انتباه الصحابة وإشعارهم بأن هذه المعلومات التي يستمعونها هي على درجة من الأهمية، ولولا أن الأمر كذلك لكان بإمكانه ﷺ أن يقرر لهم هذه المعلومات.

---

(١) رواه مسلم (٨).

ويؤكد هذا المعنى ما جاء في رواية أبي هريرة رضي الله عنه لهذا الحديث، حيث جاء في آخره: «**هذا جبريل! أراد أن تعلموا إذ لم تسألوا**»[١].

***

ومن المستحسن أن نقف على الملحوظات التالية:

الأولى: أن الإمام البخاري ترجم لهذا الحديث بقوله:

باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، وبيان النبي ﷺ له، ثم قال: «**جاء جبريل عليه السلام يعلمكم دينكم**» فجعل ذلك كله ديناً.

ومحل الشاهد: أنَّ الإمام البخاري يلفت النظر إلى أن كلمة «الدين» تشمل الإسلام والإيمان والإحسان.

الثانية: أن كلمة «الإسلام» في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]؛ جاءت مساوية لكلمة «الدين» في الحديث الشريف.

بينما جاءت كلمة «الإسلام» في هذا الحديث على اعتبارها واحداً من مكونات «الدين» الثلاثة التي هي: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

وإذن: فكلمة «الإسلام» تأتي بمعنيين:

١ ـ تأتي بمعنى عام، فتكون مساوية لكلمة «الدين» كما وردت في الآيتين السابق ذكرهما.

---

(١) رواه مسلم (١٠).

٢ ـ وتأتي بمعنى خاص، وهو ما يطلق عليه اسم: أركان الإسلام، وهو ما ورد في هذا الحديث الشريف.

ويتبين المعنى المراد من خلال السياق.

الثالثة: يعدّ هذا الحديث من قواعد الإسلام الكبرى.

قال الإمام القرطبي: هذا الحديث يصلح أن يقال له: «أم السنة»، لما تضمّنه من جُمَلِ علم السنة.

وقال القاضي عياض: اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة، من عقود الإيمان ابتداءً وحالاً ومآلاً، ومن أعمال الجوارح، ومن إخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال، حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه[1].

* * *

نخلص مما سبق إلى أن هذا الحديث يبين لنا معنى كلمة: «الدين» الواردة في سؤال القبر، والواردة في الحديث الذي سبق ذكره؛ وهو قوله ﷺ: «**من قال: رضيتُ بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة**».

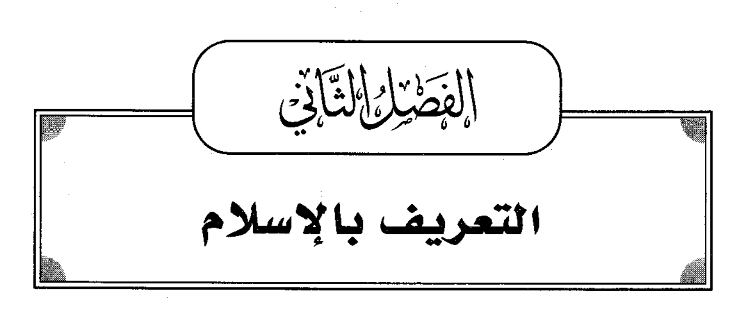
وأن المراد بها «الإسلام» بالمعنى العام للكلمة.

وإذا كان المقصود من هذا الباب بيان معنى «الدين» الوارد في هذا الحديث وفي سؤال القبر، فعلينا أن نبين معنى الكلمات الرئيسة في هذا الحديث، وهي: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

وسيكون ذلك في ثلاثة فصول:

۞ ۞ ۞

(١) فتح الباري (١/ ١٢٥).



رأينا في الحديث السابق: أن جبريل عليه السلام سأل أول ما سأل عن الإسلام، وأن النبي ﷺ أجابه بقوله:

«الإسلام: أن تشهد أن لا إلـٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

وقد جاء هذا المعنى في أحاديث كثيرة، يأتي في مقدمتها حديث ابن عمر رضي الله عنهما المتفق عليه، وهو قوله:

قال رسول الله ﷺ: **«بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إلـٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»**[1].

وإذن: فهي خمسة أركان.

يحسن بنا أن نتعرف على كل منها بكلمة موجزة.



(١) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

الركن الأول
الشهادتان

ويطلق عليهما اسم «كلمة التوحيد»، و«كلمة الإخلاص» وهما الركن الأول الذي عليه مدار الإسلام.

وتتألف هذه الكلمة من فقرتين:

الفقرة الأولى: «**أشهد أن لا إلـٰه إلا الله**» ومعناها: أقرّ وأعترف وأعتقد بأنه لا معبود بحق إلا الله وحده.

وهي تبدأ بنفي جميع الآلهة، لتثبت بعد ذلك الإلـٰه الحق الواحد، الذي لا إلـٰه إلا هو، وهو «الله» ﷻ.

ومن الواضح أن الكلمة تبدأ بلفظ: «**أشهد**» وهو إخبار عن فعل «المشاهدة» التي هي رؤية الأشياء رؤية حسِّية يقينية.

واختيار هذه الكلمة في الشهادتين، للإعلام بأن المقر بهما قد وصل إلى درجة اليقين فيما يعلنه ويقرُّ به.

فهو بفطرته ومشاهداته لعظمة الله من خلال النظر والتفكير في مخلوقاته قد وصل إلى هذا اليقين الذي لا يدانيه الشك.

وهذه الشهادة على قلّة ألفاظها تتضمَّن المعاني الكثيرة التي لا يمكن حصرها، ومن ذلك:

١ ـ أنها إقرار بوحدانية الله تعالى، الذي لا معبود بحق سواه.

٢ ـ وأنها باعتبارها شهادة نابعة من يقين فينبغي ألا يكون في قرارة النفس ما يخالفها، وإلا كانت شهادة كاذبة، كما حدث للمنافقين الذين أخبرنا الله عن كذبهم بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ

ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

فالله ـ سبحانه ـ كذّب شهادتهم لأن باطنهم لم يكن موافقاً لقولهم.

٣ ـ أنه لابد لمن أراد الدخول في الإسلام من التلفظ بها ـ أي الشهادتين ـ ولا يكفي الإقرار بهما في نفسه دون إعلان «اللفظ».

وفي قصة أبي طالب عم الرسول ﷺ الدليل على ذلك: فقد رعى أبو طالب النبي ﷺ وشمله بعطفه وحنانه، ودافع عنه، بل وجاءت أشعاره معلنةً تصديقه والإشادة بدينه؛ ومنها:

وأبيضُ يُستَسْقى الغمامُ بوجههِ ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ

وفيها:

فو اللهِ لولا أنْ أجيء بسبَّةٍ تجرُّ على أشياخنا في المحافلِ
لكنَّا اتبعناه على كلِّ حالةٍ من الدَّهرِ جدّاً غير قول الهازلِ
لقد علموا أن ابننَا لا مكذَّب لدينا ولا يُعنى بقولِ الأباطلِ
فأصبحَ فينا أحمدُ في أرومةٍ تقصرُ عنه سورةُ المتطاولِ(١)

وله في قصيدة أخرى:

ألم تعلموا أنَّا وجدْنَا محمداً نبيّاً كموسى خُطَّ في أولِ الكتبِ(٢)

فقد كانت أشعاره تدلُّ على تصديقه بالرسول ﷺ والإيمان بأنه نبي كموسى ولكنه لم يعلن كلمة التوحيد.

فقد جاء في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لعمِّه: «**قل**:

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٠).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٥٢).

لا إلـٰه إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة»، قال: لولا أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك.. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص ٥٦][1].

وهكذا لم تشفع له تلك الأشعار التي عبرت عن التصديق والحب..

وإذن: فالتلفظ بالشهادتين وإعلانهما شرط لقبولهما..

* * *

كانت تلك بعض الملاحظات التي كان من المستحسن إيرادها ونحن نتحدَّث عن الركن الأول من هذه الشهادة.

وقد جاء التأكيد عليها في القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨][2].

---

(١) رواه مسلم (٢٥).

(٢) قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

كلمة «لا إلـٰه إلا الله» هي الكلمة التي ورَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزّخرُف: ٢٦-٢٨].

وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وهي محض حق الله على العباد، وهي المنجية من عذاب القبر، وعذاب النار.

وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد.

وهي العمود الحامل للفرض والسنة، ومن كان آخر كلامه: لا إلـٰه إلا الله، دخل الجنة.

=

ومعرفة الله تعالى التي تقر بها هذه الشهادة، سبق الحديث عنها تفصيلاً في الباب السابق.

الفقرة الثانية: قوله: «**وأشهد أن محمداً رسول الله**» ومعناها: الإقرار والإعلان والاعتقاد الجازم بأن محمداً ﷺ رسول الله، وقبول ما جاء به عن الله وتصديقه.

وهذه الفقرة من الشهادتين والتي تتعلق بالرسول ﷺ سيكون الحديث عنها عند شرح الفقرة الأخيرة من الحديث وهي قوله: «**ورضيت بمحمد رسولاً**».

والخلاصة: فهاتان الشهادتان هما الركن الأول من أركان الإسلام، وهما كلمة الحق، التي لا يكون الإنسان مسلماً إلا بهما، وهما كلمة «التوحيد» التي لا تكون النجاة في الآخرة إلا بهما؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

۞ ۞ ۞

= وروح هذه الكلمة وسرها، إفراد الرب جلَّ ثناؤه بالمحبة والإجلال والتعظيم، والخوف والرجاء، وتوابع ذلك من التوكل والإنابة، والرغبة والرهبة.
فلا يُخاف سواه، ولا يُرجى سواه، ولا يتوكل إلا عليه.. ولا يحلف إلا باسمه، ولا ينذر إلا له، ولا يتاب إلا إليه، ولا يطاع إلا أمره، ولا يستعان في الشدائد إلا به، ولا يسجد إلا له، ولا يذبح إلا له وباسمه.
ويجتمع ذلك في حرف واحد، وهو: أن لا يعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو، فهذا تحقيق شهادة أن لا إلـٰه إلا الله. الجواب الكافي، الفصل (٩٦).

الركن الثاني
الصلاة

الصلاة في اللغة معناها: الدعاء.

وهي عبارة عن أركان مخصوصة وأذكار معلومة، تبدأ بالتكبير، وتنتهي بالتسليم.

وقد تكرر ذكرها في القرآن الكريم أكثر من ثمانين مرة، منها قوله تعالى:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود: ١١٤].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خمس صلوات كتبهنَّ الله على العباد، فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأتِ بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة**»(١).

ومكانة الصلاة تجعل الحديث عنها طويلاً متعدد الجوانب، ولكني أقتصر على ذكر نقاط رئيسة بما يتناسب مع المقام:

• تعدّ الصلاة العمل الأول الذي أدّاه الرسول ﷺ بعد نزول الوحي.

فقد جاء في رواية إسلام علي رضي الله عنه: أنه دخل على النبي ﷺ ومعه خديجة رضي الله عنها وهما يصليان، فقال: يا محمد! ما هذا؟ قال: «**دين الله الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسله**»(٢).

---

(١) رواه أبو داود (١٤٢٠)، وكذا النسائي، وابن ماجه، والدارمي.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير (٣/ ٢٤).

وفي السيرة: وكان من أسلم إذا أراد الصلاة ذهب إلى بعض الشعاب ليستخفي بصلاته من المشركين.

وفي قصة الصحابة الذين أسلموا على يد أبي بكر ﵁، وهم: عثمان وصحبه.. فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا فأسلموا وصلوا.

وهكذا فجميع النصوص تؤكِّد أن الصلاة كانت تؤدَّى من قبل المسلمين في وقت مبكِّر وحتى قبل مرحلة سريّة الدعوة.

وكانت يومئذ ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي.

وأداؤها في هذا الوقت المبكر يدل على مكانتها في هذا الدين؛ فقد كانت أول الأعمال بعد الإيمان بالله تعالى.

• ثم كان فرض الصلوات الخمس في مكة ليلة الإسراء والمعراج.

وكان جبريل ﵇ ينزل بأوامر الله تعالى وآياته على الرسول ﷺ، ولكن فرض الصلاة لم يكن نقله عن طريق جبريل، بل كان ليلة الإسراء والمعراج مباشرة من الله تعالى إلى رسوله ﷺ، كما جاء ذلك في الأحاديث الكثيرة المتفق عليها[١].

وفي هذا ما فيه من الدلالة على مكانة الصلاة في هذا الدين.

• وفي صبيحة الإسراء والمعراج نزل جبريل فأمَّ النبيَّ ﷺ في

---

(١) منها حديث أنس عن أبي ذر عند البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣)، وحديثه عن مالك بن صعصعة عند البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

صلاة الظهر ـ ولذا سميت الصلاة الأولى ـ فصلّى معه، ثم صلّى معه بقية الأوقات الخمسة، كما في الحديث المتفق عليه(١).

كان نزول جبريل عليه السلام من أجل أمرين: بيان وقت الصلوات، وبيان كيفية الصلاة، ولذلك أمَّ النبي ﷺ.

إنها فريضة لا تقاس بها بقية الفرائض، فقد فرضت في السماء ونزل جبريل من السماء للقيام بمهمة بيانها وبيان أوقاتها.

• ولهذا كان التعليم العملي هو الوسيلة الأولى لتعليم كيفية الصلاة، وكان ﷺ يقول: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»(٢).

وكان ﷺ يكرر هذا الأمر، بل إنه لما صنع له المنبر، صلى عليه ليراه الناس ويعرفوا دقيق أعمال الصلاة(٣).

وكتب الحديث ملأى بالأحاديث التي تبين ذلك(٤).

• ولمكانة الصلاة، كان لابد قبل الدخول فيها من التأكد من الطهارة والنظافة، وذلك في الجسم، والثياب، والمكان.

---

(١) جاء هذا في حديث أبي مسعود الأنصاري عند البخاري (٥٢١، ٣٢٢١)، ومسلم (٦١٠)، وانظر: فتح الباري (٢/ ٤).

(٢) رواه البخاري (٦٣١).

(٣) رواه البخاري (٩١٧)، ومسلم (٥٤٤).

(٤) جرت عادة كتب الفقه أن تبحث موضوع الصلاة من خلال أركانها وشروطها، الأمر الذي لا تظهر معه كيفية الصلاة، وكتب الحديث كما هو معروف: كل حديث يتناول مسألة أو جانباً.

وهناك بعض الكتب التي تبين كيفية صلاة رسول الله ﷺ بغض النظر عن الأحكام من الأركان والشروط، وهي كتب نافعة مفيدة؛ في مقدمتها كتاب: «الهدي النبوي في العبادات»، والذي جمعه كاتب هذه الأحرف من كتاب «زاد المعاد»، وطبعه المكتب الإسلامي.

• الصلاة نوعان: صلاة ثابتة تتكرر كل يوم، وهي الصلوات الخمس، وصلوات أخرى تكون حسب المناسبات، منها: صلاة الجمعة، وصلاة العيدين، وصلاة الكسوف والخسوف، وصلاة الاستسقاء، وصلاة الجنازة.

• والصلاة عبادة شخصية، لا تدخلها النيابة، كبقية العبادات من الصيام والزكاة والحج.

فالمسلم القادر الصحيح الجسم، يؤدي الصلاة كما أُمر، فإن أصبح مريضاً لا قدرة له على القيام صلى جالساً، أو مضطجعاً، أو نائماً.. حسب قدرته، فإذا انعدمت القدرة على الحركة أصبحت صلاة يؤديها بقلبه.. وهكذا فهو مطالب بها بالشكل الذي يستطيعه.

• ولمكانة الصلاة أيضاً، كانت الأمر الأول الذي يحاسب المرء عليه يوم القيامة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت، فقد أفلح ونجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء، قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل به ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك**»[1].

• والصلاة ـ قبل ذلك كله ـ هي الطريقة والشكل الذي اختاره سبحانه وتعالى وارتضاه ليكون وسيلة التعبير عن الاعتراف بالعبودية لله تعالى.

فيقف العبد فيها خاشعاً لله تعالى، تالياً كتابه، متقرباً إليه

---

(١) رواه الترمذي (٤١٣)، والنسائي (٤٦٤)، وابن ماجه (١٤٢٥).

بكلامه، مسبِّحاً داعياً بما أمر به، يطلب منه العون والمغفرة، والاستقامة على الصراط المستقيم.

يقوم بهذا العمل خمس مرات كل يوم، الأمر الذي يجعل هذه الصلة مستمرة مع الله، لأنه بين الصلوات يكون في مراقبة نفسه لتطبيق آثارها، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وما دام مراعياً ذلك فهو في صلاة.

تلك هي بعض النقاط التي رأيت تسجيلها عن الركن الثاني من أركان الإسلام، لعلها تعطي بعض التصور عن مكانة هذه العبادة.



الركن الثالث
الزكاة

الزكاة اسم للنصيب الذي فرض الله إخراجه من المال ليعطى للفقراء.

«وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة، وتزكية النفس، وتنميتها بالخيرات، فإنها مأخوذة من الزكاة، وهي النماء والطهارة والبركة، قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١١٣]»[١].

وقد قرنت بالصلاة في اثنتين وثلاثين آية كريمة.

«وكانت فريضة الزكاة بمكة في أول الإسلام مطلقة، لم يحدد فيها المال الذي تجب فيه، ولا مقدار ما ينفق منه، وإنما ترك ذلك لشعور المسلمين وكرمهم.

وفي السنة الثانية من الهجرة ـ على المشهور ـ فرض مقدارها من كل نوع من أنواع المال، وبيّنت بياناً مفصلاً»[٢].

إنَّ الإسلام الذي سوّى بين المسلمين في الصلاة، عندما يقفون في المسجد بعضهم إلى جانب بعض، الفقير والغني، والأسود والأبيض، والصغير والكبير.. أراد بالزكاة ـ وهي قرينة الصلاة في القرآن ـ أن يقارب بين الأغنياء والفقراء، بحيث يجد الفقير كفايته كحد أدنى.

وهذا ما جاء تقريره في الحديث الذي رواه علي رضي الله عنه، عن النبي

---

(١) فقه السنة، للسيد السابق.

(٢) المصدر السابق نفسه.

ﷺ: أنه قال: «**إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم، ولن يَجْهَدَ الفقراء إذا جاعوا أو عرّوا إلا بما يضيِّعُ أغنياؤهم، ألا وإنَّ الله يحاسبهم حساباً شديداً، ويعذبهم عذاباً أليماً**»(١).

فالحديث يقرر أن النسبة التي افترضها الله على المال تكفي حاجة الفقراء، وأن ما يصيب الفقراء من الجوع والعري بعض الأحيان، إنما سببه تقصير الأغنياء بأداء ما يجب عليهم.

ومن الفقهاء من رأى في قوله ﷺ: «**إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم**» أنَّ المقياس هو سد حاجة الفقراء، ففي حالات الكوارث حيث قد لا تكفي النسبة التي فرضها الشرع لسداد الكفاية، فإنَّ الدولة تستطيع رفع هذه النسبة إلى المقدار الذي يفي بالغرض.

يؤيد هذا القول: أنَّ الزكاة تجمعها الدولة،وذلك واجبها، وهي بخبرتها تستطيع تقدير النسبة الإضافية المطلوبة.

ومن فوائد جمع الدولة للزكاة: أنَّ العطاء لن يكون مباشراً من الغني للفقير، الأمر الذي يشعره بشيء من الذل، بل سيكون العطاء للفقير من قبل الدولة، فهو حين يذهب لأخذ ما قدر له، سيكون وضعه وضع أي موظف عندما يأخذ راتبه.

إنَّ هذه الفريضة ـ في بعض فوائدها ـ تؤدي إلى التوازن

---

(١) مجمع الزوائد برقم (٤٣٢٤) وقال: رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وقال: تفرد به ثابت بن محمد الزاهد، قال الحافظ: وثابت: من رجال الصحيح، وبقية رواته وثقوا وفيهم كلام.

الاجتماعي، وتقضي على أسباب الجريمة، التي غالباً ما يكون الدافع إليها اقتصاديّاً.

إنَّ إسناد مهمة جمع الزكاة إلى الدولة أمرٌ ضروري، وذلك لأسباب كثيرة وحِكم لا مجال للحديث عنها في هذا المقام، منها ضبط الأمور بحيث لا يتاح لأحدٍ أن يتهرب أو يتوانى عن دفع ما فرضه الله عليه.

وحين يدفع كل الأغنياء ما وجب عليهم، فلن يجهد الفقراء.

ومما ينبغي أن نذكّر به في بيان مكانة الزكاة، أنَّ أبا بكر رضي الله عنه، جمع الجيوش لحرب مانعي الزكاة، واعتبرهم مرتدين، وأجمع الصحابة رضي الله عنهم على ذلك[1].

إنَّ الفقراء لن يكونوا بحاجة إلى القيام بالثورات للمطالبة بحقوقهم عندما يحكم الإسلام، ذلك أنّ دولته نفسها تقوم بذلك نيابة عنهم ومن أجلهم، ولتنفيذ أحكام الله وأوامره أولاً وقبل كل شيء.

هذا ما قرره أبو بكر ـ بإجماع الصحابة ـ في حربه لمانعي الزكاة.



(١) رواه البخاري (١٣٩٩، ١٤٠٠)، ومسلم (٢٠) عن أبي هريرة، وروى النسائي عن أنس مثله (٣٠٩٤، ٣٩٧٩).

الركن الرابع
الصوم

الصوم معناه: الإمساك أو الامتناع، وبهذا المعنى جاء في قوله تعالى: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٦]، فالصوم هنا: الإمساك أو الامتناع عن الكلام.

وهو في اصطلاح الفقهاء: الإمساك عن الطعام والشراب والشهوة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، مع النية.

وقد جاء فرض الصوم في القرآن الكريم، وفي السنة المطهرة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ومعنى **كُتب**: فُرض.

وقال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ومعنى **شهد**: حضر ولم يكن مسافراً.

ففي الآية الأولى بيان الفرضية، وفي الثانية بيان الأيام المطلوب صيامها، وهي شهر رمضان.

والحديث عن الصوم طويل ومتشعِّب، ولكني أكتفي بذكر بعض النقاط الرئيسة:

• إنَّه عبادة متميزة، حيث شرّفه الله تعالى بنسبته لنفسه، كما جاء في الحديث القدسي: «**كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام، فإنَّه لي وأنا أجزي به**»[١]، فمثله كمثل البيت الحرام الذي ينسب إليه تعالى فيقال:

---

(١) رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

«**بيت الله الحرام**» فهما مشتركان في الخصوصية والفضل، رمضان له شرف الزمان، والبيت له شرف المكان.

• وهو تربية على «الصبر» الذي يحتاج إليه كل إنسان في حياته.. وبالصبر يقود الإنسان نفسه فيتحكم بتوجيهها، ولا يتركها تتحكم به، وهذا ما جاء في تتمة الحديث المتقدم: «**والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث**[١]**، ولا يصخب**[٢]**، ولا يجهل**[٣]**، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني صائم**».

• وهو ـ كما سبق ـ الامتناع عن الطعام والشراب، وشهوة الجنس، وهذا القدر من الصوم يشترك فيه جميع المسلمين، وليس هذا كل المطلوب..

فالصوم عبادة تشترك بها كل الأعضاء، وما لم يكن كذلك فلن يكون مستكملاً لشرائط القبول.

فقد جاء في صحيح البخاري قوله ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»[٤].

فلابد من مشاركة اللسان والسمع والبصر وسائر الأعضاء في هذه العبادة، حتى يدخل صاحبها في ظلال قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وصوم اللسان يأتي في المقدمة، لأن الرسول ﷺ قال في حق

---

(١) **الرفث**: الفحش في القول.

(٢) **الصخب**: رفع الصوت والصياح.

(٣) **الجهل**: السفه.

(٤) رواه البخاري (١٩٠٣).

هذا العضو: «**وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟!**»[١].

فالغيبة، والنميمة، والكذب، وقول الزور، وفحش الكلام، وبذاءة اللسان، والسخرية، والاستهزاء بالناس... وغير ذلك مما يحصده اللسان من حقل الشرِّ، ينبغي الصوم عنه، بل إنه مطلوب الإمساك عن فضول الكلام الذي لا فائدة فيه.

والسمع هو الطرف المقابل، فكل ما هو مطلوب من اللسان الإمساك عنه، مطلوب من السمع الإمساك عن الاستماع إليه.

وكذلك مطلوب من البصر عدم النظر إلى المحرمات، وعدم تتبع العورات، وغض البصر الذي أمر به القرآن الكريم.

وللفؤاد أيضاً صومه، وهو الإمساك عن ظن الشر بعباد الله.

وصوم الأعضاء هذا لا فطر فيه عند غروب الشمس، كما هو الشأن في الطعام والشراب، بل هو مستمر.. لأن غاية الصيام هنا التعويد على «الترك» المستمر.

• وفهم الصوم بهذا الشكل يرشدنا إلى الحكمة من جعله «كفارة» لكثير من الذنوب.. إنه نوع من التأديب، وكما يتخذ السجن لمنع العصاة من مزاولة الشر، كذلك الصوم هنا تعويد له على ضبط النفس، الذي كان عدمه سبباً لوقوع الذنب.

• وبما أن الصوم ركن من أركان الإسلام، فالجرأة على الإفطار فيه ـ من غير عذر ـ كبيرة من الكبائر، لا نستطيع بيان مقدار حجمها إلا من خلال الحديث التالي:

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من أفطر يوماً من رمضان، في غير رخصة رخّصها الله له، لم يقضِ عنه صيام الدهر، وإن صامه**»[١].

• وفي المقابل، فمن صام رمضان كما أمر الله كان له الأجر الكبير، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٢].

• فوائد الصيام وحكمه لا يمكن إحصاؤها لكثرتها وتعدد ميادينها، والتي منها الطبية، والنفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتربوية، والروحية.

ولكن المستغرب أن يذهب بعضهم فيعدَّ من فوائده: أنه يُشعر الغنيَّ بالجوع، وعندها يتذكر ـ هذا الغني ـ جوع الفقراء، فيبعث ذلك في نفسه دافع العطف عليهم.. فيساعدهم ويتصدق عليهم.

وهذا خطأ وقع فيه كثير ممن كتب عن فوائد الصيام وحكمه.

إن ديناً يجهز الجيوش لقتال مانعي الزكاة ـ وهي حق الفقراء ـ ويعدُّهم مرتدين عن الإسلام بسبب ذلك، لا ينتظر حتى يشعر الغني بالجوع ثم تجيش عواطفه، فيتقدم بالمساعدة للفقير.

ولو كان الأمر كذلك فإني أتساءل: لم فُرِضَ الصيام على الفقير إذن؟! ألا يكفيه جوعه طول أيام العام حتى نطالبه بجوع إضافي في رمضان؟!.

---

(١) رواه أبو داود (٢٣٩٦)، والترمذي (٧٢٣) وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠).

إن فوائد الصيام وحكمه، هي من الكثرة بحيث لا تحتاج إلى إضافة مثل هذه الفائدة.

فهو عبادة لله تعالى والتزام بأوامره، ولذا يؤديه الفقير كما يؤديه الغني.

• أكتفي بهذه النقاط في الحديث عن الصوم، وليست هي إلا نماذج تذكّر بغيرها.



الركن الخامس

الحج

الحج: هو القصد إلى معظَّم.

وهو في اصطلاح الفقهاء: قصد بيت الله الحرام بصفة مخصوصة، في وقت مخصوص لأداء شعائر معينة.

● وقد جاء ذكر فرضه في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقد سبق ذكر قوله ﷺ: «**بني الإسلام على خمس...**» وذكر منها الحج.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا**»(١).

● والحج ـ مثله مثل الزكاة ـ إنما هو فرض على المستطيع، أما الفقير الذي لا يملك النفقة التي تكفيه لأدائه، فلا يكون فرضاً في حقه.

والإجماع قائم على أنه واجب مرة واحدة في العمر، وما زاد فهو تطوع.

● وفضل الحج وثوابه كبير عند الله تعالى، والأحاديث كثيرة في هذا الموضوع، منها:

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٧).

قوله ﷺ: «**من حج هذا البيت، فلم يرفث[١]، ولم يفسق[٢]، رجع كما ولدته أمه**»[٣].

وقوله ﷺ: «**العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**»[٤].

وقوله ﷺ: «**ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار، من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟**»[٥].

● وأعظم أعمال الحج هو الوقوف بعرفة، وهو الركن الأعظم فيه، لقوله ﷺ: «**الحج عرفة**»[٦].

ففي يوم عرفة:

- يجتمع المسلمون في صعيد واحد، هو عرفات.
- في وقت واحد، هو بعد الزوال حتى تغيب الشمس.
- في زي واحد: هو الإزار والرداء.
- في لون واحد: هو البياض.
- في شكل واحد: كاشفي الرؤوس في أقدام شبه حافية.
- بعيدين عن كل أنواع الرفاهية وفي مقدمتها العطور.

---

(١) **الرفث**: الفحش في القول.
(٢) **الفسق**: هو المعصية.
(٣) رواه البخاري (١٨١٩)، ومسلم (١٣٥٠).
(٤) رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).
(٥) رواه مسلم (١٣٤٨).
(٦) رواه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦).

وفي مثل هذا الجو الروحي الذي تساوى الناس فيه في الشكل والمظهر، تتوارى فيه الفوارق، فلا يعرف الأمير من غيره، ولا الغني من الفقير.

إنها حالة من التجرُّد في الظاهر، ينبغي أن تساوقها حالة من التجرُّد في الباطن.

إنه موقف مصغَّر جدّاً جدّاً عن اليوم الذي لابد للناس من الوقوف فيه جميعاً، وهو يوم الحشر.. إنه استشعار لذلك اليوم..

قال الإمام الغزالي: «فاذكر بما ترى من ازدحام الخلق، وارتفاع الأصوات، واختلاف اللغات، واتباع الفرق أئمتهم في الترددات على المشاعر.. عرصات القيامة، واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة، واقتفاء كل أمة نبيها، وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول.. وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله ﷻ، فتحشر في زمرة الفائزين، وحقق رجاءك بالإجابة فالموقف شريف، والرحمة إنما تصل من حضرة ذي الجلال إلى كافة الخلق»[1].

• والتواضع لله تعالى واجتناب مظاهر الكبر والترف، والتحلي بحسن الخلق، وكف الأذى عن الناس، واحتمال ذلك منهم.. هو السمة التي ينبغي أن يتحلَّى بها الحاج، وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا نظر إلى ما أحدث الحجاج من الزي والمحامل يقول: الحاج قليل، والركب كثير، ثم نظر إلى رجل مسكين فقال: نعم، هذا من الحجاج.

---

(١) المهذب من إحياء علوم الدين (١/ ٢٢٣)، نشرته دار القلم بدمشق.

• وفي الحج «أعمال لا تأنس بها النفوس، ولا تهتدي إلى معانيها العقول، كرمي الجمار بالأحجار، والتردد بين الصفا والمروة.. وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية.

فإن الزكاة إرفاق، ووجهه مفهوم للعقل، والصوم كسر للشهوة، وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل.. فأما ترددات السعي، ورمي الجمار، وأمثال هذه الأعمال، فلا حظَّ للنفوس فيها، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها، فلا يكون في الإقدام عليها باعث، إلا الأمر المجرد، وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط، وبهذا يظهر كمال الرق والانقياد، ولذلك قال ﷺ في الحج على الخصوص: «**لبيك بحجة حقّاً، تعبُّداً ورقّاً**»[١]، ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها»[٢].

• وإذا كان الحاج يصل إلى مكة متعباً من عناء السفر، فإن هذه المشقة يقابلها يسر في أداء المناسك.

فقد جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاءه رجل فقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح؟ فقال: «**اذبح ولا حرج**»، فجاء آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي؟ قال: «**ارم ولا حرج**»، فما سئل النبي ﷺ عن شيء، قُدِّم ولا أُخِّر إلا قال: «**افعل ولا حرج**»[٣].

---

(١) قال الأعظمي في تعليقه على «المطالب العالية»: إسناده جيد، قال البوصيري: رواته ثقات.

(٢) المهذب من إحياء علوم الدين (١/ ٢٢١).

(٣) رواه البخاري (٨٧)، ومسلم (١٣٠٦).

هناك عمل واحد ينبغي أن يؤدى في وقت محدد، وهو الوقوف بعرفة، والفرصة متاحة في بقية الشعائر تقديماً وتأخيراً، ومن فَقُه أعمال الحج اختار لنفسه الأيسر والأسهل؛ «**فإن هذا الدين يسر**» كما قال ﷺ.

● لم يكن القصد من ذكر النقاط السابقة تفصيل أحكام الحج، وإنما بيان المعالم الرئيسة التي تؤدي الغرض في مثل هذا التعريف المختصر.



أركان الإسلام

وبعد: فهذه هي أركان الإسلام، فالركن الأول منها يمثل قاعدة هذا الدين، والمحور الذي تتمركز بقية الأحكام حوله، وتمثل الأركان الأربعة: العبادات ـ في هذا الدين ـ بمفهومها الخاص.

• ومن حكمة الله تعالى أن جعل العبادات متنوعة، الأمر الذي يساعد الإنسان على القيام بها، ولو جعلها نوعاً واحداً، صلاة مثلاً، أو صوماً، لكان في ذلك مشقة كبيرة، ومن رحمته ـ سبحانه ـ بعباده أنه لم يكلفهم ما لا يطيقون، ولم يشق عليهم.

فالصلاة عبادة بدنية ظاهرة ذات أقوال وأعمال.

والصوم عبادة بدنية باطنة قوامها الامتناع.

والزكاة عبادة مالية محضة مرتبطة بالمال، ولهذا كانت واجبة على الصبي والمجنون، يقوم وليّهما بإخراجها عنهما.

والحج عبادة بدنية ومالية في آن واحد.

والصلاة عبادة يومية، والصوم والزكاة والحج عبادات سنوية. .

وهكذا كان التنوع مساعداً على الأداء.

• وهذه العبادات لها مظهران: أحدهما فردي، والآخر جماعي.

فالصلاة واجب شخصي لا يقوم به أحد عن غيره، ومع ذلك فالمطلوب أن تؤدّى فروضها جماعة في المسجد.

وعلى الرغم من كونها عبادة فردية، فإن المصلي ـ وهو يصلي منفرداً ـ يستشعر روح الجماعة، فهو عندما يقرأ الفاتحة يقرأ: ﴿إِيَّاكَ

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هكذا بصيغة الجمع . .

والزكاة عبادة فردية، ولكن الدولة هي التي تجمعها ممثلة جماعة المسلمين.

والصوم كذلك، ولكنه يمثل ظاهرة جماعية، فالناس في البلد الواحد، يمسكون عن الطعام في وقت واحد، ويفطرون من صيامهم في وقت واحد، فهم على مائدة واحدة مشتركة وإن كان كل واحد منهم في بيته.

وفي الحج يؤدي كل فرد مناسكه عن نفسه، سعياً وطوافاً . . ولكنه تلقائيّاً سيجد نفسه مع الجماعة وضمن الجماعة.

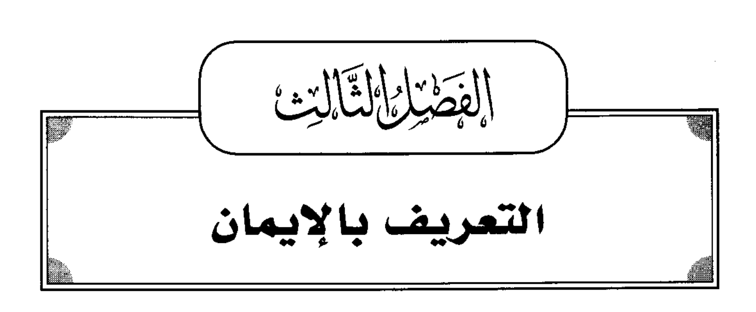
إنها عبادات يتجه بها المسلم إلى خالقه، ولكنها تؤدي دورها في الحياة، من حيث كونها روابط اجتماعية يلتقي فيها الناس على البر والتقوى.

● وحِكم هذه العبادات لا يمكن إحصاؤها، فهي تغطي جميع جوانب الحياة، روحية ونفسية، واجتماعية واقتصادية.

وكلها في خاتمة المطاف تعبير عن الإسلام لله والاستسلام له، تعبير عن إعلان العبودية والطاعة له ولسان حال كل مسلم يقول وهو يؤدي أيّاً منها:

«اللَّهم! أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك، وفوضت أمري إليك».

❁ ❁ ❁



الفصل الثالث

التعريف بالإيمان

جاء في حديث جبريل عليه السلام قوله للنبي ﷺ: فأخبرني عن الإيمان؟ فقال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**».

هذه هي أركان الإيمان، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في آيات كثيرة.

وقد جاء ذكر الأركان الخمسة الأولى في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وجاء ذكر القدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

* * *

والإيمان في اللغة: التصديق(١).

---

(١) قال الإمام ابن تيمية: «ليس لفظ الإيمان مرادفاً للفظ التصديق، كما يظنه طائفة من الناس، فإن التصديق يستعمل في كل خبر، فيقال لمن أخبر بالأمور المشهورة، مثل: الواحد نصف الاثنين، والسماء فوق الأرض، مجيباً: صدقت، ولا يقال: آمنا لك، ولا آمنا بهذا، حتى يكون المخبَرُ به من الأمور الغائبة، فيقال للمخبر: آمنا =

وشرعاً: اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان.

وقال الإمام البخاري: الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص.

وقال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص.

وها هنا مسألتان: **الأولى**: كونه قولاً وعملاً، **والثانية**: كونه يزيد وينقص.

● **أما الأولى**: فالمراد بالقول: النطق بالشهادتين، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم: من عمل القلب والجوارح، فيدخل به الاعتقاد والعبادات.

وهذا ينطبق مع التعريف الشرعي السابق والذي ذهب إليه السلف جميعهم.

● **وأما الثانية**: وهي أن الإيمان يزيد وينقص، فذلك أمر متفق عليه، لما جاء من صريح الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بذلك:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وفي الحديث قوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن..**»(١).

= له، وللمخبر به: آمنا به، كما قال إخوةُ يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي بمقرٍّ لنا، ومصدق لنا، لأنهم أخبروه عن غائب.

فالإيمان في القلب لا يكون إيماناً بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه من محبة الله ورسوله ونحو ذلك.. بل لابد في أصل الإيمان من قول القلب وعمل القلب. الفتاوى (٧/ ٥٢٩).

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

وإنما الاختلاف في تفسير سبب الزيادة والنقصان:

ـ فذهب بعضهم إلى أن السبب، هو التفاضل بالأعمال الظاهرة، ولا خلاف بين الناس في تفاضل الناس في ذلك بل وتباين حال الإنسان نفسه بين وقت وآخر.

ـ وذهب بعضهم إلى «أن زيادة الإيمان ونقصه، هو زيادة أعمال القلوب ونقصها، فإنه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن: أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والإخلاص له، وفي سلامة القلوب من الرياء، والكبر والعجب ونحو ذلك، والرحمة للخلق والنصح لهم ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية»[١].

ـ وذهب بعضهم إلى «أن التصديق يزيد وينقص، بكثرة النظر، ووضوح الأدلة، ولهذا كان إيمان الصدّيق ﷺ أقوى من إيمان غيره، بحيث لا يعتريه الشبه، ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل، حتى إنه يكون في بعض الأحيان الإيمان أعظم يقيناً وإخلاصاً وتوكُّلاً منه في بعضها، وكذلك في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها»[٢].

ولا تعارض بين هذه الأقوال، فكل منها قد يكون سبباً في زيادة الإيمان ونقصانه، وربما اجتمع بعضها، أو اجتمعت كلها لتكوّن السبب الباعث.

● ووفقاً لتعريف الإيمان السابق، فإن «لفظ الإيمان إذا أطلق في

---

(١) الفتاوى (٧/ ٥٦٢).

(٢) فتح الباري (١/ ٤٦).

القرآن والسنة، يراد به ما يراد بلفظ «البر»، وبلفظ «التقوى»، وبلفظ «الدين»، فإن النبي ﷺ بيّن أن «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول: لا إلٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[1] فكان كل ما يحبه الله يدخل في اسم الإيمان وكذلك لفظ «البر» يدخل فيه جميع ذلك إذا أطلق، وكذلك لفظ «التقوى» و«الدين»[2].

وقد سئل سهل بن عبد الله التستري عن الإيمان؟ فقال: «قول وعمل، ونية وسنة.

لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر.

وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق.

وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة، فهو بدعة»[3].

***

تلك كانت مقدمة للتعريف بمعنى الإيمان، ونعود إلى بيان أركان الإيمان وفقاً لترتيبها الوارد في حديث جبريل عليه السلام.



---

(١) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له.

(٢) الفتاوى (٧/ ١٧٩).

(٣) الفتاوى (٧/ ١٧١).

الركن الأول
الإيمان بالله تعالى

الإيمان الذي في القلب، لابد فيه من شيئين: تصديق القلب، وإقراره ومعرفته[١].

• والإيمان بالله تعالى معناه: الاعتقاد الجازم بأنَّ الله ربُّ كل شيء، وخالقه، ومالكه، وأنه وحده المستحق للإفراد بالعبادة، وله وحده يكون الخضوع والذل، ومنه وحده يكون الخوف، وعليه وحده يكون التوكل، وهو وحده المسمى بالأسماء الحسنى، وهو وحده المتصف بصفات الكمال كلها، المنزّه عن كل نقص.

فالإيمان بالله تعالى عمل قلبي، وقول قلبي، وإقرار قلبي، وتصديق قلبي، ومحور ذلك كله اليقين الذي لا يقاربه الشك والريب.

• والملاحظ أن الركن الأول من أركان الإسلام، والركن الأول من أركان الإيمان، موضوعهما واحد، وهو الإيمان بالله تعالى، ولكن ركن الإسلام يصرّ على إعلان هذه الحقيقة بالقول المعلن الصريح، وركن الإيمان يصر على أن يكون المعنى لذلك القول المعلن مستقرّاً في القلب قناعة ويقيناً.

وهكذا تكون: «**لا إلـه إلا الله**» المنطوقة باللسان، مترجمة عن معناها الذي استقر في القلب.

وتكرار هذا الركن مرتين: في الإسلام، وفي الإيمان؛ يدل على أنه المحور الذي تدور حوله قضية هذا الدين كله.

---

(١) الفتاوى (٧/ ١٨٦).

● والأمر الأول الذي يطالعنا في مسألة «الإيمان بالله تعالى» هو قضية «التوحيد» فقد انصبّ اهتمام الآيات القرآنية الكريمة على تقريرها، وكذلك الأحاديث الشريفة؛ ذلك أنَّ قضية «وجود الله تعالى» أمر مركوز في الفطرة فلم يحتج إلى كبير معالجة.

وكان تقرير التوحيد في نصوص واضحة تناولت بيان هذا الأمر من كل جوانبه:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، والذي ليس كمثله شيء لا يكون إلا واحداً.

وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

والنصوص المقررة لذلك كثيرة كثيرة.

● وتوحيد الله تعالى يعني أيضاً: وحدانيته ـ سبحانه ـ في صفاته فلا يشاركه فيها أحد؛ ومنها وحدانيته في ألوهيته، وربوبيته، وقيوميته.. كما يعني وحدانيته في أسمائه الحسنى التي لا يشاركه فيها أحد.

● والطريق إلى معرفة الله تعالى هو العلم بأسمائه وصفاته، فهي ليست منفكة عن ذاته ﷻ.. وقد تعرَّف الله إلى عباده بها من خلال آياته الكريمة.

والطريق إلى معرفة «الأسماء والصفات» هو النصوص الواردة في ذلك من القرآن الكريم والسنة الصحيحة؛ فهي إنما تُتلقى عن طريق السمع، لا بالآراء.

فلا يُسمى ـ سبحانه ـ إلا بما سمى به نفسه، أو سماه به رسوله ﷺ، وكذلك لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ.

قال الإمام ابن تيمية: «الأصل في باب الصفات: أن يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسله نفياً وإثباتاً، فيثبت له ما أثبته لنفسه، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه»[1].

● «**أما أسماء الله ﷻ فهي أعلام علية**، أخبرنا بها الله في كتابه، والرسول ﷺ في سنته، وكل اسم من هذه الأسماء يدل على صفة أو صفات لله سبحانه، وكل اسم منها مشتق من مصدره، كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير، ونحوها؛ فالعليم مشتق من العلم، وهو يدل على صفة العلم للباري، وكذلك بقية الأسماء، والاسم الجامع لمعاني الأسماء كلها، والصفات كلها، هو «الله»...»[2].

● قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال ابن القيم: «صفات الله كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله، وهكذا أسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي معناها»[3].

ومعنى: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ ـ كما قال أهل التفسير ـ: من

---

(١) الفتاوى (٣/ ٣).
(٢) كتاب: الإيمان، للدكتور محمد نعيم ياسين، ص (٢٩)، مكتبة الفلاح ـ الكويت.
(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٦٨).

الإلحاد في أسمائه تسميته بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة(١).

والأسماء توقيفية كما سبق ذكر ذلك، «واتفقوا على أنه لا يجوز أن يطلق عليه اسم ولا صفة توهم نقصاً، ولو ورد ذلك نصّاً، فلا يقال: زارع ولا فالق... وإن ثبت في قوله: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤]، ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، ولا يقال له: ماكر، وإن ورد: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]»(٢).

● جاء في الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة**»، وفي رواية لهما: «**من حفظها دخل الجنة**»(٣).

قيل: المراد بإحصائها وحفظها: أن يدعو الله بها كلها، وقيل: المراد: القيام بحق هذه الأسماء والعمل بمقتضاها، وهو أن يعتبر معانيها فيلزم نفسه بواجبها، فإذا قال: «الرازق» وثق بالرزق، وكذا سائر الأسماء. وقيل: المراد بالإحصاء: الإحاطة بمعانيها(٤).

أما عدد الأسماء فليس محصوراً بتسعة وتسعين؛ قال النووي: ليس معناه أنه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه الأسماء من أحصاها دخل الجنة.. ونقل اتفاق العلماء عليه.

ويؤيده قوله ﷺ ـ في حديث ابن مسعود الذي أخرجه وصححه

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٢١).

(٢) المصدر السابق (١١/ ٢٢٣).

(٣) رواه البخاري (٢٧٣٦، ٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٤) فتح الباري (١١/ ٢٢٥).

ابن حبان ـ: «**أسألك بكل اسم هوَ لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[١].

• وليس هناك حديث صحيح يجمع لنا هذه الأسماء، والحديث الذي أخرجه الترمذي ضعيف. قال في «الفتح»: «وإذا تقرر رجحان أنَّ سرد الأسماء ليس مرفوعاً، فقد اعتنى جماعة بتتبعها من القرآن من غير تقييد بعدد»[٢].

وقد اختار ابن حجر رحمه الله الأسماء الآتية:

«الله، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، التواب، الوهاب، الخلاق، الرزاق، الفتاح، العليم، الحليم، العظيم، الواسع، الحكيم، الحي، القيوم، السميع، البصير، اللطيف، الخبير، العلي، الكبير، المحيط، القدير، المولى، النصير، الكريم، الرقيب، القريب، المجيب، الوكيل، الحسيب، الحفيظ، المقيت، الودود، المجيد، الوارث، الشهيد، الولي، الحميد، الحق، المبين، القوي، المتين، الغني، المالك، الشديد، القادر، المقتدر، القاهر، الكافي، الشاكر، المستعان، الفاطر، البديع، الغافر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الكفيل، الغالب، الحكم، العالم، الرفيع، الحافظ، المنتقم، القائم، المحيي، الجامع، المليك، المتعالي، النور، الهادي، الغفور، الشكور، العفو، الرؤوف، الأكرم، الأعلى، البر، الحفي، الرب، الإلـٰه، الواحد، الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد».

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٢٠).

(٢) المصدر السابق (١١/ ٢١٩).

وقد جمع الإمام ابن حجر هذه الأسماء: مما ورد في رواية الترمذي بصيغة الاسم مما ذكر في القرآن الكريم، واستخرج من القرآن الكريم ما ورد بصيغة الاسم أيضاً فاجتمع له من ذلك تسعة وتسعون اسماً، وكلها في القرآن، كما قال[١].

* * *

وأما الصفات فإن الحديث عنها يستند إلى قواعد لابد من مراعاتها، وقد سبق الحديث عن بعضها، ويحسن التذكير بها ثانية، فمن ذلك:

• إن القول في الصفات، كالقول في الذات، فذاته ـ سبحانه ـ لا تشبه ذوات المخلوقين؛ وكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين.

فصفاته ـ سبحانه ـ مثل ذاته ـ سبحانه ـ منزّهة عن مشابهة شيء من صفات المخلوقين؛ قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

• المقصود بالصفات: ما وصف الله به نفسه ـ وكل اسم من أسمائه يدل على صفة ـ أو وصفه به رسوله ﷺ.

ولذا فهي توقيفية، مصدرها السماع والنقل.

ويجب الإيمان بها، وهي تقتضي أمرين:

ـ وصفه سبحانه بما وصف به نفسه.

ـ نفي مشابهة صفاته تعالى لصفات خلقه.

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢١٧).

• لا تفريق بين الصفات، فإن القول في بعضها كالقول في بعضها الآخر.

وذلك أنَّ بعضهم يقول: إنَّ الله حي بحياة، عليم بعلم، قدير بقدرة، سميع بسمع... ويجعل ذلك كله حقيقة، وينازع في محبته ورضاه وغضبه، ويجعل ذلك مجازاً.

فيقال له: لا فرق بين ما نفيته، وبين ما أثبته، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر(١).

• لا يجوز وصفه ـ سبحانه ـ بما هو شر، فالشر لا يضاف إليه فعلاً ولا وصفاً، وإنما يدخل في مفعولاته، وفرق بين «الفعل» و«المفعول»؛ فالشر قائم بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله.

فالشر لا يدخل في صفات الله، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه، وإنما هو في المفعولات.

قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«إن الحسنة مضافة إليه، لأنه أحسن بها من كل وجه وبكل اعتبار، فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه.

وأما السيئة فهو ـ سبحانه ـ إنما قدّرها وقضاها بحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه.

فإن الربَّ ـ سبحانه ـ لا يفعل سوءاً قط، كما لا يوصف به، ولا

---

(١) الفتاوى (٣/ ١٧).

يسمى به، بل فعله حسن وخير وحكمة ومصلحة، كما قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال أعرف الخلق به: «**والشر ليس إليك**»[١]، فهو لا يخلق شرّاً محضاً من كل وجه، بل كل ما خلقه ففي خلقه مصلحة وحكمة، وإن كان في بعضه شرٌّ جزئي إضافي، وأما الشر المطلق من كل وجه فهو تعالى منزّه عنه وليس إليه»[٢].



(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) شفاء العليل، لابن القيم (٢/ ٤٨٥)، نشرته مكتبة العبيكان ـ الرياض.

الركن الثاني
الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، هكذا جاء ترتيبه في حديث جبريل عليه السلام الذي سبق ذكره، وكذلك في الآيات الكريمة.

وهو من الإيمان بالغيب، الذي وصف الله به المتقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢].

ولما كان كذلك فالمرجع في الحديث عنه يعود إلى القرآن الكريم، والأحاديث الصحيحة.

• فهم كما جاء في النصوص الصحيحة: أجسام لطيفة نورانية، أعطيت قدرة على التشكُّل بأشكال مختلفة، ومسكنها السموات، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، ولا يأكلون، ولا يشربون، ولا يتناكحون، ولا يتوالدون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

ومعنى الإيمان بهم: هو التصديق بوجودهم يقيناً، وبكل ما جاء عنهم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

• وقد كلفهم الله بأنواع من الطاعات والعبادات فهم قائمون بها، فمن ذلك:

ـ **جبريل** عليه السلام: وقد وصفه الله تعالى بأنه «روح القدس»، و«الروح الأمين»، وبأنه «رسول كريم ذو قوة مكين مطاع أمين»، وهو موكل بالوحي.

ـ **وميكائيل** عليه السلام: وقد جاء ذكره مع جبريل في قوله تعالى: ﴿مَن

كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

ـ **وإسرافيل** عليه السلام: وهو الذي ينفخ في الصور.

ـ **ومالك** عليه السلام: وهو خازن النار، قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

ـ **ورضوان** عليه السلام: خازن الجنة، جاء ذكره في الأحاديث.

ـ **ومنكر ونكير**: وقد ورد ذكرهما في سؤال القبر.

ـ **وملك الموت**: الذي عرف عند العامة من الناس باسم «عزرائيل»، ولا وجود لهذه التسمية في الأحاديث الصحيحة.

ـ **ورقيب وعتيد**: وهما اللذان جاء ذكرهما في قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قٓ: ١٨]، وهما ملكان موكلان بكل إنسان يحفظان عمله، و«رقيب عتيد» هو وصف لهما، وليس اسماً لهما.

ـ **وحملة العرش**: الذين جاء ذكرهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

ـ **ومما ذكره الإمام ابن حجر**: الملك الموكل بتصوير ابن آدم، وملك الجبال، والملائكة الذين في كل سماء، والملائكة الذين ينزلون في السحاب، والملائكة الذين يدخلون البيت المعمور، والملائكة الذين يكتبون الناس يوم الجمعة، وخزنة الجنة، والملائكة الذين يتعاقبون[1] . . . وغيرهم كثير.

---

(١) فتح الباري (٦/ ٣٠٧).

• وعدد الملائكة لا يحصيه إلا الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

وبعض الأحاديث يمكن أن تكون مؤشِّراً على مقدار كثرة عددهم.

ـ ففي حديث الإسراء والمعراج، قوله ﷺ: «**فإذا أنا بإبراهيم** عليه السلام **مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه**»(١).

ـ وفي الحديث قوله ﷺ: «**يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»(٢).

ـ وقال ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّتِ**(٣) **السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله..**»(٤).

إن هذه الأحاديث إضافة إلى ما ذكر في الفقرة السابقة.. يدل على أن عددهم كبير لا يكاد العقل يتخيله.

• والملائكة عباد لله تعالى، يقوم كل منهم بما كلِّف به، فهم خاضعون لأمره سبحانه وتعالى، منقطعون لعبادته.

وعموم الملائكة يسبِّحون بحمد ربهم؛ قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ

---

(١) رواه مسلم (١٦٢/ ٢٥٩، ٢٦٠).
(٢) رواه مسلم (٢٨٤٢).
(٣) أطَّتْ: الأطيط: صوت الأقتاب، والمراد: أن كثرة من فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت.
(٤) رواه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠).

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤ ـ ١٦٦].

وفي الحديث قوله ﷺ: «**ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربها؟**» قالوا: يا رسول الله! وكيف تصفّ الملائكة عند ربها؟ قال: «**يتمُّون الصفوف، ويتراصون في الصف**»(١).

وإذن: فهم بين تسبيح وتهليل واصطفاف وسجود..

وهم في خشية وإشفاق خوفاً من ربهم سبحانه، فلا يسبقونه بالقول.. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

تلك بعض الخطوط العريضة عن الركن الثاني من أركان الإيمان، والمسلم القارئ للقرآن يستطيع تكوين التصور الأشمل والأدق عن هذا العالم المطيع الذي لا يعرف المعصية لله تعالى.

والإيمان بهم اعتراف بحقيقة يقينية موجودة، ولكنها مغيبة عنا، ودليل على إيمان المسلم وانقياده لأوامر خالقه ﷻ.



(١) رواه مسلم (٤٣٠).

الركن الثالث
الإيمان بالكتب

المقصود بالكتب: كتب الله تعالى التي أنزلها على أنبيائه ورسله، لتكون معالم الطريق لهم في هذه الحياة، تبين لهم ما يصلحهم في دنياهم وآخرتهم.

والإيمان بها: من جملة الإيمان بالغيب، لأننا نعتمد فيه جملة على إخبار الله تعالى بذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

فقوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ﴾، فـ «الكتاب» هنا: جنس، يشمل جميع الكتب المتقدمة، سواء منها ما قصَّه الله علينا تفصيلاً، أو ما جاء ذكره جملة كما في هذه الآية الكريمة.

فمطلوب من المؤمن: الإيمان ـ على الجملة ـ بكلِّ كتب الله التي أنزلها على رسله وأنبيائه.

وأما ما جاء ذكره تفصيلاً في القرآن الكريم، فالواجب الإيمان بأعيان ما سمَّى لنا منها، وهي: التوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن، وصحف إبراهيم، وصحف موسى(١).

---

(١) ذكر ابن كثير في البداية (١/ ٩٩): أن خمسين صحيفة أنزلت على شيث عليه السلام، كما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر مرفوعاً، ومعلوم عن شيث أنه لم يرد ذكره في القرآن، وإنما ورد في السنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهي التي أنزلت على موسى عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (١٦) وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٩].

وقال تعالى بشأن القرآن الكريم مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

* * *

هذه المقدمة كانت لبيان الإيمان بالكتب السماوية، مع ذكر الشواهد القرآنية.. ويحسن بنا أن نبيِّن بعض خصائص القرآن الكريم:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، **المهيمن**: الأمين، فالقرآن أمين على كل كتاب قبله، وعنه: أي شهيداً، وعنه: أي حاكماً.

وقال ابن جرير: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل.

قال ابن كثير: «وهذه الأقوال متقاربة المعنى، واسم «**المهيمن**» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله.

جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله، آخر الكتب وخاتمها، وأشملها، وأعظمها، وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها»[(١)].

ونفهم من كلام ابن كثير رحمه الله الأمور التالية:

ـ أن القرآن مصدق للكتب السابقة، من حيث مصدرها الإلـٰهي.

ـ أنه مبين للتحريف الذي حدث فيها، بعد الرسل عليهم السلام.

ـ أنه مبين لما كتمه أصحاب هذه الكتب من الحق.

ـ أنه جمع محاسن الكتب السابقة وأضاف إليها محاسن أخرى.

٢ ـ نزلت الكتب السابقة دفعة واحدة على من نزلت عليه من الرسل، ونزل القرآن مفرقاً بحسب الوقائع وحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم.

٣ ـ سجل القرآن التحريف الذي وقع بالكتب السابقة[(٢)]:

فقال في حق اليهود وتحريفهم التوراة:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

---

(١) تفسير ابن كثير، عند الآية المذكورة.

(٢) تفسير ابن كثير، عند الآية (١٣٦) من سورة النساء.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦].

وقال في حق النصارى وما أدخلوه على الإنجيل من تحريف:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٤ ـ ١٥].

أما القرآن الكريم فقد بقي محفوظاً بحفظ الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢].

٤ ـ كانت الكتب السابقة خاصة للأقوام التي بعث فيها أولئك الرسل.

أما القرآن فهو للناس كافة؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٥ ـ إن الكتب السابقة قد ضاعت نسخها الأصلية وليس بين الأيدي منها كتاب تصح نسبته إلى الرسول الذي أنزل عليه.

والقرآن وحده هو الذي يمتلك الأدلة والوثائق على ذلك.

***

وخلاصة القول: إن الكتب السابقة بسبب التحريف الذي أصابها، فإن الإيمان بها يكون بالتصديق أنها من عند الله من حيث أصلها المنزل.

وأما القرآن فيجب الإيمان بأنه كلام الله المنزل، وهو الحق، وأنه محفوظ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ومن الإيمان بالله وكتبه: الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، وأن الله تكلم به حقيقة، وأن هذا القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ: هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره، ولا يجوز إطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة عنه.. بل إذا قرأه الناس أو كتبوه بذلك في المصاحف، لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله حقيقة، فإن الكلام إنما يضاف إلى من قاله مبتدئاً، لا إلى من قاله مبلّغاً مؤدياً.

وهو كلام الله، حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف»[(١)].



(١) الفتاوى (٣/ ١٤٤).

الركن الرابع
الإيمان بالرسل

أصبح من المسلّم به فشل كل الأنظمة الأرضية في وضع منهاج يقود إلى سعادة الإنسان واستقامته، فقد عجز الناس عن الوصول إلى ذلك.

وأضحى من المسلَّم به: أن البشر بحاجة إلى من يقودهم إلى هذه السعادة، وكان هؤلاء القادة هم الرسل.

والله ـ سبحانه ـ لم يترك الناس هملاً يتيهون في الفوضى والضلال، بل أرسل إليهم من يعلّمهم ويرشدهم إلى الصواب منذ اللحظة الأولى لنزول آدم إلى الأرض.. فكان آدم أول هؤلاء المعلمين.

«فلا سبيل إلى السعادة والفلاح ـ لا في الدنيا ولا في الآخرة ـ إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلّا من جهتهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه»[1].

* * *

واختيار الرسل إنما يكون باصطفاء الله واختياره، و﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي

(١) زاد المعاد، للإمام ابن القيم (١/ ٦٩).

مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]، و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومن حكمته تعالى أنه اختار لهذه المهمة من فطر على الصفات التي تؤهله لأداء ما كلّف به على أكمل وجه.

فهم ـ وقبل كل شيء ـ بشر، لا تنفكُّ عنهم صفات البشرية من كونهم أجساداً يحتاجون إلى الأكل والشرب، وينامون ويقومون، ويصحون ويمرضون، ويتزوَّجون ولهم ذرية.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧ ـ ٨].

وما ذاك إلا ليكونوا النموذج والأسوة التي يقتدي بها الناس، ولو كانوا من غير البشر لكان ذلك حجة للناس للاعتذار عن عدم اتباعهم.

وهم ـ كما اختارهم الله تعالى ـ على كمال من الخلقة، حتى لا يكون فيهم ما ينفّر الناس منهم.

كما أنهم على كمال من الأخلاق قبل النبوة وبعدها، حتى لا يكون للناس ما يأخذونه عليهم، والله ـ سبحانه ـ يرعاهم ويربيهم، حتى يصل بهم إلى درجة من الكمال البشري، بحيث يكونون مؤهلين لتلقي الوحي والقيام بأعباء النبوة.

* * *

وهؤلاء الرسل فريقان: أنبياء ورسل.

أما الرسل: فهم الذين يوحى إليهم بشرع جديد.

وأما الأنبياء: فهم المبعوثون لتقرير شرع رسول كان قبلهم.

حدَّث أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خَلَفَهُ نبي**»(١).

وأنبياء بني إسرائيل مبعوثون بشريعة موسى، التي هي في التوراة.

والأنبياء والرسل جمٌّ غفيرٌ، تعاقبوا على أجيال البشرية جيلاً بعد جيل، فما من أمة إلا وكان فيها نبي أو رسول، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، ومن هنا جاءت هذه الكثرة في عددهم.

قال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وفي «مسند الإمام أحمد»: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، كم وفَّى عدة الأنبياء؟ قال: «**مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمئة وخمسة عشر، جمّاً غفيراً**»، وفي لفظ: «**ثلاثمئة وبضعة عشر**»(٢).

***

وقد ذكر القرآن الكريم من الأنبياء والرسل خمسة وعشرين، هم:

آدم، ونوح، وإدريس، وصالح، وإبراهيم، وهود، ولوط، ويونس، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، واليسع، وذو الكفل، وداود، وزكريا،

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٥).

(٢) المسند (٥/ ١٧٨ ـ ١٧٩).

وسليمان، وإلياس، ويحيى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

«وأولو العزم منهم خمسة، مذكورون في سورة الأحزاب والشورى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣]»(١).

سبق القول بأن الأنبياء والرسل هم بشر، وصلتهم بالله تعالى إنما تكون عن طريق الوحي؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ [الكهف: ١١٠].

والوحي يتم بطرق ذكرت بعضها الآية الكريمة الآتية:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

فالوحي أن يلهمه أو يقذف في قلبه، كما جاء في الحديث عنه ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها**».

وما كان من وراء حجاب؛ فهو كما كلم الله تعالى موسى عليه السلام.

أو يرسل ملكاً إلى الرسول فيبلغه أمر ربه.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٤٣ ـ ٤٤).

وقد يكون الوحي عن طريق الرؤيا الصالحة.

ولكن الطريقة الأشهر هي نزول الملك وهو جبريل عليه السلام.

وإذا كان الملك معصوماً، فينبغي أن يكون الرسول أو النبي معصوماً حتى نتأكد من سلامة طريق وصول الأمر الإلٰهي إلى البشر.

ولذا فالإجماع قائم على القول بعصمة الأنبياء، فهم لا يكتمون شيئاً مما أمروا بتبليغه، ولا ينسونه، ولا يزيدون فيه، ولا ينقصون منه، كما عصمهم الله من المعاصي، فهم القدوة التي تتأسى بهم الأمم.

***

وللتدليل على صدقهم، فقد أيدهم الله بالآيات، **وهي المعجزات الخارقة للعادة**، وكانت هذه الآيات متناسبة مع الزمن الذي يكون فيه النبي.

ففي زمن موسى عليه السلام كان السحر منتشراً، فكانت معجزاته مما لا يستطيع السحرة الإتيان به، بل هي إبطال له، كما حدث عندما ابتلعت عصاه كل ما قام به السحرة من إظهار حبالهم وعصيهم أنها ثعابين تسعى.

وكان الطبُّ متقدماً زمن عيسى عليه السلام، فجاء بما لا يستطيعه الطب على الإطلاق وهو إحياء الموتى بإذن الله..

وكانت معجزات نبينا ﷺ في كل الميادين مما لا يتسع المقام لذكرها؛ وأولها معجزة القرآن الخالدة.

والأنبياء ليسوا في درجة واحدة من حيث الفضل؛ فقد أخبرنا

ﷻ أنه فضَّل بعض النبيين على بعض فقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۢ﴾ [الإسراء: ٥٥].

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍۢ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وأفضلهم أولو العزم، وأفضل أولي العزم سيدنا محمد ﷺ، فهو أفضل الرسل على الإطلاق، وأدلة ذلك كثيرة ليس هذا مكان ذكرها، ومنها كونه صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة.

وهذا التفاضل بينهم لا ينفي وجوب الإيمان بهم على قدم المساواة بأنهم أنبياء الله ورسله كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍۢ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

* * *

وأما مهمة الأنبياء والرسل فهي تبليغ رسالات الله سبحانه إلى الناس، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ﴾ [المائدة: ٦٧]، تلك هي المهمة الأولى لهم، ويتفرّع عنها كل ما يؤدي إلى تحقيق هذه المهمة أو ما كان في سبيلها، **ومن ذلك:**

الدعوة إلى توحيد الله وعبادته؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومنها: التبشير والإنذار، التبشير برضوان الله وثوابه لمن آمن وأطاع، والإنذار بغضب الله وعقابه لمن كفر وعصى.

قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ

وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨ ـ ٤٩].

وللتبشير والإنذار مهمة أخرى، وهي إقامة الحجة على الناس يوم القيامة بأن الله أرسل إليهم الرسل وبلغوهم ما يجب عليهم.

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

ومنها: تعليم الناس الأخلاق الفاضلة وحثهم عليها، وتزكية نفوسهم.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

ومنها: قيادة الأمة، وسياستها لتحقيق مصالحها، وإقامة العدل بين الناس.

قال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

* * *

وأخيراً: فإن الإيمان بالرسل عليهم السلام، هو أحد أركان الإيمان، التي لا يتم إلا بها، والواجب على المسلم الإيمان بأنبياء الله ورسله على الجملة فيما جاء ذكرهم على الجملة، وتفصيلاً فيمن ذكرت أسماؤهم في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، ومن كذب واحداً منهم أو كذب بواحد منهم فقد خرج من الإيمان إلى الكفر.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟

بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].



الركن الخامس
الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر، هو أحد أركان الإيمان بالغيب، ومن الإيمان به الإيمان بكل ما أخبر الله به عنه في كتابه، وكذلك ما أخبر به رسوله ﷺ، مما يكون بعد الموت، من فتنة القبر وعذابه ونعيمه، وما يكون يوم القيامة من الأهوال والشدائد.

والإيمان بالصراط والميزان والحساب والجزاء ونشر الصحف.. وكذلك الإيمان بالجنة والنار.

إنه الإيمان بعالم آخر بكل ما فيه من معالم وعوالم، إنها مجموعة كبيرة من الحقائق والمواقف والمشاهد.. كلها من عالم الغيب الذي علينا أن نؤمن بها، وبغير هذا لا يكون الإيمان باليوم الآخر.

* * *

ولما كان الإيمان بهذا اليوم يجمع هذه المجموعة الكبيرة مما يجب الإيمان به، اقتضت حكمته تعالى أن يبسط القول فيه أكثر من بقية الأركان.. وبيان ذلك:

● أنه ورد ذكر الإيمان به مقروناً بالإيمان بالله تعالى في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

● أنه تعددت أسماء هذا اليوم، «بحيث يدل كل منها على ما سيقع من الأهوال، فمن أسمائه في القرآن: القيامة، الساعة، الآخرة، يوم الدين، يوم الحساب، يوم التلاق، يوم الجمع، يوم

التغابن، يوم الخلود، يوم الخروج، يوم الحسرة، يوم التناد، الآزفة، الطامَّة، الصاخَّة، الحاقَّة، الغاشية، الواقعة... وغيرها»[1].

• «أن القرآن الكريم اهتم بهذا الأصل غاية الاهتمام، إثباتاً وتدليلاً، وبياناً وتفصيلاً، ودحضاً لشبه المنكرين، وتأكيداً وتكريراً لجوانبه جميعاً، حتى يتقرر أمره تقرر المسلَّمات، وحتى يكون الناس في شأنه كأنهم يرون ويسمعون ضجة القيامة، وهول المحشر والفزع الأكبر، وما وراء ذلك من الأمن والنعيم للطائعين، والعذاب والجحيم للعاصين.

والنظرة الأولى لأسماء السور القرآنية تعطينا طابع الاهتمام البالغ بشأن اليوم الآخر:

ـ فتارة تسمى السورة باسم من أسماء هذا اليوم، مثل سور: القيامة، والواقعة، والحاقة، والنبأ، والغاشية، والقارعة.

ـ وتارة تسمى بشيء من المظاهر الكونية الهائلة التي تمهد له، مثل: الدخان، التكوير، الانفطار، الانشقاق، الزلزلة.

ـ أو باسم ما يقع في هذا اليوم أو يصاحبه، مثل: الأعراف، والزمر، والجاثية، والحشر، والتغابن، والمعارج.

فهذه سبع عشرة سورة لم يقع في القرآن مثلها لأصل ما، فإذا تجاوزنا هذه الملاحظة الشكلية ـ مع أهمية دلالتها ـ نجد أن معظم سور القرآن لا تخلو من ذكر القيامة أو ما يتعلق بها، مرة أو مرات عديدة في السورة الواحدة»[2].



---

(١) الإيمان، للدكتور محمد نعيم ياسين، ص (٩٥)، مكتبة الفلاح ـ الكويت.

(٢) المنهاج القرآني في التشريع، للدكتور عبد الستار فتح الله السعيد، ص (٣٥٧ـ٣٥٩).

إن الحديث عن اليوم الآخر متشعب الأطراف، ويمكن إرجاعه إلى أربع نقاط رئيسة هي: الموت، علامات القيامة، يوم القيامة، الجنة والنار.

أولاً: فتنة القبر:

بعد الموت، ودفن الميت في القبر.. «فإن الناس يفتنون في قبورهم، فيقال للرجل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فيقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد ﷺ نبيي، وأما المرتاب فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، فيضرب بمرزبة من حديد، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان لصعق»[(١)].

ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم، وإما عذاب إلى أن تقوم القيامة الكبرى[(٢)].



ثانياً: علامات الساعة:

إن يوم القيامة شأنه عظيم، ولذلك تسبقه علامات تنذر بقرب موعده، منها ما جاء في حديث جبريل الذي نحن بصدده؛ حيث قال: فأخبرني عن الساعة، فقال ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: «**أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**»[(٣)].

---

(١) انظر الحديث في: البخاري (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠).

(٢) انظر الحديث في: البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٣) رواه مسلم (٨).

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة بذكر هذه العلامات، ومنها:

«إن من أشراط الساعة: أن يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنى، ويكثر شرب الخمر، ويقلَّ الرجال، ويكثر النساء...»(١).

«لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج - القتل - حتى يكثر فيكم المال فيفيض»(٢).

«بادروا بالأعمال ستّاً: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم»(٣).

وفي حديث آخر: **«ونزول عيسى ابن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»**(٤).

والأحاديث في هذا كثيرة.

إنها أحداث كثيرة متنوعة تنذر بقرب هذا اليوم؛ أعظمها الدجال.. وخروج الشمس من مغربها حيث لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل.



---

(١) رواه البخاري (٥٢٣١)، ومسلم (٢٦٧١).

(٢) رواه البخاري (١٠٣٦)، ومسلم (١٥٧م).

(٣) رواه مسلم (٢٩٤٧)، ومعنى: **خويصة أحدكم**: موته. والمراد **بأمر العامة**: القيامة.

(٤) رواه مسلم (٢٩٠١).

ثالثاً: يوم القيامة:

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وعندها «تعاد الأرواح إلى الأجساد، وتقوم القيامة... فيقوم الناس من قبورهم لربِّ العالمين حفاة عراة غرلاً[١]، وتدنو الشمس منهم، ويلجمهم العرق..

وتنصب الموازين، فتوزن فيها أعمال العباد: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢ ـ ١٠٣]، وتنشر الدواوين ـ وهي صحائف الأعمال ـ فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤].

ويحاسب الله الخلائق، ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه، كما وصف ذلك في الكتاب والسنة.

وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنه لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويجزون عليها.

وفي عرصة القيامة: الحوض المورود لمحمد ﷺ، ماؤه أشد

---

(١) غرلاً: أي غير مختونين.

بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء، طوله شهر، وعرضه شهر، من يشرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً.

والصراط منصوب على متن جهنم ـ وهو الجسر الذي بين الجنة والنار ـ يمر عليه الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عَدْواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يُخطف فيلقى في جهنم، فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم، فمن مرَّ على الصراط دخل الجنة.

فإذا عبروا عليه، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذِّبوا ونقوا، أُذن لهم في دخول الجنة.

وأول من يستفتح باب الجنة محمد ﷺ، وأول من يدخل الجنة من الأمم أمته.

وله ﷺ في القيامة ثلاث شفاعات:

أما الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف، حتى يقضى بينهم، بعد أن تتراجع الأنبياء، ويحيل كل منهم الأمر لغيره، وهم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ابن مريم.. حتى تنتهي إليه.

وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة.

وهاتان الشفاعتان خاصتان له.

وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار ـ وهذه الشفاعة

له، ولسائر النبيين، والصديقين وغيرهم ـ فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها، ويشفع فيمن دخلها ـ من المسلمين ـ أن يخرج منها.

ويخرج الله تعالى من النار أقواماً بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته.

ويبقى في الجنة فضل عمن دخلها من أهل الدنيا، فينشئ الله لها أقواماً فيدخلهم الجنة»[١].

تلك نبذة مختصرة عن أحداث يوم القيامة، نقلتها من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وكلها مما جاءت أدلته في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة[٢].

***

رابعاً: الجنة والنار:

فإذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت..

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة! فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار! فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه،**

---

(١) الفتاوى (٣/ ١٤٥ ـ ١٤٨).

(٢) انظر ـ إن رغبت ـ في بيان أدلة ذلك من الأحاديث الصحيحة المتفق عليها كتاب: الجامع بين الصحيحين، لكاتب هذه الأحرف (١/ ٨٩ ـ ٢٠٧) نشرته دار القلم بدمشق.

فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة! خلود فلا موت، ويا أهل النار! خلود فلا موت»(١).

«فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»(٢).

ونعيم الجنة وعذاب النار قد أخذ وصفهما مساحة كبيرة من آيات القرآن الكريم، ومن الأحاديث الشريفة، ولا يغيب مشهدهما عن قارئ القرآن.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يؤتى بأنعم أهل الدنيا، من أهل النار، يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة**(٣)**، ثم يقال: يا ابن آدم! هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله، يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا، من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له: يا ابن آدم! هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله، يا رب ما مرَّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»**(٤).

* * *

وبعد: فإن الإيمان بالحياة الآخرة له أعظم الأثر في توجيه حياة الإنسان، ذلك أن الإيمان بالحساب والثواب والعقاب، والفوز والخسران، والجنة والنار؛ يدفع الإنسان إلى الانضباط مع السلوك

---

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).
(٢) رواه البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠).
(٣) أي: يغمس غمسة.
(٤) رواه مسلم (٢٨٠٧).

السوي، والالتزام بالعمل الصالح، والسعي لأن يكون دائماً في دائرة التقوى لله ﷻ.

«فالإيمان بالآخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات، ويضمن القصد والاعتدال في الحياة.

والذي لا يعتقد بالآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوةً، أو يكبح فيها نزوةً، وهو يظن أن الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هي فرصة الحياة على هذا الكوكب، وهي قصيرة مهما طالت. . .

والنفس مطبوعة على أن تحب ما يلذُّ لها. . ما لم تهتد بآيات الله إلى الإيمان بعالم آخر باقٍ بعد هذا العالم الفاني، فإذا هي تجد لذتها في أعمال أخرى، وأشواقٍ أخرى، تصغر إلى جوارها لذائذ البطون والأجسام»[١].

ومن آثار الإيمان بالآخرة: أن الإنسان يرتفع بمقاصده وأهدافه لتكون ممتدة إلى عالم الخلود، فلا يبقى في إسار هذه الحياة المحدودة، إنه ينطلق من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

«إن العقيدة في الآخرة فسحة في التصور، وسعة في النفس، وامتداد في الحياة ضروري في تكوين النفس ذاتها.

كذلك هي ضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة ومطامعها المحدودة.

والاعتقاد في الآخرة، مفرق طريق بين فسحة الرؤية والتصور في

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٢٧)، طبعة دار الشروق.

نفس «الإنسان»، وضيق الرؤية واحتباسها في حدود الحس في إدراك «الحيوان»، وما يصلح إدراك الحيوان لقيادة البشرية»[(١)].

«**والإيمان بالحياة الآخرة نعمة**، نعمة يفيضها الإيمان على القلب، نعمة يهبها الله تعالى للفرد الفاني، المحدود الأجل، الواسع الأمل.

وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة.

فالإيمان بالآخرة ـ فوق أنه إيمان بعدل الله المطلق وجزائه الأوفى ـ هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية، وعلى امتلاءٍ بالحياة، لا يقف عند حدود الأرض إنما يتجاوزها إلى البقاء الطليق، الذي لا يعلم إلا الله مداه، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعداً إلى جوار الله تعالى»[(٢)].

إن ما سبق ذكره من ثمرات الإيمان باليوم الآخر تبين لنا الحكمة من ذلك التأكيد المتكرر على ذكر هذا اليوم في القرآن الكريم.. وذكر تفصيلات ما يحدث فيه، حتى بات تصوُّره واقعاً في حياة المسلم له الفاعلية المؤثرة في سلوكه.

قال صاحب الظلال رحمه الله تعالى: «لذلك كله كان التوكيد شديداً على عقيدة الآخرة في دين الله كله.. ثم بلغت صورة الآخرة في هذا الدين الأخير غايتها في السعة والعمق والوضوح.. **حتى بات عالم الآخرة في حسِّ الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم**

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٠٨).
(٢) المصدر السابق (١/ ٩٢).

الدنيا الذي يعيشونه فعلاً[١]! وبهذا صلحت هذه الأمة لقيادة البشرية، تلك القيادة الراشدة التي وعاها التاريخ الإنساني»[٢].



(١) انظر: إن رغبت في تفصيل هذا المعنى (٢/ ١٠٦٨ ـ ١٠٧٢) من الظلال، طبعة دار الشروق.
(٢) الظلال (٣/ ١٤٠٨).

الركن السادس
الإيمان بالقدر

أولاً: معنى القدر وحقيقته:

الإيمان بالقدر خيره وشره، هو الركن السادس من أركان الإيمان، التي ينبغي اعتقادها، إذ لا يتم إيمان العبد إلا بها جميعاً.

وقد وضع العلماء تعريفات كثيرة للقدر، أذكر منها تعريف الإمام ابن حجر، قال: «المراد أن الله تعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدَث صادر عن علمه وقدرته وإرادته»[(١)].

وإذا كان التعريف ـ عادةً ـ يعطي تصوُّراً عامّاً عن الموضوع، فإن الوقوف أمام النصوص التي سجلت هذا الركن ودعت إلى الإيمان به ـ بما تحمله من أمثلة ـ يجعلنا على صلة بالموضوع مباشرة، ونكون أمام واقع عملي تطبيقي.

والنصوص كثيرة كثيرة، نذكر منها:

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

---

(١) فتح الباري (١/ ١١٨).

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد.**

فو الذي لا إلٰه غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . . .»[1].

وقوله ﷺ لزوجه أم حبيبة ـ وقد دخل عليها وهي تدعو الله أن يطيل عمر أبيها وأخيها ـ: «**إنك سألت الله لآجال مضروبة، وآثار موطوءة، وأرزاق مقسومة، لا يعجل شيئاً منها قبل حله، ولا يؤخر منها شيئاً بعد حله**»[2].

وقوله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار**»[3].

وقوله ﷺ: «**كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس**[4]»[5].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣)، واللفظ له.
(٢) رواه مسلم (٢٦٦٣).
(٣) رواه البخاري (٤٩٤٥).
(٤) **الكيس**: هو النشاط والحذق في الأمور، وهو ضد العجز.
(٥) رواه مسلم (٢٦٥٥).

وقوله ﷺ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**»[١].

وقوله ﷺ: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء، حتى تقوم الساعة**»[٢].

وقوله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**.. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء، قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[٣].

وقوله ﷺ: «**جفَّ القلم على علم الله**»[٤].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «**الله ـ إذ خلقهم ـ أعلم بما كانوا عاملين**»[٥].

* * *

إن هذه النصوص توضح بشكل لا لبسَ فيه معنى القدر، وهي لا تخرج في معناها عن الإقرار بأسماء الله تعالى وصفاته، وما يترتب على هذا الإيمان.

وبعد تأمُّلها وإمعان النظر فيها يسهل علينا أن نفهم ما قاله الإمام ابن القيم في هذا الصدد:

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (١٥٥).

(٣) رواه الترمذي (٢٥١٦).

(٤) رواه الترمذي (٢٦٤٢).

(٥) رواه البخاري (١٣٨٣)، ومسلم (٢٦٦٠).

قال: «مراتب القضاء والقدر ـ التي من لم يؤمن بها، لم يؤمن بالقضاء والقدر ـ أربع، وهي:

المرتبة الأولى: علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها.

المرتبة الثانية: كتابته لها قبل كونها.

المرتبة الثالثة: مشيئة الله لها.

المرتبة الرابعة: خلقه لها»[(١)].

وقد جعلها شيخه ـ الإمام ابن تيمية ـ درجتين، وكل درجة تتضمن شيئين، فقال:

«والإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم بما الخلق عاملون به، بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً أبداً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال.

ثم كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق، فأول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ـ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وأما **الدرجة الثانية:** فهي مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة:

وهي الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه إلا ما يريد.

---

(١) القضاء والقدر، للإمام ابن القيم، ص (٧٠)، نشره المكتب الإسلامي.

وأنه ـ سبحانه ـ على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره ولا رب سواه.

والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم.

وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ ـ ٢٩]»[(١)].

وإذاً: فالإيمان بالقدر هو: الإيمان بعلم الله الشامل المحيط، وأن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، والإيمان بمشيئته النافذة وقدرته التامة، وأنه خالق الخلق.

* * *

ثانياً: إشكالات طارئة:

هذا ما فهمه الصحابة ﷿، فما الإيمان بالقدر إلا التعظيم لله، والإيمان بما جاء في كلامه، والإقرار بأنه عالم الغيب والشهادة، الفعّال لما يريد.

ولم يحدث خروج على هذا الجو الإيماني السائد سوى مرة واحدة، كانت في حياته ﷺ، وقد عالجها بحكمته، وحكم فيها بحكمه، وسوف نتحدث عنها قريباً.

ومضى جيل الصحابة والناس على خير ما يرام، في وضوح من الأمر، واستقامة على الدين، حتى إذا كان آخر عهدهم، برزت

(١) الرسالة الواسطية ـ المسماة: العقيدة الواسطية.

مشكلة الجدال في أمر «القدر»، وكان أول من تكلم بذلك في البصرة معبد الجهني كما جاء في صحيح مسلم[1].

وتمثلت هذه المسألة بأسئلة طرحت على ساحة الفكر الإسلامي، ترجع في مجملها إلى سؤالين؛ هما:

١ ـ إذا كان كل شيء بقدر، وقد عرفت نتيجة كل إنسان هل هو في الجنة أو النار، فلماذا العمل؟!.

٢ ـ وإذا كان الله تعالى قد كتب على أهل الشقاوة شقاوتهم، أليس من الظلم أن يعاقبهم؟!.

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم أكثر أدباً مع الله من أن يسألوا مثل هذه الأسئلة وهم يقرؤون قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

أقول: وربما طرأت على أذهانهم هذه الأسئلة ولكن الإيمان منعهم من التكلم بها، كما جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، إذ قال: جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «**وقد وجدتموه؟**» قالوا: نعم، قال: «**ذاك صريح الإيمان**»[2].

فاستعظام الكلام بذلك والخوف منه، ومن النطق به، هو صريح الإيمان.

ولابد لنا من وقفة يسيرة مع السؤالين السابقين:

* * *

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) رواه مسلم (١٣٢).

أما السؤال الأول فهو:

إذا كانت نتيجة كل إنسان معروفة هل هو في الجنة أو النار، فلماذا العمل؟!.

وقد طرح هذا السؤال في زمن النبي ﷺ، وأجاب عليه بعبارة صريحة لا غموض فيها.

عن علي رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في جنازة، فأخذ شيئاً فجعل ينكت به الأرض، فقال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة**» قالوا: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «**اعملوا؛ فكل ميسَّر لما خُلق له، أما من كان من أهل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة**»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]»(١).

وقد جاء هذا المعنى نفسه مروياً عن عمران بن حصين، وجابر، وعمر رضي الله عنهم، ويغلب على الظن أنها وقائع تكررت، أراد الرسول ﷺ فيها أن يقرر هذا المعنى في النفوس، فكرر القول فيه.

وكان سؤال الصحابة رضي الله عنهم بصيغة واحدة يهدف إلى معنى واحد: أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟.

وكان جوابه ﷺ: «**اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له..**».

والواضح من كل تلك الأحاديث أن الصحابة اكتفوا بهذا الجواب، ولم يناقشوا أو يطرحوا أسئلة أخرى حول هذا المحور..

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

كان السؤال مطروحاً للوصول إلى ما ينبغي عمله، وجاءهم الجواب بوجوب العمل.

وكان واضحاً من جوابه ﷺ أن هذا الحديث يطرح مسألتين: **إحداهما**: تتعلق بالاعتقاد، **والثانية**: تتعلق بالعمل، وساحة كل منهما غير الأخرى، وهما أمران: أمر يتعلق بالاعتقاد، وأمر يتعلق بالعمل.

أما الأول فيعني ويقرر أن على كل مسلم أن يؤمن بأن مصيره مكتوب معلوم لله تعالى، وهذه قضية إيمانية عمل القلب فيها التسليم المطلق.

وأما الثاني فيقرر أن على المسلم العمل؛ لأن هذا العمل تترتب عليه نتائجه، فمن أعطى واتقى فمآله لليسرى، ومن بخل وكذب فمآله للعسرى.

وبهذا ينتفي التعارض الوارد للوهلة الأولى.

ومن المعلوم أن كل مسلم يؤمن أن رزقه مكتوب منذ كان في بطن أمه، فهذه قضية ثابتة في يقينه، ومع ذلك فهو لا يترك السعي وراء رزقه اعتماداً على الكتابة، بل يسعى تنفيذاً للأوامر الكثيرة التي حضته على السعي.

فهذه المسألة كتلك، ولا فرق.

***

وأما السؤال الثاني، وهو قولهم:

إذا كان الله تعالى قد كتب على أهل الشقاوة شقاوتهم، أفليس من الظلم أن يعاقبهم؟!.

وهذا سؤال غير متصور أن يرد على خاطر إنسان مسلم، ذلك أن

من أسمائه سبحانه: الحكم العدل، والقرآن مليء بالتنفير من الظلم والظالمين، وبيان أن الله لا يظلم أحداً، ولا يظلم مثقال ذرة، وفي الحديث القدسي قوله تعالى: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً، فلا تظالموا**»[١].

فليطمئن صاحب السؤال إلى عدل الله تعالى ولا يشغل فكره وقلبه بذلك.

ثم إن الحساب يوم القيامة: على عمل الإنسان، كما هو مقرر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وليس على علم الله فيه أو على ما كتب عليه في اللوح المحفوظ.

ولم يتصور السلف هذا الأمر ولم يتبادر إلى أذهانهم قبل انحراف المنحرفين.

قال أبو الأسود الدؤلي: قال لي عمران بن الحصين رضي الله عنه: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم، ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيّهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم، قال: فقال: أفلا يكون ظلماً؟ قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً، وقلت: كل شيء خلق الله وملك يده، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

فقال لي: يرحمك الله! إني لم أرد بما سألتُك إلا لأحزر عقلك، إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله! أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

قدر سبق، أو فيما يُستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «**لا، بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله** ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨]»[١].

فانظر إلى حال أبي الأسود رحمه الله كيف أصابه ذلك الفزع الشديد حين سمع نسبة الظلم إلى الله تعالى على طريق السؤال لا على سبيل التقرير، فكيف تكون حاله لو سمع ذلك على سبيل التقرير؟!.

إنها قضية غير متصورة بالنسبة إليه، وهذا هو السلوك الذي لابد أن يصدر عن كل مسلم آمن بالله تعالى وبأسمائه وصفاته..

فالله سبحانه هو الذي أعلمنا بأنه أمر القلم بالكتابة على اللوح المحفوظ، وهذا أمر غيبي واجبنا تجاهه الإيمان به، وأعلمنا ـ سبحانه ـ بأنه لا يظلم أحداً، فلنطمئن إلى عدله سبحانه وتعالى.

* * *

ثالثاً: واقعة أغضبت النبي ﷺ:

ونعود إلى الحادثة التي وقعت زمن النبي ﷺ والتي سبقت الإشارة إليها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب، حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان، فقال: «**أبهذا أمرتم؟! أم بهذا أرسلت إليكم؟! إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه**»[٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٠).

(٢) رواه الترمذي (٢١٣٣).

وفي المسند وكذا عند ابن ماجه: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم يتنازعون في القدر، هذا ينزع آية، وهذا ينزع آية، فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان، فقال: «**أبهذا أمرتم؟! أو بهذا بعثتم؟! أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، إنما ضلّت الأمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستم مما هاهنا في شيء، انظروا الذي أمرتم به فاعملوا به، والذي نهيتم عنه فانتهوا**».

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه(١).

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن الحديثين يتحدثان عن واقعة واحدة، لم تكرر لشدة ما رأى الصحابة من غضبه ﷺ، وحتى غبط عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما نفسه أن لم يكن في ذلك المجلس.

والأحاديث ذات دلالات كثيرة، تبين لنا المسلك الصحيح في هذه القضية:

١ ـ بيَّن ﷺ أن ضرب كتاب الله بعضه ببعض، كان سبباً في ضلال الأمم السابقة، وهو ناتج عن عدم الفهم لكتاب الله تعالى.

فمن الكليات المسلَّم بها: أنه لا تناقض ولا تعارض بين الآيات، ولا بين الأحاديث، ولا بين الآيات والأحاديث؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وفي سنن الدارمي: عن سعيد بن جبير: أنه حدَّث يوماً بحديث عن النبي ﷺ، فقال رجل: في كتاب الله ما يخالف هذا، قال: ألا

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٩٦)، وابن ماجه (٨٥).

أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعرض فيه بكتاب الله؟ كان رسول الله ﷺ أعلم بكتاب الله منك[١].

وهذا من عظيم فقه الإمام سعيد بن جبير، حيث لم يناقش الرجل في قوله، وإنما ردَّه إلى أصل متفق عليه، وهو أنه ﷺ أعلم بكتاب الله، فلا يمكن أن يصدر عنه ما يعارضه.

٢ ـ لم يوضح ﷺ لأولئك النفر خطأ من أخطأ، وصواب من أصاب، وإنما أنكر طريقتهم، لأنه لا طائل وراءها.

٣ ـ وبناءً على ما سبق فالقرآن فيه الآيات التي تقرر القدر، وفيه آيات الأمر والنهي، ولا يمكن أن تكون هذه معارضة لتلك.

٤ ـ في قوله ﷺ: «**إنكم لستم ممَّا هاهنا في شيء**» دليل على أن ما كانوا فيه ـ وهو أمر القدر ـ ليس محلّاً للنقاش، لأنه أمر إيماني، محله القلب، وعمل القلب هو التصديق بما جاء من عند الله. .

٥ ـ في قوله ﷺ: «**انظروا الذي أمرتم به فاعملوا به، والذي نهيتم عنه فانتهوا**» بيان لميدان العمل، فالمسلم بين أمر عليه تنفيذه، ونهي عليه الامتناع عنه.

وإذن: فللفقرة السابقة ميدان عملها، ولهذه ميدان عملها.

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن تيمية: «فمن أعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد ناظراً إلى القدر فقد ضل، ومن طلب القيام بالأمر والنهي معرضاً عن القدر فقد ضل، بل المؤمن كما قال تعالى:

---

(١) سنن الدارمي (٥٩٠).

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فنعبده اتباعاً للأمر، ونستعينه إيماناً بالقدر»[١].

٦ ـ في قوله ﷺ: «**عزمت عليكم... ألا تنازعوا فيه**» إغلاق لباب هذا الموضوع، ومعنى عدم التنازع هو: محاولة الفهم بعيداً عن الجدل.

كان لهذه الواقعة أثرها الكبير في توجيه المسلمين إلى ما ينبغي الاهتمام به، والبعد عما لا طائل وراءه.

***

رابعاً: كيف تعامل السلف مع الإيمان بالقدر؟:

يحسن بنا ـ بعد ما سبق ذكره ـ أن ننظر كيف تعامل المسلمون مع الإيمان بالقدر من خلال واقعهم الحياتي.

ولعل أول قضية تطالعنا في هذا الباب، ما وقع في عهد الصحابة حين خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى دمشق، فلما كان ببعض الطريق أخبر بأن وباء الطاعون وقع بأرض الشام، فاستشار الصحابة... وكان رأيهم أن يرجع.

فقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أفراراً من قدر الله؟.

فقال عمر رضي الله عنه: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله[٢].

---

(١) الفتاوى (٨/ ٧٣).

(٢) رواه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

إن قولة عمر: «نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله» تمثل الفهم الصحيح في هذا الموضوع، وقد وافقه الصحابة ﷺ على ذلك.

ومن هذا المعنى: أخذ الشيخ عبد القادر الجيلاني قولته المشهورة: «نازعت أقدار الحق بالحق للحق، والرجل من يكون منازعاً للقدر، لا من يكون مستسلماً مع القدر».

وعلق الإمام ابن القيم على قوله هذا بقوله:

«ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض، والله أمر أن تدفع السيئة وهي من قدره؛ بالحسنة وهي من قدره.

وكذلك الجوع من قدره، وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره، ولو استسلم العبد لقدر الجوع، مع قدرته على دفعه بقدر الأكل حتى مات، مات عاصياً.

وقد أفصح النبي ﷺ عن هذا المعنى كل الإفصاح، إذ قالوا: يا رسول الله! أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «**هي من قدر الله**»[1].

قال: ودفع القدر بالقدر نوعان:

أحدهما: دفع القدر الذي انعقدت أسبابه ـ ولمَّا يقع ـ بأسباب أخرى من القدر تقابله، فيمتنع وقوعه: كدفع العدو بقتال، ودفع الحر والبرد ونحوه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٦٥، ٢١٤٨)، وابن ماجه (٣٤٣٨).

الثاني: دفع القدر الذي قد وقع واستقر، بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوي.

إن من تفقه في هذه المسألة، وتأمَّلها حق التأمل، انتفع بها غاية النفع، ولم يتَّكل على القدر جهلاً منه، وعجزاً وتفريطاً.

بل الفقيه كل الفقيه، الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر.

بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك»(١).

وهذا ما ذهب إليه الإمام ابن تيمية عندما قال:

«والعبد له في «المقدور» حالان: حال قبل القدر، وحال بعده.

فعليه قبل المقدور: أن يستعين بالله، ويتوكل عليه، ويدعوه.

فإذا قدر المقدور بغير فعله، فعليه أن يصبر عليه أو يرضى به، وإن كان بفعله وهو نعمة، حمد الله على ذلك، وإن كان ذنباً استغفر إليه من ذلك»(٢).

* * *

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الاحتجاج بالقدر غير مقبول، ويدل على الجهل بأوامره ﷻ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«إن القدر نؤمن به، ولا نحتج به، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول، ولو كان الاحتجاج

---

(١) القضاء والقدر، لابن القيم، ص (١٩٣ ـ ١٩٥)، نشره المكتب الإسلامي.
(٢) الفتاوى (٨/ ٧٦).

بالقدر مقبولاً لقُبل من إبليس وغيره من العصاة، ولو كان القدر حجة للعباد لم يعذب الله أحداً من الخلق لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ولو كان القدر حجة لم يقطع سارق، ولا قُتِلَ قاتل، ولا أقيم حد على ذي جريمة، ولا جوهد في سبيل الله، ولا أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر»[١].

❊ ❊ ❊

خامساً: الإيمان بالقدر باعث على العمل:

إن الإيمان بالقدر عامل إيجابي في حياة الإنسان وباعث على العمل.

يقول الإمام ابن القيم:

«فالقدر السابق معين على الأعمال وباعث عليها، ومقتضٍ لها، لا أنه منافٍ لها وصادّ عنها.

وهذا موضع مزلة قدم، من ثبت قدمه عليه فاز بالنعيم المقيم، ومن زلت قدمه عنه هوى إلى قرار الجحيم.

فالنبي ﷺ أرشد الأمة في القدر إلى أمرين، هما سببا السعادة:

ـ الإيمان بالأقدار، فإنه نظام التوحيد.

ـ والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره، وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع.. فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر»[٢].

---

(١) المنهاج القرآني في التشريع، ص (٣٥٢)، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد، نقلاً عن: رسالة صغيرة في القضاء والقدر، لابن تيمية، مكتبة أنصار السنة المحمدية (١٣٨٢).

(٢) القضاء والقدر، لابن القيم، ص (١٩١)، نشره المكتب الإسلامي.

وفي ظلال هذا الفهم:

ـ اندفع المسلمون إلى الجهاد، باعثهم إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

ـ والإيمان بالقدر طارد لليأس والإحباط الذي ينتج عن فشل أو مصيبة تقع بالإنسان، فعلّمه التطلع إلى المستقبل.

ففي الحديث الصحيح: «**المؤمن القوي خير ـ وأحبُّ إلى الله ـ من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان**»[1].

وهكذا علّمه الحديث عند المصيبة أن يقول: **قدَّر الله وما شاء فعل**، ثم يتطلع إلى المستقبل بروح فيها الحيوية والنشاط مستعيناً بالله، طارداً ظلال العجز عن نفسه.

ومن فوائد الإيمان بالقدر: أنه يربِّي المسلم على التواضع لله، فهو عندما لا يعلم أمر خاتمته يظل في عبودية خالصة رغبة ورهبة، وهو بالتالي لا يتعالى على الناس، فرُبَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرَّ قسمه، فعامل الكرامة عند الله هو التقوى.

* * *

وخلاصة القول: إن جيل الصحابة ﷺ، هم جيل القدوة، ونستطيع بيان موقفهم من «القدر» بالأمور التالية التي تحمل الوضوح في الرؤية والسلوك:

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

١ ـ الإيمان بالقدر خيره وشره من أركان الإيمان، وقد آمنوا بذلك.

٢ ـ ظلت هذه القضية في مكانها الصحيح، ميدان الاعتقاد ـ وفقاً لما أمرهم به ﷺ ـ والعقيدة مسلمات قد يرتقي العقل لفهم حكمتها، وذلك خير، وقد لا يُتاح له ذلك فتظل في دائرة التسليم.

٣ ـ جاءت الأحاديث الكثيرة تتحدَّث عن القدر، وكان سؤال الصحابة: أفلا نتكل؟ وكان جوابه ﷺ في كل مرة: «**اعملوا فكل مُيَسَّر لما خُلق له**»، فعملوا وعملوا... وانطلقوا بكلِّ الجد والاجتهاد محاسبين أنفسهم على كل وقت ضائع.

٤ ـ وبهذه الروح حملوا الدعوة إلى الناس، وانساحوا في شتى أنحاء الأرض.

٥ ـ وفي إطار الفهم الصحيح للقدر، أمكن توفير الطاقات الضائعة، وتوظيفها في إيجابية العمل لله في كل مجالات الحياة.

أكتفي بهذا القدر من الحديث عن هذا الركن من أركان الإيمان[1].

* * *

سادساً: تصحيح أخطاء بعض الوعَّاظ والخطباء:

ولما كان بعض الذين يعرضون لهذا الموضوع من الخطباء

---

(١) من المراجع المهمة في موضوع القدر:
كتاب: القضاء والقدر، لابن القيم، نشره المكتب الإسلامي.
رسالة الإمام عمر بن عبد العزيز في الموضوع، التي جاءت في: سنن أبي داود، برقم (٤٦١٢).

والوعاظ لا يحسنون الحديث عنه فيسيئون، كان من الضروري بيان خطئهم، وهو ما فعله الإمام ابن القيم، والشيخ محمد الغزالي، وإليك ما قالاه:

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

«الجهّال بالله وأسمائه وصفاته، المعطِّلون لحقائقها، يبغِّضون الله إلى خلقه، ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد إليه بطاعته، من حيث لا يعلمون، ونحن نذكر من ذلك أمثلة تحتذي عليها:

فمنها: أنهم يقررون في نفوس الضعفاء: أن الله سبحانه لا تنفع معه طاعة، وإن طال زمانها وبالغ العبد وأتى بها بظاهره وباطنه.

وأن العبد ليس على ثقة ولا أمنٍ من مكره، بل شأنه ـ سبحانه ـ أن يأخذ المطيع المتقي من المحراب إلى الماخور[1]، ومن التوحيد والمسبحة إلى الشرك والمزمار، ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلى الكفر.

ويروون في ذلك آثاراً صحيحة لم يفهموها، وباطلة لم يقلها المعصوم، ويزعمون أن هذا حقيقة التوحيد، ويتلون على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

ويقيمون إبليس حجة لهم على هذه المعرفة، وأنه كان طاووس الملائكة، وأنه لم يترك في السماء رقعة، ولا بقعة في الأرض إلا وله فيها سجدة أو ركعة، ولكن جنى عليه جاني القدر..

ويحتجون بقول النبي ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة،**

---

(١) **الماخور**: هو مكان اجتماع الفساق وأهل الفساد.

حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[١].

***

وهم بمنزلة إنسان جعل يقول لولده: معلمك إن كتبت وأحسنت.. ولم تعصِه ربما أقام لك حجة وعاقبك، وإن كسلت وتركت ما أمرك به ربما قربك وأكرمك!..

فيودع بهذا القول قلب الصبي ما لا يثق بعده إلى وعيد المعلم على الإساءة، ولا وعده على الإحسان.

وإن كبر الصبي وصلح للمعاملات، قال له: هذا سلطان بلدنا يأخذ اللصَّ من الحبس فيجعله وزيراً، ويأخذ المحسن فيخلده في الحبس!.. فإذا قال له ذلك أوحشه من سلطانه وجعله على غير ثقة من وعده ووعيده..

فأفلس هذا المسكين من اعتقاد كون الأعمال نافعة أو ضارة، فلا بفعلِ الخيرِ يستأنس، ولا بفعل الشر يستوحش.

وهل في التنفير عن الله وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا؟!.

ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين والتنفير عن الله، لما أتوا بأكثر من هذا.

وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر، ويرد على أهل البدع وينصر الدين، ولعمر الله! العدو العاقل أقل ضرراً من الصديق الجاهل.

(١) رواه البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٣٤).

وكتب الله المنزلة كلها ـ ورسله كلهم ـ شاهدة بضد ذلك، ولا سيما القرآن.

فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله ﷺ به الناس إليه، لصلح العالم صلاحاً لا فساد معه.

فالله سبحانه أخبر وهو الصادق الوفي: أنه إنما يعامل الناس بكسبهم، ويجازيهم بأعمالهم، ولا يخاف المحسن لديه ظلماً ولا هضماً، ولا يضيع عمل محسن أبداً، ولا يضيع على العبد مثقال ذرة، ولا يظلمها، وأنه يجزي بالسيئة مثلها، ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها.. ويضاعفها.

***

ولما سأله نوح نجاة ابنه، أُخبر أنه يغرقه بسوء عمله وكفره، ولم يقل: إني أغرقه بمحض مشيئتي وإرادتي بلا سبب ولا ذنب.

وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين في سبيله، ولم يخبر أنه يضلّهم ويبطل سعيهم، وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين الذي يتبعون رضوانه.

وأخبر أنه لا يضل إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وأنه إنما يضل من آثر الضلال واختاره على الهدى.

وأنه سبحانه لو علم في تلك المحالِّ التي حكم عليها بالضلال خيراً لأفهمها وهداها، ولكنها لا تصلح.

***

وأما المكر الذي وصف به نفسه، فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيِّئ بمكره الحسن، فيكون المكر منهم أقبح شيء، ويكون منه أحسن شيء، لأنه عدل ومجازاة.

وأما كون «**الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب..**»:

فإن هذا عَمِلَ عَمَلَ أهل الجنة فيما يظهر للناس[١]، ولو كان عملاً صالحاً مقبولاً للجنة قد أحبه الله ورضيه لم يبطله عليه.

* * *

وأما شأن إبليس: فإن الله ـ سبحانه ـ قال للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكبر والكفر والحسد ما لا يعلمه الملائكة، فلما أمروا بالسجود، ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد، فبادروا على الامتثال، وظهر ما في عدوِّه من الكبر والغش والحسد، فأبى واستكبر، وكان من الكافرين...» انتهى كلام ابن القيم باختصار[٢].

* * *

وقال الشيخ محمد الغزالي السقا:

«يستحيل شرعاً أن يسوي الله تعالى بين مؤمن وكافر، كما يستحيل شرعاً أن يدخل المؤمنين النار، ويدخل الكفار الجنة.

وفي طبيعة الجزاء الأعلى يقول الله تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦]، ويقول: ﴿أَمۡ حَسِبَ

---

(١) ما ذهب إليه الإمام ابن القيم هنا موجود نصّاً في الحديث المتفق عليه وهو: «**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة**» رواه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

فقوله: «**فيما يبدو للناس**» يبين أن العمل لم يكن كما ظهر للناس.

(٢) كتاب: الفوائد، للإمام ابن القيم، الفائدة (٩١).

ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

ومع ذلك: فإن البعض يريد أن يثير الخلل في هذه الموازين قائلاً: إن الله لا يسأل عما يفعل، وله أن يتصرف في ملكوته كيف يشاء.

وهذا حق أريد به باطل، وهو ينطوي على جهل بأمجاد الألوهية، وبأسماء الله الحسنى، وما يقول ذلك من يعرف أن الله هو الحميد، المجيد، الحكيم، الرحيم، العدل، المقسط.

إنه قادر، وواسع القدرة، وفي الكتاب العزيز: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾ [المائدة: ١٧].

بداهة: لا أحد يملك شيئاً لو أراد مالك الملك أن يهدمه على رؤوس الأنبياء والملائكة، ولكنه ﷻ ما أهلك نبيّاً، ولا ملكاً، وإنما أهلك الكفرة الفجرة وحدهم.

وعندما نفهم أنه يرد التائبين، ويقبل الفاسقين، لأنه لا يسأل عما يفعل، فنحن نعبث بالدين كله، وننسب إلى الرحمن الرحيم ما لا يليق به.

وهنا يرد الحديث المشهور(١) عن سبق الكتاب وأثره في مصائر العباد.

---

(١) المراد الحديث الوارد ذكره قبل قليل في كلام ابن القيم: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة...**».

والمعنى الصحيح لهذا الحديث يحتاج إلى بيان، ونرى أن نضرب مثلاً بين يدي المعنى المراد.

قد ينظر المدرس إلى طلابه نظرة فاحصة، ثم يصدر أحكاماً عليهم حسب ما يرى من ذكائهم وجهدهم، ويذكر أحكامه هذه لصديق له قد يرى في مظاهر الطلاب ما يغاير ذلك.

ويجيء الامتحان النهائي، وتظهر النتيجة، ويسأل أستاذ الفصل صديقه عن أحوال الطلاب، فيقول له هذا الصديق: لم يفلتوا من حكمك، أو نفذ فيهم رأيك، سقط من قدَّرت سقوطه، ونجح من قدَّرت نجاحه.

هل معنى هذه العبارات: أن علم الأستاذ بخبايا الطلاب الفكرية والخلقية هو الذي أحدث ما حدث؟ العبارات كلها مجازية، والجهد الدراسي وحده هو الذي أسقط من سقط، وأنجح من نجح.

على ضوء هذا المثال ندرك أن العلم المكتوب لا يعني الجبر الإلٰهي.. وأن عبارة «سبق الكتاب» لا تفيد إلا التنويه باستحالة تخلُّف هذا العلم لكماله، لا لشيء آخر.

ويؤسفني أن حديث: «سبق الكتاب» يذكر الآن في بعض المواعظ والدروس الدينية دون التأويل الواجب، وأن ناقليه يسهمون في عقيدة «الجبر» واليأس من قيمة العمل، والاتكال على حظوظ غائبة وغيوب مبهمة»[1].



(١) بحث (كلمات في القدر)، من كتاب (هموم داعية)، للشيخ محمد الغزالي، نشرته دار القلم بدمشق.

الإيمان بالغيب

بعد هذه الجولة مع أركان الإيمان، ينبغي لنا أن نقف مع أمر مهم من أمور الإيمان، وهو: الإيمان بالغيب، فقد قال تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣].

فجعل أول صفات المتقين: الإيمان بالغيب، ولا يتم الإيمان إلا به.

ولكن ما المقصود بالإيمان بالغيب؟.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره:

«وأما الغيب المراد هاهنا، فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد.

قال أبو العالية: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا كله غيب.

وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب النبي ﷺ: أما الغيب، فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن.

وقال عطاء بن أبي رباح: من آمن بالله فقد آمن بالغيب.

وقال زيد بن أسلم: الذين يؤمنون بالغيب، قال: بالقدر.

فكل هذه متقاربة في معنى واحد؛ لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به»[١].

---

(١) تفسير ابن كثير: عند الآيات الأولى من سورة البقرة.

وجاء في كتاب «زبدة التفسير من فتح القدير»[١]:

«والغيب كل ما أخبر به الرسول ﷺ مما لا تهتدي إليه العقول، من أشراط الساعة، وعذاب القبر، والنشر، والحشر، والصراط، والميزان، والجنة، والنار».

وجاء في تفسير «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» المعروف بتفسير السعدي:

«. . . . إنما الشأن في الإيمان بالغيب الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله، فهذا الإيمان الذي يُمَيَّزُ به المسلم من الكافر، لأنه تصديق محرر لله ورسله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه.

ويدخل في الإيمان بالغيب، الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها وإن لم يفهموا كيفيتها». اهـ.

* * *

تلك هي أقوال بعض المفسرين في معنى: **«الإيمان بالغيب»**، وكلها ـ إذا تفحصناها ـ يرجع إلى الأركان الستة ـ التي سبق ذكرها ـ وما يتعلق بها؛ فالإيمان بها هو الإيمان بالغيب.

والإيمان بالغيب يرتقي بالإنسان الذي كرمه الله فيجعله قادراً على تجاوز هذا العالم المحسّ إلى ما وراءه.

---

(١) للدكتور محمد سليمان الأشقر.

قال صاحب «الظلال» رحمه الله تعالى:

«والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس ـ أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس ـ وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي ـ وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير.

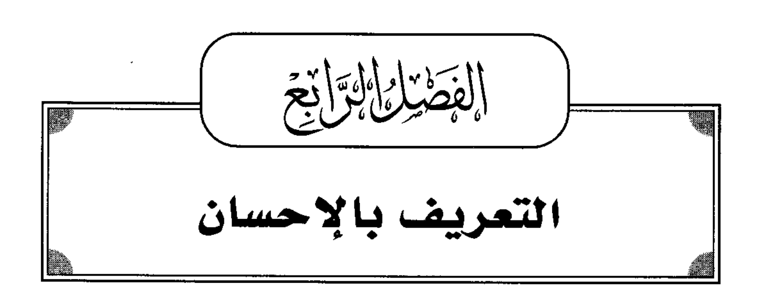
وعندئذ تُصان الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدُّد والتمزُّق والانشغال بما لم تخلق له، وما لم توهب القدرة للإحاطة به، وما لا يجدي شيئاً أن تنفق فيه..

ومتى سلَّم العقلُ البشري بالبديهية العقلية الأولى، وهي أن المحدود لا يدرك المطلق؛ لزمه ـ احتراماً لمنطق ذاته ـ أن يسلِّم بأن إدراكه للمطلق مستحيل، وأن عدم إدراكه للمجهول لا ينفي وجوده في ضمير الغيب المكنون، وأن عليه أن يكل الغيب إلى طاقة أخرى غير طاقة العقل، وأن يتلقى العلم في شأنه من العليم الخبير، الذي يحيط بالظاهر والباطن، والغيب والشهادة، وهذا الاحترام لمنطق العقل في هذا الشأن هو الذي يتحلَّى به المؤمنون»[1].



---

(١) في ظلال القرآن، عند تفسير الآيات الأولى من سورة البقرة.



الفصل الرابع

التعريف بالإحسان

جاء في حديث جبريل عليه السلام قوله: أخبرني عن الإحسان؟.

فقال ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**»(١).

***

قال الإمام ابن حجر رحمه الله:

«الجواب يتضمن حالتين:

أرفعهما: أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه، وهو قوله: «**كأنك تراه**».

الثانية: أن يستحضر أن الحق مطلع عليه، يرى كل ما يعمل، وهو قوله: «**فإنه يراك**».

وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته»(٢).

وقال الإمام النووي رحمه الله:

«فتقدير الحديث: فإن لم تكن تراه، فاستمر على إحسان العبادة، فإنه يراك».

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨ و٩ و١٠).

(٢) فتح الباري (١/ ١٢٠).

وقال: «هذا القدر من الحديث، أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصدّيقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها النبي ﷺ»[١].

* * *

هذه هي مكانة «الإحسان» حيث وصفه الرسول ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه...**»، وإذا علمنا أن «العبادة» في هذا الدين تشمل كل أعمال الإنسان، أدركنا مدى الإحاطة والشمول التي تتناولها هذه الكلمات القليلة، إنها البلاغة النبوية، وإنها لمن جوامع الكلم.

إنه الارتقاء إلى حالة من الصفاء والإخلاص بحيث تكون «العبادة» خالصة له تعالى، خالية من كل الشوائب.

والإحسان بهذا المعنى هو شعور الإنسان برقابة الله تعالى عليه، في كل ما يصدر عنه من: الأقوال، والأعمال، والنيات...

وهذا يستلزم منه يقظة دائمة في رقابة ما يصدر عنه، بحيث يكون «الصادر» أهلاً أن يوصف بـ «الإحسان».

وبهذا الوصف يكون مقبولاً عند الله تعالى، طبقاً لما جاء في قوله ﷺ:

«**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة**[٢]**، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبح، وليحدّ أحدكم شفرته فليرح ذبيحته**»[٣].

---

(١) فتح الباري (١/ ١٢٠).

(٢) القِتلة: هي هيئة القتل وطريقته.

(٣) رواه مسلم (١٩٥٥).

فينبغي أن يكون الإحسان في كل شيء، واختياره ﷺ «القتل» و«الذبح» لبيان الإحسان فيهما، هو في غاية الدقة والبيان ـ كيف لا وهو سيد البلغاء ـ فقد اختار ميداناً لا يتصور فيه الإحسان أصلاً، فبيَّن أن القتل الذي لا يكون فيه تعذيب للمقتول هو من الإحسان، والذبح الذي ليس فيه تعذيب للحيوان هو من الإحسان، وإذا استطاع الإسلام أن يوصل الإحسان إلى هذا الميدان؛ فإعماله في بقية المجالات من باب أولى.

ـ فالإحسان بالقول مطلوب، بل قد دعا القرآن الكريم إليه فقال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

ـ والإحسان بالعمل مطلوب، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[(١)]، وإحسان العمل جعله القرآن مناط النجاح في الابتلاء الذي كتبه الله على الناس، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فالمقصود من الابتلاء هو: ظهور إحسان الأعمال.

ـ وكان من دعائه ﷺ طلب التوفيق من الله تعالى لإحسان العبادة، فقد قال لمعاذ رضي الله عنه: «**أوصيك يا معاذ: لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنِّي على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»[(٢)].

فانظر إلى قوله ﷺ: «**وحسن عبادتك**»:

---

(١) مجمع الزوائد (٦٤٦٠).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٢).

إن الإحسان مطلوب في كل ميادين الحياة، ابتداء من كف الأذى عن الطريق، وانتهاء بالعبادة، كما رأينا.

* * *

وبعد: فما معنى الإحسان؟.

جاء في القاموس:

ـ الحُسْن ـ بالضم ـ: الجمال.

ـ والإحسان: ضد الإساءة، والحسنة: ضد السيئة.

ـ وهو يحسن الشيء إحساناً: أي يعلَمه.

ـ والحَسَنُ ـ محركة ـ: ما حَسُنَ من كل شيء.

وهكذا تجمع هذه المادة بين «**الجمال**» و«**الخير**» و«**العلم**»، وليس هناك من كلمة أخرى تقوم مقامها بهذا الأداء.

ولهذا اختارها الله سبحانه لتكون استحقاق الوالدين من الولد، عندما قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقد ترددت هذه الكلمة ومشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من سبعين ومئة مرة، مما له أكبر الدلالة على مكانة الإحسان عند الله تعالى.

* * *

وبما أن الإحسان إنما يتوصل إليه بالعبادة المؤداة بشعور المراقبة، فإن «الإخلاص» سيكون العنصر الأساسي فيه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«قد قيل: إن الإحسان هو الإخلاص.

والتحقيق: أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره، والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله تعالى، ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله تعالى.

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

فذكر إحسان الدين أولاً، ثم ذكر الإحسان ثانياً...»[١].

وواضح من كلام شيخ الإسلام أنه جعل «الإحسان» جامعاً لأمرين:

ـ كمال الإخلاص لله تعالى.

ـ الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله تعالى.

ويحسن بنا أن نفصِّل بعض التفصيل لبيان هذين الأمرين.

* * *

أما الأثر الأول الذي هو الإخلاص فبيانه: أن كل «شيء» ـ مادة كان أو معنى ـ يمكن أن يخالطه غيره من الشوائب، فإذا صفا عن هذه الشوائب وخلص منها سمي خالصاً، ويسمى المصفى المخلّص: «إخلاصاً»[٢].

وإذا أطلق الإخلاص بمعناه الإسلامي: فالمقصود أن يكون الباعث على العمل الذي يقوم به الإنسان: هو ابتغاء مرضاة الله

---

(١) الفتاوى (٧/ ٦٢٢).

(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي (٤/ ٣٧٩).

وحده، ولا يخالط هذا الباعث أي أمر آخر من شهوات النفس وغيرها.

وقد ورد الأمر بالإخلاص في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١٤].

وللتعرف على الإخلاص لابد من أمرين:

١ ـ التعرف على «النية» التي يكمن فيها سر الإخلاص.

٢ ـ تخليص هذه النية من الشوائب، والتعرف على هذه الشوائب حتى يحذرها المسلم ليكون في مأمن من أن يحبط عمله.

● **أما «النية»**، فالإمام النووي يقول: هي القصد، وهي عزيمة القلب.

وإذا رجعنا إلى السيرة النبوية وجدنا فيها ما يبين ذلك بوضوح:

فقد هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة من أجل إقامة شعائر دينهم، وهاجر معهم رجل لا يريد ما أرادوا، وإنما ليتزوج امرأة تسمى أم قيس، فكان يقال له: مهاجر أم قيس(١).

ولما بلغ الأمر رسول الله ﷺ قال: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى**

---

(١) فتح الباري (١/ ١٠)، وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

الله ورسوله، ومن هاجر إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته على ما هاجر إليه»(١).

فهناك مهاجران، كل منهما ترك بلده وأرضه التي نشأ فيها، وأهله ومحبيه وجيرانه، وقطع المسافة بين مكة والمدينة في ظروف صعبة، ثم استقر في المدينة:

- ولكن الأول فعل ذلك بدافع إقامة شعائر الله تعالى.
- وفعل الثاني ذلك بدافع الوصول إلى امرأة يتزوجها.

فالعمل الذي قام به الرجلان واحد.

ولكن الباعث والدافع مختلف.

هذا الدافع والباعث هو ما سمَّاه الرسول الكريم ﷺ: **«النية»**.

فالنية لدى الأول متفقة مع العمل الذي قام به، فكان مهاجراً بحق.

بينما كانت النية لدى الآخر غير متطابقة مع ما شرعت الهجرة له، فلم يكن له من فضل الهجرة شيء.

وإذا فهمنا المعنى الذي أوضحه الحديث، فلا يهمنا ـ بعد ذلك ـ أمر التعريفات.

● **أما الشوائب**: التي قد تطرأ على النية، فتشوِّه جمالها، وتعكِّر صفاءها، فهي كثيرة، ومهمة «الإخلاص» هو تخليصها مما تسرّب إليها، والمحافظة على نقائها، وهو أمر يحتاج إلى جهد غير قليل.

ومن هذه الشوائب:

---

(١) رواه البخاري (٦٩٥٣)، ومسلم (١٩٠٧).

١ ـ **الرياء**: وهو أن يطلب الإنسان بالعبادة ـ أو العمل ـ المنزلة في قلوب الناس! وهو من صفات المنافقين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وهو الشرك الأصغر، كما قال ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله ﷻ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء؟!**»[(١)].

وقال ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»[(٢)].

والأحاديث في هذا كثيرة.

٢ ـ **رغبات النفس**: وقد لا يقوم الإنسان بالعمل ليراه الناس، ولكنه مع ذلك يرغب في التزين عندهم، بطلب مدحهم، أو الهرب من ذمهم.

ويدلنا على هذه الرغبات، أسئلة الصحابة ﷺ المتكررة في هذا الصدد.

فعن أبي هريرة ﷺ: أن رجلاً قال: يا رسول الله! رجل يريد الجهاد في سبيل الله، وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «**لا أجر له**»، فأعظم ذلك الناس، وقالوا للرجل: عُدْ

---

(١) أخرجه أحمد، والبيهقي، ورجاله ثقات، قاله العراقي في: تخريج الإحياء.
(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

إلى رسول الله ﷺ فلعلك لم تفهمه، فقال: يا رسول الله! رجل يريد الجهاد في سبيل الله، وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا، فقال: «**لا أجر له**»، فقالوا للرجل: عُدْ لرسول الله ﷺ. . . فقال له في الثالثة: «**لا أجر له**»[1].

والحديث يبين لنا الصورة واضحة جلية، كيف كان حرص الصحابة رضي الله عنهم أن يكون جوابه ﷺ غير ما أجاب به، ولذلك طلبوا من الرجل أن يعود مرة بعد مرة ليكرر السؤال لعله يجد جواباً آخر.

والصحابة بشر من البشر، لهم رغبات، ولهم شهوات. . ولكنهم كانوا يسمعون كلام رسول الله ﷺ فيخضعون رغباتهم وشهواتهم لما يطلبه الله وما يطلبه رسوله منهم.

وإذا كان هذا السائل قد خصَّ سؤاله بعرض الدنيا المادي، فهناك سائل آخر نوَّع المسألة، فتناول ما يرغب به الناس عادة من مادة ومن معنى.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال أعرابي للنبي ﷺ: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، ويقاتل ليرى مكانه ـ وفي رواية: يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء ـ فأي ذلك في سبيل الله؟.

فقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[2].

أي ليس شيء مما ذكر في سبيل الله.

---

(١) رواه أبو داود (٢٥١٦)، والنسائي مثله عن أبي أمامة (٣١٤٠).

(٢) رواه البخاري (٣١٢٦، ٧٤٥٩)، ومسلم (١٩٠٤).

وهكذا ومن خلال أحاديثه ﷺ وبيانه، تعلّم الصحابة كيف يكون الإخلاص، وكيف يجاهدون نفوسهم، ويقاومون نزعاتها حتى يصلوا إلى صفاء العمل. . .

• والإخلاص من أعمال القلب، ولهذا فأمره مرتبط بصاحب العمل نفسه، وهو الذي يحكم على نفسه بالإخلاص أو عدمه، وليس هناك مقياس بأيدي الناس يقيسون به إخلاص شخص ما، إنما مردّ ذلك له، فهي قضية تخصه أمام الله سبحانه[(١)].

* * *

وأما الأمر الثاني الذي اعتبره شيخ الإسلام طريقاً «للإحسان» فهو الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله تعالى.

ولبيان ذلك يحسن بنا أن نعود إلى القرآن الكريم، لنقف على الأمور التي ذكر الله ـ سبحانه ـ أنه يحبها، ونكتفي بما جاء مصرحاً به بلفظ: «الحب».

قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

---

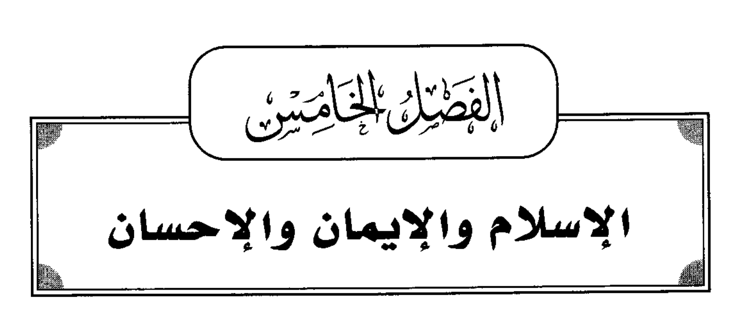
(١) فقرة الإخلاص هذه عن كتاب: من معين الشمائل، للمؤلف، ص (١٦٠ ـ ١٦٦) باختصار، نشره المكتب الإسلامي.

وقال تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٤].

فالإحسان، والتوبة، والطهارة، والتقوى، والصبر، والتوكل، والعدل، والجهاد في سبيل الله، كلها من محابّ الله تعالى، وكلها أفعال حسنة، فمن اتصف بها فهو في مقام الإحسان.





الفصل الخامس

الإسلام والإيمان والإحسان

تلك هي الأصول التي يقوم الدين عليها، وقد سبق الحديث عنها.

وهناك سؤال يطرح نفسه، وهو: ألا يُكتفى بالأول منها حتى يكون المرء مسلماً، وتكتب له النجاة بذلك في الآخرة؟.

وللجواب على هذا السؤال، لابد من التذكير ببعض ما مضى.

فقد جاء في حديث جبريل قوله ﷺ: «**إنه جبريل، أتاكم يعلّمكم دينكم**».

فجعل ﷺ: الإسلام والإيمان والإحسان، هي الدين.

فهذه الثلاثة لابد منها لكل من رضي بالإسلام ديناً، وهي من التشابك مع بعضها والتلازم بحيث لا يتصور كون المسلم مسلماً إذا كان مكتفياً بالأول منها.

إن الشطر الأول من أركان الإسلام وهو: «شهادة أن لا إلـه إلا الله»، لابد أن يستكمل حقيقته بوجود الركن الأول من أركان الإيمان، وهو: «الإيمان بالله».

فإذا قال الإنسان: «أشهد أن لا إلـه إلا الله»، ولم يكن مؤمناً بحقيقة معناها ـ أي: لم يكن محققاً للركن الأول من أركان الإيمان ـ كان منافقاً.

وكذلك «شهادة أن محمداً رسول الله»، لا يكون إعلانها كافياً إذا لم يكن قائلها مؤمناً بالرسل ومن جملتهم رسول الله، وهكذا فالشطر الثاني من الشهادتين يستكمل حقيقته بالركن الرابع من أركان الإيمان، وهو «الإيمان بالرسل».

مصداق هذا قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

فهم كاذبون ـ وإن كان قولهم مطابقاً للحقيقة ـ لعدم اعتقادهم بذلك.

وبهذا يتبين الارتباط الوثيق بين الإسلام والإيمان.

* * *

ويترتب على الإسلام والإيمان أعمال لابد من القيام بها، ولابد أن تكون خالصة لله، وقد رأينا أن «الإحسان» يقتضي أن تعبد الله كأنك تراه.. وهذا لا يكون إلا بإخلاص النية والقصد.

وحينما تكون «النية» مشوبة وغير خالصة، أو غير متساوقة مع ظاهر العمل أصلاً ـ كما في مهاجر أم قيس ـ فإن ذلك يفسد العمل.

وهذا ما يوضح صلة «الإحسان» بـ «الإسلام والإيمان».

* * *

وإذا كانت الأواصر وشيجة بين هذه الأصول إلى هذه الدرجة، فلماذا هذا التقسيم؟.

أقول: تقرر فيما سبق أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي.

فالمسلم يظلُّ مسلماً ما دام في قلبه «الإيمان» الذي يفرق بينه وبين المنافق، فإذا أكبّ على الطاعات واجتنب المعاصي فإنه يترقى في الإيمان حتى يبلغ الدرجات العلا فيه.. فيكون مؤمناً.. وقد جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون ـ أو بضع وستون ـ شعبة، فأفضلها: قول لا إلٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[1].

وإذا خلت هذه الأعمال التي يقوم بها المؤمن من الشوائب، وكانت تحت المراقبة، وفي ظلال «**فإنه يراك**» ارتقى إلى درجة الإحسان.

ويكون عندها كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه: كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه..**»[2].

إن قوله: «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**» توضح حال العبد عندما يكون مؤهَّلاً ليكون من أهل الإحسان: «... **أن تعبد الله كأنك تراه..**».

***

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

---

(١) رواه مسلم (٣٥).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).



«جعل النبي ﷺ الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليه الإسلام.

فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسناً، ولا كل مسلم مؤمناً»[١].

وهذا كلام صحيح باعتبار النظرة الكلية، فمن كان في درجة الإحسان فلا شك بأنه استكمل درجة الإيمان أو قارب.

ولكن هذا لا يعني أبداً أن المسلم الذي لم نطلق عليه كلمة «مؤمن» أنه خالٍ من الإيمان، وأن أعماله ليس فيها إحسان، بل عنده شيء من كل منهما، ولكن هذا الشيء لا يؤهله لحمل اسم تلك الدرجة.

* * *

وكما أن الطاعات ترتقي بالمسلم من الإسلام إلى الإيمان، ثم إلى الإحسان، فإن الذنوب تسبب الحركة المقابلة، وهي حركة الهبوط.

ويسجل لنا الإمام ابن القيم هذه الحركة فيقول:

«ومن عقوبات الذنوب أنها تخرج العبد من دائرة «الإحسان»، وتمنعه من ثواب المحسنين، فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه، لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده.

فإذا خرج من دائرة «الإحسان».. فإن أراد الله به خيراً أقره في دائرة عموم المؤمنين.

---

(١) الفتاوى (٧/ ٧).

فإن عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة «الإيمان» كما قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[١] فاتته رفقة المؤمنين، وخرج من دائرة الإيمان، وخسر دفاع الله عن المؤمنين، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وفاته كل خير رتّبه الله في كتابه على الإيمان، وهو نحو مئة خصلة.

وكل خير في الدنيا والآخرة فسببه الإيمان، فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئاً يخرجه من دائرة الإيمان، ويحول بينه وبينه، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين.

فإن استمر على الذنوب، وأصر عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية...»[٢].

وقال الإمام ابن تيمية في تعليقه على حديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»:

«نقول: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق - أي اسم: مؤمن - ولا يسلب مطلق الاسم»[٣].

***

قال الإمام ابن القيم:

«وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل يوافق فيه الإسلامُ الإحسانَ.

والله تعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الإسلام على ظواهرهم،

---

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

(٢) الجواب الكافي، للإمام ابن القيم، الفصل (٣٠).

(٣) الرسالة الواسطية.

وحقائق الإيمان على بواطنهم، ولا يقبل واحد منهما إلا بصاحبه وقرينه.

وفي المسند مرفوعاً: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**».

فكل إسلام ظاهر، لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة، فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن.

وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة، لا تنفع ولو كانت ما كانت.

فلو تمزق بالمحبة والخوف، ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع، لم يُنجه ذلك من النار.

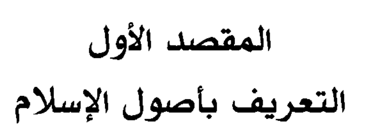
كما أنه لو قام بظواهر الإسلام، وليس في باطنه حقيقة الإيمان، لم يُنجه ذلك من النار»[١].

وخلاصة القول: إن الإسلام والإيمان والإحسان هي «الدين»، والترابط بينها وثيق، وللطاعات والمعاصي أثرها في ازدياد الإيمان ونقصانه.



(١) الفوائد، الفصل (٧٧).




المقصد الأول
التعريف بأصول الإسلام

الباب الثالث

في معرفة الرسول ﷺ

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾

[الفتح: ٢٩]

تمهيد

بعث الله أنبياءه ورسله إلى خلقه لهدايتهم وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وكان آخرهم رسولنا محمد ﷺ.

ومعرفة سيرته وهديه واجب في حق كل مسلم.

إذ عن طريقه وصلنا هذا الدين العظيم.

وعن طريقه كانت معرفتنا «بالله تعالى» إلٰهاً، وربّاً، وخالقاً..

وعن طريقه تلقَّيْنا القرآن الكريم، كلام الله تعالى، الذي نزل به جبريل على قلبه ﷺ.

وعن طريقه تعرفنا الأخلاق الفاضلة دروساً عملية من شخصه الكريم..

وعن طريقه تعلمنا كيفية أداء العبادات..

وعن طريقه...

وفي هذا الباب أحاول استعراض جانب من سيرته العطرة.. بما يتناسب مع الموضوع المطروح، وبالإيجاز المطلوب، وسيكون ذلك في فصول:

الأول: وفيه بيان أنه ﷺ صاحب الرسالة الخاتمة.

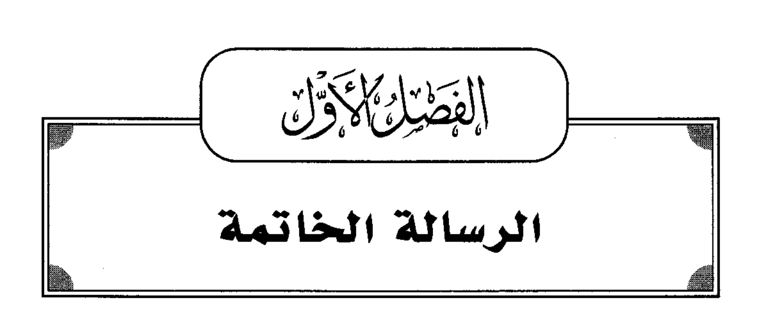
الثاني: وفيه بيان كمال خَلقه وخُلقه.

الثالث: وفيه أنه ﷺ هو المبيّن للقرآن الكريم.

الرابع: وفيه تلخيص لسيرته ﷺ وأقوال بعض الدارسين لها.

الخامس: وفيه بيان السبيل إلى معرفة سيرته ﷺ.





الفصل الأول

الرسالة الخاتمة

سبق الحديث عن الأنبياء والرسل، وكيف أن الله سبحانه أرسلهم لهداية البشرية، فلم تخلُ أمة من رسول، أو نبي يرشدها لما يصلح دنياها وآخرتها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

واختار الله سبحانه وتعالى سيدنا محمداً ﷺ ليكون آخر الأنبياء، وختم به الرسالات والنبوات، كما نصَّ على ذلك في كتابه العزيز، فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قال ابن كثير رحمه الله:

«فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بالطريق الأَوْلى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس.. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم».

ومن هذه الأحاديث ما جاء في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن مثلي ومَثَل الأنبياء من قبلي، كمَثَل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل**

الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلَّا وضعت هذه اللبنة! قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[(١)].

فكل مدَّعٍ للنبوة بعده ﷺ كاذب أفَّاك، وقد جاء في الحديث الصحيح: أنَّ عدداً من الناس سيدَّعي ذلك، قال ﷺ: «**ولا تقوم الساعة حتى يبعث**[(٢)] **دجالون كذابون قريباً من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله**»[(٣)].

وهكذا وضَّح رسول الله ﷺ الأمر حتى يكون الناس على بيّنة من أمرهم، ومن كان مع القرآن والسنة فلن يضلّ.

* * *

ولما كان ﷺ خاتماً للنبوات، فقد جعل الله رسالته عامة للناس كلهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وهذه خصوصية تميَّزَ بها ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه، فقد بُعِثَ كل نبي إلى قومه، وبعث ﷺ إلى الناس جميعاً.

أخرج مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**فُضّلت على الأنبياء بستٍّ: أعطيت جوامع الكلم، ونُصِرْتُ**

---

(١) رواه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

(٢) هذا في الصحيحين، وفي رواية الحميدي: «**حتى ينبعث**».

(٣) رواه البخاري (٣٦٠٩)، ومسلم (١٥٧م).

بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيُّون»(١).

وفي الصحيحين: من رواية جابر رضي الله عنه: «**وكان النبيُّ يبعث إلى قومه خاصة، وبعثتُ إلى الناس عامة**»، ولفظ مسلم: «**وبعثت إلى كل أحمر وأسود**»(٢).

ولم تكن رسالته ﷺ للإنس وحدهم، بل للإنس والجن، وهم مكلفون مثلهم مثل الإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

إن هذه النصوص ـ وغيرها كثير ـ تثبت عموم رسالته ﷺ، وانفراده بذلك من بين الأنبياء والرسل جميعاً.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

* * *

ولما كان ﷺ خاتم النبيين، وكانت رسالته عامة للإنس والجن، فقد كانت المعجزات التي أجريت على يده أظهر وأكثر من معجزات الأنبياء السابقين، بل كانت له المعجزة العظمى والآية الكبرى الباقية إلى أن يرث الله الدنيا ومن عليها، وهي القرآن الكريم، الذي ما زالت معجزاته تتوالى مع مرور الأيام.

---

(١) رواه مسلم (٥٢٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

إنها معجزة تتناسب بدوامها مع الرسالة العامة.

ونسخت شريعته الشرائع السابقة جميعها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

* * *

وهو ﷺ ـ بما حباه الله من هذه الفضائل التي لم يكن لغيره مثلها ـ أفضل الخلق بما في ذلك الأنبياء والرسل.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال ﷺ: «**أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة**»(١)، وإذا كان ﷺ سيّدهم يوم القيامة فمن باب أولى أن يكون سيّدهم في الدنيا، ولم يقل ذلك تفاخراً وتكبراً، وإنما بياناً للواقع الذي ينبغي على كل مسلم أن يعتقده، كما جاء ذلك في رواية الترمذي: «**أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»(٢).

وكيف لا يكون أفضل الخلق، وهو الذي رفعه الله تعالى ليلة المعراج فجعل درجته فوق الأنبياء كلهم.

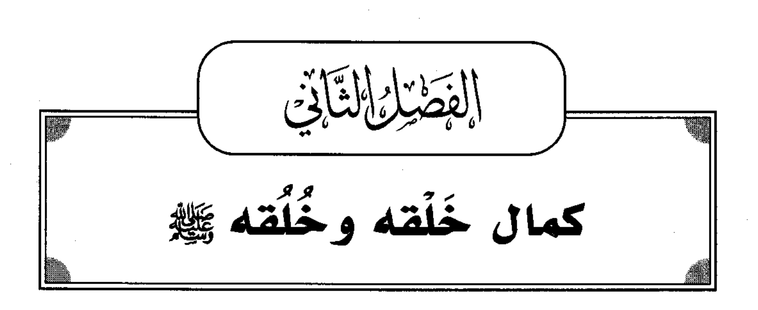
ودلائل أفضليته أكثر من أن تُحصى، فهو صاحب الشفاعة العظمى، والمقام المحمود، والحوض المورود.

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨).

(٢) رواه الترمذي (٣١٤٨، ٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨).



الفصل الثاني

كمال خَلْقه وخُلُقه ﷺ

لقد منح الله سبحانه محمداً ﷺ صفات الكمال خَلقاً وخُلقاً.

أما الصورة والشكل فما كانت الكلمة لتستطيع نقلها، وإنما هي للتقريب، وليس هناك أحد من الصحابة نقل لنا وصفاً كاملاً لصورته ﷺ، وذلك لما كان له من الهيبة والتوقير، فقد قال عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو يحاول وصفه:

«وما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه»[1].

وإنما كان وصفه يأتي عرضاً على لسان الصحابة أثناء نقلهم لحديثه ﷺ، وأذكر بعض ما ورد من ذلك في الصحيحين أو أحدهما:

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: «كان ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير».

وفي رواية له: «كان مربوعاً، بعيد ما بين المنكبين، له شعر يبلغ شحمة أذنيه».

---

(١) رواه مسلم (١٢١).

وفي رواية: «كان وجهه مثل القمر»[(١)].

وعن أبي الطفيل رضي الله عنه قال: «كان أبيض، مليح الوجه»[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما مسست حريراً، ولا ديباجاً ألين من كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحاً قط، أو عرفاً[(٣)] قط أطيب من ريح أو عرف النبي ﷺ»[(٤)].

وهذه الأحاديث وغيرها كثير، كلها تؤكد جمال صورته ﷺ، فهو من حيث الطول وسط؛ فلا هو بالطويل البائن، ولا هو بالقصير، ومن حيث اللون فهو في بياض وسط؛ أي أزهر اللون، وكذلك شعره وسط؛ فلا هو بالجعد ولا بالسبط.

ولا يكون الجمال إلا إذا تناسقت الأعضاء بعضها مع بعض، كما هو شأنه ﷺ، وهو ما تؤكِّده الروايات التي تحدثت عن وصفه ﷺ.

* * *

«وأما حسن خُلقه ﷺ، فقد كانت فيه الأخلاق الحميدة، والآداب الشريفة جميعها على الانتهاء في كمالها، والاعتدال في غايتها، حتى أثنى الله عليه بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]»[(٥)].

«ويعجز كل قلم، ويعجز كل تصور، عن وصف قيمة هذه الكلمة

---

(١) رواه البخاري (٣٥٤٩، ٣٥٥١، ٣٥٥٢)، ومسلم (٢٣٣٧).

(٢) رواه مسلم (٢٣٤٠).

(٣) **العرف**: الرائحة.

(٤) رواه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢٣٣٠).

(٥) حدائق الأنوار، لابن الديبع الشيباني (٢/ ٨٢٢).

العظيمة من رب الوجود، وهي شهادة من الله في ميزان الله لعبد الله، يقول له فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ومدلول الخلق العظيم هو ما عند الله، مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين»(١).

إنه النبي الذي ختمت به النبوة، وكمل به بنيانها، فلا غرابة أن يكون به كمال مكارم الأخلاق، بل ذلك أمر من لوازم ختم النبوة.

وهذا ما قرره ﷺ بقوله: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(٢).

فسلوكه ﷺ وخلقه وتصرفه، هو المقياس الذي يُرجع إليه في تقويم الأعمال والتصرُّفات.

وأخلاقه ﷺ هي المقياس الذي تقاس به الأخلاق، لأنها كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»(٣).

إنها جملة قصيرة، ولكنها تغني عن سجل كبير؛ ففي القرآن أوامر مطلوب فعلها، وفيه نواهٍ مطلوب الابتعاد عنها، وفيه فضائل دعي الناس إلى القيام بها، وفيه ذكر لفواحش طلب الابتعاد عنها.

قال البيضاوي: «أي جميع ما حصل في القرآن، فإن كل ما استحسنه وأثنى عليه ودعا إليه، قد تحلَّى به، وكل ما استهجنه ونهى عنه، تجنبه وتخلى عنه»(٤).

فمن أحب أن يعرف خلق رسول الله ﷺ فعليه بالقرآن.

---

(١) في ظلال القرآن، عند تفسير الآية المذكورة.

(٢) ذكره ابن كثير في: البداية والنهاية (٦/ ٣٥)، وقال في مختصر المقاصد الحسنة: صحيح.

(٣) رواه مسلم (٧٤٦).

(٤) شرح الفتح الرباني، للبنا (٢٢/ ١١).

وقد نقل لنا الصحابة الكرام الكثير الكثير من تصرفاته ﷺ اليومية التي تبين لنا عظيم أخلاقه من صدق ووفاء، وكرم وشجاعة، وحلم وعدل، وورع ورحمة، وتواضع وحياء، وإحسان وبرّ، وشفقة وعفو... مما لا مجال في هذا المقام لذكر أمثلة عنه[1].

ولكني أختم هذه الفقرة، بما قاله أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً»[2].

وقد صحب أنس النبي ﷺ عشر سنوات يخدمه، ليلاً ونهاراً، وقد رآه عن كثب، وفي كل أحواله، فلخص ما رآه بهذه الكلمات القليلة.

فهو «أحسن الناس»، أحسن الناس في كل ميدان من ميادين الحياة، وفي التعامل مع الناس.

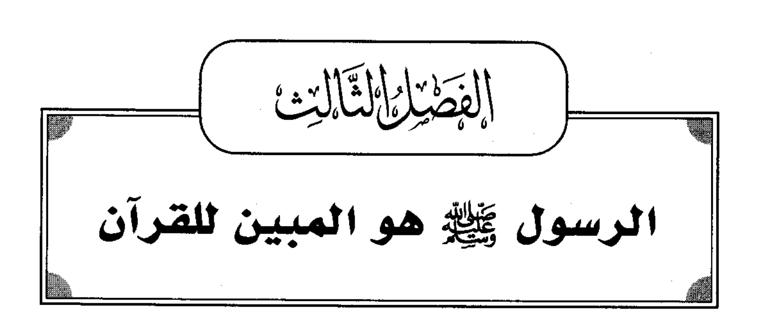
وقد تكلم كثير من الصحابة رضي الله عنهم بما يشبه ما قاله أنس.



---

(١) انظر ـ إن رغبت ـ تفصيل ذلك في كتاب: من معين الشمائل، للمؤلف، نشره المكتب الإسلامي.

(٢) رواه مسلم (٢٣١٠).



الفصل الثالث

الرسول ﷺ هو المبين للقرآن

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

تقرر هذه الآية الكريمة أن مهمة الرسول ﷺ هي بيان هذا الكتاب العظيم الذي أنزله الله تعالى على قلبه.

وطريقة هذا البيان ليست مقيدة بقيد، فهي حرة طليقة، يمكن أن تكون بالقول، ويمكن أن تكون بالعمل، ويمكن أن تكون بهما.

وهكذا كانت حياته ﷺ البيان الحي المتحرك في واقع الحياة، لقد كانت مهمته بيان المنهج الإلٰهي من خلال شخصه الكريم.

وهي نعمة من أجلِّ النعم التي تفضَّل الله بها على عباده أن جعل هذا البيان من خلال شخصه الكريم ﷺ فيعيشه الناس واقعاً عمليّاً، فيثبت في أفكارهم وقلوبهم وأسماعهم، تراه أبصارهم، وتعيه عقولهم، فتشترك جميع الحواس في استيعابه وإدراكه.

«ومن ثم كانت حياة الرسول ﷺ معروضة لأنظار أمته، وسجّل القرآن ـ كتاب الله الثابت ـ المعالم الرئيسة في هذه الحياة بأصغر تفصيلاتها وأحداثها، بوصفها تلك الصفحة المعروضة لأنظار أمته على مدار السنين والقرون، ومن هذه التفصيلات حياته المنزلية

والشخصية، حتى خطرات قلبه سجلها القرآن في بعض الأحيان، لتطَّلع عليها الأجيال، وترى فيها قلب ذلك النبي الإنسان»[1].

إنه «عندما جرى قدر الله أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة، وأن يجعل منهجه هو المنهاج الباقي إلى آخر الخليقة..

جرى - قدر الله - كذلك باختيار رسولها ﷺ إنساناً تتمثل فيه هذه العقيدة بكل خصائصها، وتتجسَّم فيه بكل حقيقتها، ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها؛ إنساناً قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها، ضليع التكوين الجسدي، قوي البنية، سليم البناء، صحيح الحواس، يقظ الحس، يتذوق المحسوسات تذوُّقاً كاملاً سليماً، وهو في ذات الوقت ضخم العاطفة، حي الطبع، سليم الحساسية، يتذوق الجمال.

وهو في الوقت ذاته كبير العقل، واسع الفكر، فسيح الأفق، قوي الإرادة، يملك نفسه ولا تملكه!.. ثم هو بعد ذلك كله، النبي الذي تشرق روحه بالنور الكلي، والذي تطيق روحه الإسراء والمعراج، والذي ينادى من السماء، والذي يسلِّم عليه الحصى والحجر، ويحن له الجذع، ويرتجف به أُحد - الجبل -... ثم تتوازن في شخصيته هذه الطاقات كلها، فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التي اختير لها.

ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتاباً مفتوحاً لأمته وللبشرية كلها، تقرأ فيه صورة هذه العقيدة، وترى فيه تطبيقاتها الواقعية، ومن ثم لا يجعل فيها سرّاً مخبوءاً، ولا ستراً مطلوباً، بل يعرض جوانب

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٦١)، في تفسير سورة يسۤ.

كثيرة منها في القرآن، ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس في حياة الإنسان العادي، حتى مواضع الضعف البشري الذي لا حيلة فيه لبشر، بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد في كشف هذه المواضع في حياة الرسول ﷺ للناس.

إنه ليس له في نفسه شيء خاص، فهو لهذه الدعوة كله، فعلام يختبئ جانب من حياته ﷺ أو يخبأ؟.. إن حياته هي المشهد المنظور القريب، الممكن التطبيق من هذه العقيدة، وقد جاء ﷺ ليعرضها للناس في شخصه، وفي حياته، كما يعرضها بلسانه وتوجيهه، ولهذا خلق، ولهذا جاء»[1].

تلك هي الشخصية الفذة التي اختارها الله لتكون البيان لهذا الكتاب العظيم.

إنه صاحب الخلق العظيم.

رسول الله، يبين كتاب الله.

***

وفي ضوء ما تقدم نقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فالله ﷻ يوجّه في كل من الآيتين الكريمتين أنظار المؤمنين وأسماعهم إلى شخص رسول الله ﷺ ليكون التلقي عن طريقه.

---

(١) في ظلال القرآن، مقدمة سورة التحريم (٦/ ٣٦٠٩).

وتقرر الآية الأولى: وجوب الانصياع لتطبيق أوامره، واجتناب ما نهى عنه.

قال ابن كثير في تفسيرها: «أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر».

وقال ﷺ: «**إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم**»(١).

وهكذا فإن الآية الكريمة تقرر دائرة العمل الإلزامي، دائرة الفرض والواجب.

بينما تقرر الآية الثانية أصلاً عظيماً من أصول هذا الدين، وهو التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله.

ولهذا كانت دائرة العمل فيها أوسع مما تقرره الآية الأولى.

ومعنى التأسِّي: اتباع الأقوال والأفعال في كل صغيرة وكبيرة، في العادات والعبادات، في الفروض والنوافل، في العمل وفي طريقة أدائه،في القول، وبالطريقة التي أدي بها هذا القول، إنه التأسي بالمضمون والشكل.

* * *

وهكذا ظلت أبصار الصحابة رضي الله عنهم، وأسماعهم مشدودة إلى الرسول ﷺ لاستيعاب ما يصدر عنه، سواء أكان ذلك في دائرة الأمر والنهي، أو في دائرة التأسي المندوب إليه.

ونقلوا لنا ذلك: ما كان من قول بالقول، وما كان عملاً بالعمل والتطبيق.

---

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

وبما أن معظم العبادات لابد أن يكون تلقيها عمليّاً.. كما أمر الرسول ﷺ..ظلت أجيال المسلمين تتناقلها عمليّاً.

فقد قال ﷺ: «**صلُّوا كما رأيتموني أصلي**».

وقال: «**خذوا عني مناسككم**».

وتعلّموا منه ﷺ الوضوء، والطهارة، وأوقات الصلوات...



من هنا كانت صلة المسلم بالرسول ﷺ، صلة يومية في صلاته، وطهارته، وطريقة أكله، وسلامه، ونومه، وأدعيته...

إن معرفة المسلم بنبيه تكاد تكون حتمية في كثير من شؤون دينه وحياته، لأنه بغير هذه المعرفة لا يستطيع القيام بواجباته.

۞ ۞ ۞

الفَصْلُ الرَّابِعُ

خطوطٌ عريضةٌ من سِيرته ﷺ وأقوالُ بعض الدارسين لها

وضعتُ في هذا الفصل ـ في الطبعة الأولى من هذا الكتاب ـ الخطوط العريضة لأحداث السيرة النبوية الشريفة حسب تسلسلها الزمني، وقصدتُ من ذلك إلى بيان الجهد المبذول منه ﷺ في سبيل الدعوة إلى الله تعالى.

فمع بدء الدعوة في مكة مارس المشركون عملية التنكيل بأتباعه ﷺ، حتى مات بعضهم تحت التعذيب، وحتَّى اضطر بعضهم إلى الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم، ثم كان الحصارُ الاقتصاديُّ الذي استمرَّ ثلاث سنوات. . ثم كان موتُ أبي طالب وبعده خديجة رضي الله عنها الأمر الذي أتاح للمشركين أن ينالوا منه ﷺ ما لم يقدروا عليه من قبل، ثم كان الذهاب إلى الطائف حيث أصابه من الأذى ما هو معلوم، ودعا دعاءه المشهور. . .

ثم كانت الهجرة إلى المدينة.

وفي المدينة عمل ﷺ جاهداً على إقامة الأمن في المدينة، ولكنَّ المشركين الذين رَمَوْه عن قوسٍ واحدةٍ لم يكونوا ليتيحوا له شيئاً من الراحة، ولهذا كثرتْ غزواته حتى بلغت خمساً وعشرين، وتعددت سراياه وبعوثه حتى قاربتِ الستين، ولنا أن نتخيَّل هذا «الكمَّ» الكبير

من الحركة الجهادية في مدة لا تزيد عن عشر سنين؛ فما كان النبي ﷺ ينتهي من مهمة، حتى يسمع بتجمُّع يريد المدينة.. فينطلق لمواجهته.

لقد كانتِ الأحداثُ متتابعةً متسارعة.. وممّا زاد في معاناة المسلمين نشوء جماعة المنافقين بعد غزوة بدر.

ومع كلِّ هذا الضغط من الأعمال في تسيير الأمور داخل المدينة وخارجها؛ فإنه ﷺ قائم بأمر الدعوة من تربية المسلمين، وتبليغهم ما ينزل عليه من آيات الذكر الحكيم.

إننا عندما نقرأ السيرة العطرة، ونتصوَّر تلك الأحداث الجسام التي مرَّت به ﷺ؛ نستطيع أن نقدِّر حجم الجهد المبذول ـ إن استطعنا ـ في سبيل إيصال هذا الدين إلينا.

إنه جهد عظيم عظيم، لا يعلمه إلا الله.. استحقَّ به النبي ﷺ ذلك التكريم الإلـهي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

***

هذه خلاصة ما أردتُ بيانَه ممَّا ورد في الطبعة الأولى، وهو أمر يستطيع الوصول إليه كلُّ قارئ للسيرة في أيِّ كتاب من كتبها بيُسر وسهولة، ولذا رأيتُ في هذه الطبعة ـ الثانية ـ أنْ أعرض نماذجَ من أقوال دارسي السيرة من الغربيين، وخلاصة ما توصَّلوا إليه، علماً بأن هذه الدراسات أدَّت ببعضهم إلى إعلان إسلامهم.. وكلُّ قول من هذه الأقوال يعرض جانباً من سيرة صاحب الخلق العظيم بحسب ما توصل إليه كلُّ دارس.

وإليك أخي الكريم بعض هذه الأقوال:

***

١ ـ قال مايكل هارث:

«إنَّ محمداً [ﷺ] كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي.. إن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معاً، يخوِّله أن يعتبر أعظم شخصية ذات تأثير في تاريخ البشرية»[١].

* * *

٢ ـ وقال واشنجتون ايرفنج:

«لقي الرسولُ [ﷺ] من أجل نشر الإسلام كثيراً من العناء، وبذل عدةَ تضحيات، فقدَّ شك الكثير في صدق دعوته، وظلَّ عدة سنوات دون أن ينال نجاحاً كبيراً، وتعرَّض خلال إبلاغ الوحي إلى الإهانات والاعتداءات والاضطهادات، بل اضطر أن يترك وطنه، ويبحث عن مكان يهاجر إليه هنا وهناك، وتخلَّى عن كلِّ متع الحياة، وعن السعي وراء الثراء من أجل نشر العقيدة.

وبرغم انتصاراته العسكرية، لم تثر هذه الانتصارات كبرياءه أو غروره، فقد كان يحاربُ من أجل الإسلام لا من أجل مصلحة شخصية، وحتى في أوج مجده حافظ على بساطته وتواضعه، فكان يكره إذا دخل حجرة على جماعة أن يقوموا له، أو يبالغوا في الترحيب به، وإن كان قد هدف إلى تكوين دولة عظيمة، فإنها كانت

---

(١) **مايكل هارث**: هو دكتور أمريكي، حصل على اختصاصات عدة في الفلك والعلوم والقانون والرياضيات، وكتب كتابه: «المئة الأوائل» جمع فيه أشهر الرجال الذين كان لهم الأثر الكبير في تاريخ الإنسانية، وجعل أولهم الرسول محمداً ﷺ.

دولة الإسلام، وقد حكم فيها بالعدل، ولم يفكر أن يجعل الحكم فيها وراثيّاً لأسرته»(١).

* * *

٣ ـ **وقال فيليب حتي:**

«إذا نحن نظرنا إلى محمد [ﷺ] من خلال الأعمال التي حقَّقها، فإن محمداً الرجل، والمعلم، والخطيب، ورجل الدولة، والمجاهد، يبدو لنا بكل وضوح واحداً من أقدر الرجال في جميع أحقاب التاريخ.

لقد نشر ديناً هو الإسلام..

وأسس دولة هي الخلافة..

ووضع أساس حضارة هي الحضارة العربية الإسلامية..

وأقام أمة هي الأمة العربية..

وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالة في حياة الملايين من البشر»(٢).

* * *

٤ ـ **وقال إميل درمنغم:**

«الحق أن النبي [ﷺ] لم يعرف الراحة ولا السكون بعد أن أوحي إليه في غار حراء، فقضى حياةً يعجب الإنسان بها، والحق أن عشرين سنة كفتْ لإعداد ما يقلب الدنيا، فقد نبتت في رمال الحجاز

---

(١) **ايرفنج**: مستشرق أمريكي، أولى اهتماماً كبيراً للتاريخ الإسلامي في الأندلس، من آثاره: «سيرة النبي العربي»، و«فتح غرناطة».

(٢) **فيليب حتي**: لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، ولد عام (١٨٨٦م)، تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت، من آثاره «أصول الدولة الإسلامية»، و«تاريخ العرب».

الجديبة حبةٌ سوف تجدِّد ـ عما قليل ـ بلاد العرب، وتمتدُّ أغصانها إلى بلاد الهند والمحيط الأطلنطي»[١].

***

٥ ـ وقال دوراني:

«تحمَّل محمد ﷺ ثلاثة عشر عاماً كاملة من المتاعب في مكة دون انقطاع، وثماني سنوات في المدينة دون توقُّف..

فهل بوسع المرء أن يتصوَّر مثالاً للتضحية بالنفس وحبِّ الغير، والرأفة بالآخرين، أسمى من هذا المثال، حيث نجد رجلاً يقضي على سعادته الشخصية لصالح الآخرين، بينما يقوم هؤلاء القومُ أنفسهم الذين يعمل على تحسين أحوالهم، ويبذل أقصى جهده في سبيل ذلك، يقومون برميه بالحجارة، والإساءة إليه، ونفيه، وعدم إتاحة الفرصة له للحياة الهادئة في منفاه، وإنه رغم كلِّ ذلك يرفض أن يكفَّ عن السعي لخيرهم!.

إن هذا الإيمان، وهذا السعي الحثيث، وهذا التصميم والعزم الذي قاد به محمدٌ ﷺ حركته حتى النصر النهائي، إنما هو برهان بليغ على صدقه المطلق في دعوته، إذ لو كانت في نفسه أدنى لمسة من شكٍّ أو اضطراب لما استطاع أبداً أن يصمد أمام العاصفة التي استمرَّ أوارها أكثر من عشرين عاماً كاملة.

هل بعد هذا من برهان على صدق كامل في الهدف، واستقامة في الخلق، وسموٍّ في النفس، كلُّ هذه العوامل تؤدي لا محالة إلى الاستنتاج الذي لا مفرَّ منه، وهو أن هذا الرجل هو رسول الله حقّاً.

---

(١) **إميل درمنغم**: مستشرق فرنسي عمل مديراً لمكتبة الجزائر، من آثاره «حياة محمد»؛ وهو من أدق ما صنَّفه مستشرق عن النبي ﷺ، كما يقول الدكتور عماد الدين خليل.

إنَّ أي إنسان يدرس دون تحيُّز حياته ورسالته، سوف يشهد حقّاً رسولاً من عند الله، وإن القرآن الذي جاء به للناس هو كتاب الله حقّاً، وكلُّ مفكِّر منصف جادٍّ يبحث عن الحقيقة لابدَّ أن يصل إلى هذا الحكم»[١].

***

٦ ـ وقال ايتين دينيه:

«إن نبيَّ الإسلام هو الوحيد من بين أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في إتمام رسالته على المعجزات، وليست عمدته الكبرى إلا على بلاغة التنزيل الحكيم».

وقال: «كان النبيُّ ﷺ يعنى بنفسه عناية تامة، إلى حدٍّ أن عرف له نمط من التأنق على غاية من البساطة، ولكن على جانب كبير من الذوق والجمال، وكان ينظر إلى نفسه في المرآة.. ليتمشط أو ليسوي طيات عمامته.. وهو في كل ذلك يريد من حسن منظره البشري أن يروق الخالق ﷻ».

وقال: «لقد دعا عيسى ﵇ إلى المساواة والأخوة، أما محمد ﷺ فوفِّق إلى تحقيق المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته»[٢].

***

---

(١) الدكتور م. ج. دوراني: سليل أسرة مسلمة منذ القدم، أصبح نصرانياً في فترة مبكرة من حياته، وتحت تأثير إحدى المدارس التبشيرية المسيحية، وقضى ردحاً من حياته في كنيسة إنكلترا، حيث عمل قسِّيساً منذ عام (١٩٣٩م) وحتى عام (١٩٦٣م)؛ حيث جاءه الإسلام كما يأتي فصل الربيع، فعاد إلى دين آبائه وأجداده.

(٢) دينيه (١٨٦١ ـ ١٩٢٩م): تعلَّم في فرنسا، وقصد الجزائر فكان يقضي في بلده «بوسعادة» نصف السنة من كلِّ عام، وأشهر إسلامه وتسمَّى بناصر الدين (١٩٢٧م)، =

٧ ـ وقال ول ديورانت:

«إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا: إن محمداً [ﷺ] كان من أعظم عظماء التاريخ؛ فلقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقتْ به في دياجير الهمجية حرارةُ الجوِّ، وجدبُ الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانِهِ فيه أيُّ مصلح آخر في التاريخ كلِّه، وقلَّ أن نجد إنساناً غيره حقَّق ما كان يحلم به..

ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه..

وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان، قليل عددها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة. وقد كبح جماح التعصُّب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم، ديناً سهلاً واضحاً قويّاً.. واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مئة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولةً عظيمةً، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم»[١].

* * *

= وحج إلى بيت الله الحرام (١٩٢٨م)، من آثاره بالاشتراك مع سليمان بن إبراهيم: «محمد في السيرة النبوية»، وله بالفرنسية: «حياة العرب»، و«أشعة خاصة بنور الإسلام»، و«الحج إلى بيت الله الحرام» وغيرها.

(١) ول ديورانت: مؤلِّف أمريكي معاصر، يعدّ كتابه «قصة الحضارة» ذو الثلاثين مجلداً، واحداً من أشهر الكتب التي تؤرِّخ للحضارة البشرية.. وأصدر جزأه الأول عام (١٩٣٥م) ثم تلتْهُ بقية الأجزاء، ومن كتبه كذلك: «قصة الفلسفة».

٨ ـ وقال جاك ريسلر:

«كان لزاماً على محمد [ﷺ] أن يُبْرِزَ في أخصر وقت ممكن تفوّق الشعب العربي عندما أنعم الله عليه بدين سامٍ في بساطته ووضوحه، وكذلك بمذهبه الصارم في التوحيد في مواجهة التردُّد الدائم للعقائد الدينية، وإذا ما عرفنا أن هذا العمل العظيم قد أُدْرِكَ، وحقَّق في أقصر أجل أعظمَ أمل لحياة إنسانية، فإنه يجب أن نعترف أن محمداً [ﷺ] يظلُّ في عداد أعظم الرجال الذين شرف بهم تاريخ الشعوب والأديان»(١).



٩ ـ وقال نصري سلهب:

«هذا الرجل [محمد ﷺ] الذي ما عرف الهدوء ولا الراحة ولا الاستقرار، استطاع وسط ذلك الخضمِّ الهائج أن يُرسي قواعد دولة، وأن يشترع قوانين ويسنَّ أنظمة، ويجود بالتفاسير والاجتهادات.. ولم ينسَ أنه أبٌ وجدٌّ لأولاد وأحفاد، فلم يحرمهم عطفه وحنانه، فكان بشخصيته الفذة، الغنية بالقيم والمعطيات والمؤهِّلات، المتعددة الأبعاد والجوانب، الفريدة بما أسبغ الله عليها من نِعم وصفات، وبما حباها من إمكانات، كان بذلك كلِّه عالماً قائماً بنفسه»(٢).



(١) جاك. س. ريسلر: باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس.

(٢) نصري سلهب: مسيحي لبناني، يتميز بنظرته الموضوعية، وتحرِّيه للحقيقة المجردة، كتب العديد من الفصول، وألقى العديد من المحاضرات في المناسبات الإسلامية والمسيحية، من مؤلفاته: «لقاء المسيحية والإسلام»، و«في خطا محمد».

١٠ ـ وقال هنري سيرويا:

«محمد [ﷺ] شخصية تاريخية حقّاً، فلولاه ما استطاع الإسلام أن يمتدَّ ويزداد، ولم يتوانَ في ترديد أنه بشرٌ مثل الآخرين مآله الموت، وبأنه يطلب العفوَ والمغفرةَ من الله [ﷻ]، وقبل مماته أراد أن يطهِّر ضميره من كلِّ هفوة أتاها، فوقف على المنبر مخاطباً: «أيها المسلمون! إذا كنتُ قد ضربتُ أحداً فهاكم ظهري فليأخذ ثأره، أو سلبتُه مالاً فمالي ملكه» فوقف رجلٌ معلناً أنه يدينه بثلاثة دراهم، فردَّ الرسول [ﷺ] قائلاً: أن يشعر الإنسان بالخجل في دنياه خيرٌ من آخرته، ودفع للرجل دينه»(١).

***

١١ ـ وقالت إيفلين كوبولد:

«لعمري، ليجدن المرء في نفسه إذا ما تقدَّم إلى قبر الرسول ﷺ روعة ما يستطيع لها تفسيراً، وهي روعة تملأ النفس اضطراباً وذهولاً ورجاء وخوفاً وأملاً، ذلك أنه أمام نبيٍّ مرسل، وعبقريٍّ عظيم، لم تلد مثلَه البطونُ حتى اليوم!.. إن العظمة والعبقرية يهزَّان القلب، ويثيران الأفئدة، فما بالك بالعظمة إذا انتظمتْ مع النبوة، وما بالك بها وقد راحت تضحي بكلِّ شيء في الحياة في سبيل الإنسانية وخير البشرية»(٢).

***

---

(١) **سيرويا**: مستشرق فرنسي، من آثاره: «الصوفية والمسيحية واليهودية».

(٢) **إيفلين كوبولد**: نبيلة إنكليزية، اعتنقت الإسلام، وحجت إلى بيت الله، وكتبت مذكراتها بعنوان: «الحج إلى مكة»، وترجم إلى العربية بعنوان: «البحث عن الله».

١٢ ـ وقال **غوستاف لوبون**:

«إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم؛ كان محمد [ﷺ] من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمداً [ﷺ] مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرِّخين كثيرين عن الاعتراف بفضله»[١].

* * *

١٣ ـ وقال **لوقا**:

«رجل فرد هو لسان السماء، فوقه الله لا سواه، ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين، ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبر، بل يشفق، بل يَفْرَقُ من ذلك، ويحشد نفسه كلَّها لحرب الزهو في سريرته، قبل أن يحاربه في سرائر تابعيه، ولو أن هذا الرسول [ﷺ] بما أنعم الله عليه من الهداية للناس، وما تم له من العزة والأيادي، وما استقام له من السلطان، اعتدَّ بذلك كلِّه واعتزَّ، لما كان عليه جناح من أحد، لأنه إنما يعتد بقيمة ماثلة، ويعتز بمزية طائلة، يطريه أصحابه بالحق الذي يعلمون عنه، فيقول لهم: «**لا تطروني كما أطرتِ النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله**»، ويخرج على جماعة من أصحابه، فينهضون تعظيماً له، فينهاهم عن ذلك قائلاً: **لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً**»[٢].

* * *

---

(١) **غوستاف لوبون**: طبيب ومؤرخ فرنسي، ولد عام (١٨٤١م)، عني بالحضارات الشرقية، من آثاره: «حضارة العرب»، و«حضارة العرب في الأندلس».

(٢) **لوقا**: مسيحي مصري، يتميز بالموضوعية وإخلاصه للحق، حفظ القرآن ولم يتجاوز =

١٤ ـ وقال مونتغمري وات:

«كلَّما فكرنا في تاريخ محمد [ﷺ] وتاريخ أوائل الإسلام، كلَّما تملكنا الذهول أمام عظمة مثل هذا العمل، ولا شك أنَّ الظروف كانت مواتية لمحمد، فأتاحت له فرصاً للنجاح لم تتحها لسوى القليل من الرجال، غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تماماً، فلو لم يكن نبيّاً ورجل دولة وإدارة، ولو لم يضع ثقته بالله ويقتنع بشكل ثابت أن الله أرسله، لما كتب فصلاً مهمّاً في تاريخ الإنسانية.

ولي أمل أن هذه الدراسة عن حياة محمد [ﷺ] يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام من جديد، برجل هو أعظم رجال أبناء آدم»[1][2].

* * *

كانت تلك بعض أقوال علماء الغرب ومفكَّريه، الذين درسوا سيرة النبي الكريم ﷺ، وكلٌّ منهم قد رأى السموَّ في جانب من سلوكه وتصرفاته، فأبدى إعجابَه به، والذين أتيح لهم حظٌّ وافر من الدراسة أكبر كانت كلماتهم متميزة، ومنهم «هارث»، و«لوبون»، و«وات». .

وهكذا يتفق المنصفون من المفكرين: أنه ﷺ أعظم رجل في

= العاشرة، ألَّف عدداً من الكتب؛ منها: «محمد الرسول والرسالة»، و«محمد في حياته الخاصة».

(١) وات: كان عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبرا، من آثاره: «عوامل انتشار الإسلام».

(٢) ما جاء في هذا الفصل من أقوال علماء الغرب ومفكِّريه مأخوذ من كتاب «قالوا عن الإسلام» الذي أعده الدكتور عماد الدين خليل، ونشرته الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وذلك من الصفحات (٩١ ـ ١٤٥).

تاريخ الإنسانية من حيث السموُّ الروحي الذي تميَّز به، ومن حيث الأثر الذي خلَّفه في دنيا الناس إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

ويلاحظ في أقوالهم التأكيد على الأمور التالية ـ إضافة إلى إجماعهم على أنه أعظم رجل في التاريخ ـ:

١ ـ أنه وحَّد بين ما هو دينيٌّ وما هو دنيويٌّ.

٢ ـ أنه كان متواضعاً في بساطة وهو في أوج مجده.

٣ ـ حبُّه للغير، بل حبُّه الخير للإنسانية جمعاء.

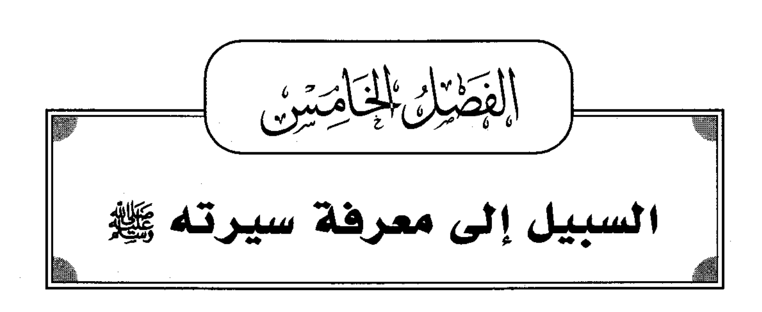
٤ ـ اهتمامه بتحقيق المساواة والأخوة في المجتمع الذي أنشأه.

٥ ـ أنه كبح جماح التعصُّب، وأبطل الخرافات.

٦ ـ النجاح في إيجاد التوازن بين ما هو ماديٌّ وبين ما هو معنويٌّ روحي.

وكلها أمور ما زالت المجتمعات الإنسانية تفتقدها وهي بحاجة إليها.





الفصل الخامس

السبيل إلى معرفة سيرته ﷺ

لن تكون الفصول السابقة كافية للتعريف بالرسول ﷺ، فصلة المسلم برسوله ومعرفته به ينبغي أن تكون على نطاق أوسع، بل ينبغي أن تكون بمقدار حاجته إلى رسوله وضرورته إليه.

وإذا كانت هذه الضرورة، أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها ـ كما يقول الإمام ابن القيم ـ علمنا الحجم الذي ينبغي أن تكون عليه هذه المعرفة.

لا سيما وأن الله تعالى «قد سدَّ إلى جنته جميع الطرق، فلم يفتح لأحد إلا من طريقه ﷺ»[1].

فإذا كان هذا هو الطريق الوحيد الذي تكون به النجاة، علمنا كم هو اضطرار العباد إلى معرفة الرسول ﷺ وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها:

ـ أن «يعرف من هديه وسيرته وشأنه، ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه»[2].

---

(١) مقدمة كتاب: طريق الهجرتين، للإمام ابن القيم.

(٢) زاد المعاد، للإمام ابن القيم (١/ ٦٩).

ـ وأن «يجعله إمامه، ومعلمه وأستاذه، وشيخه، وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله، وهادياً إليه.

ـ فيطالع سيرته ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه.

ـ ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته، ومعاشرته لأهله وأصحابه.

حتى يصير ـ كأنه معه ـ من بعض أصحابه»(١).

«والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله، يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»(٢).

هذا ما قاله الإمام ابن القيم ـ في أكثر من كتاب من مؤلفاته ـ موضحاً كم هي الحاجة ماسة إلى مطالعة سيرته ﷺ.

ويشاركه في هذا الرأي معظم علماء الأمة، وما كثرة الكتب المؤلفة في السيرة النبوية إلا الدليل على قناعة مؤلفيها بمكانة هذا الموضوع في ميدان المعرفة التي ينبغي أن يتزود بها المسلم.

وابن القيم في كلامه السابق ـ فيما أرى ـ يجعل الحد الأدنى من معرفة الرسول ﷺ: هو ما يخرج به الإنسان عن مسمى الجهل به، فيعرف الخطوط العريضة من سيرته؛ وهي ما يتاح له سماعه من خطب الجمعة، والدروس العامة، وقراءة متواضعة.. تجعله أهلاً أن يكون في عداد أتباعه ﷺ.

وأما الحد الأعلى الذي ينبغي أن يسعى إليه المسلم في إطار هذه المعرفة، أن يصير وكأنه مع النبي ﷺ من بعض أصحابه، أي يصل

---

(١) مدارج السالكين، للإمام ابن القيم (٣/ ٢٦٨).

(٢) زاد المعاد (١/ ٧٠).

إلى العلم بتصرفاته ﷺ، وسلوكه، وأخلاقه.. وكأنه يعايشه في حياته ومع كل حركة من حركاته، ولا يغيب عنه إلا شخصه الكريم ﷺ، الذي يتخيله بفكره من وراء هذه المعرفة الواسعة السطح العميقة الغور.

وربما سأل بعضهم فقال: وكيف يكون الوصول إلى هذه المنزلة؟.

وللجواب على ذلك أقول:

«إن ما كتب عن رسول الله ﷺ يرجع إلى فرعين كبيرين: السنة، والسيرة.

الأول ـ السنة:

والسنة أو علم الحديث: يتناول أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، وما تفرع عن ذلك من علوم شتى، غايتها التثبت من صحة النص، ونفي الكذب عنه والدخيل.

ولهذا كان علم الحديث أوسع العلوم على الإطلاق.

ولكثرة كتب السنة وعلوم الحديث، الأمر الذي يصعب معه الإلمام بها، قام العلامة محمد بن جعفر الكتاني (ت **١٣٤٥هـ**) بوضع رسالته المشهورة للدلالة على هذه الكتب، وقد سماها: «الرسالة المستطرفة لبيان كتب السنة المشرفة»، وقد اشتملت على التعريف بأربعمئة وألف كتاب من مشهور كتب علوم الحديث، وعلى قريب من ستمئة ترجمة من مشهور تراجم علماء الحديث[١].

---

(١) إن أصح كتابين في السنة هما: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وقد يسَّر الله لي الجمع بينهما في كتاب واحد عنوانه: الجامع بين الصحيحين، ونشرته دار القلم بدمشق.

الثاني ـ السيرة:

وتتناول سيرة النبي ﷺ ابتداءً من ولادته، وحتى وفاته بحسب التسلسل الزمني، وتعرج على بيان سلوكه في تلك الوقائع والأحداث، وما صاحَبَ ذلك من معجزات ودلائل على نبوته ﷺ، مع بيان للمعارك التي خاضها، والاتفاقات التي أبرمها، وبيان الوفود التي وفدت عليه..

وقد تفرعت الكتابة في السيرة أيضاً إلى فروع متخصصة، تناول كل واحد منها جانباً معيناً من سيرته ﷺ، واستقل تحت عنوان خاص به، ومن ذلك:

١ ـ المغازي: والمراد بها غزوات النبي ﷺ، وقد اقتصرت بعض الكتب على بيان هذا الجانب. ومن ذلك: «مغازي ابن إسحاق»، و«مغازي الواقدي»، وقد ذكر الدكتور المنجد في كتابه: «معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ» ثلاثة وثلاثين كتاباً، كلها يحمل هذا العنوان.

٢ ـ السير: وهذا النوع من الكتب يلتقي مع كتب المغازي في ذكر الغزوات، إلا أنه يعرج على الأحكام الفقهية المستنبطة من ذلك: من عرض الإسلام على الأعداء قبل بدء القتال، وكيفية توزيع الغنائم، وأحكام الجزية والأمان.. ومما ألف في هذا الباب «السير» للإمام الأوزاعي، و«السير الكبير»، و«السير الصغير» للإمام محمد بن حسن الشيباني.

٣ ـ دلائل النبوة: وتحت هذا العنوان أفرد المؤلفون كل ما فيه دلالة على نبوته ﷺ من أحداث، أو أخبار، أو معجزات، ومن

الكتب المشهورة في هذا الباب: «دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصفهاني، و«دلائل النبوة» للإمام البيهقي.

٤ ـ **الخصائص**: وقد تناول المؤلفون تحت هذا العنوان: ما كان النبي ﷺ مختصّاً به، مثل: كونه خاتم الأنبياء، واختصاصه بعدم التقيد بعدد الزوجات.. وللسيوطي كتاب كبير في هذا الباب معروف باسم: «الخصائص الكبرى»، وقد ذكر الدكتور المنجد ثلاثين كتاباً في هذا الباب.

٥ ـ **السيرة النبوية**: وهذا النوع يذكر حياته ابتداءً من الولادة وحتى الوفاة، ومن أشهر الكتب في هذا الباب: «السيرة النبوية» لابن هشام، والكتب في هذا الباب كثيرة جدّاً.

٦ ـ **حقوق النبي ﷺ**: وأشهر الكتب في هذا الباب كتاب: «الشفا في تعريف حقوق المصطفى»[1] للقاضي عياض، وأكثر الكتب في هذا الباب هي شروح لهذا الكتاب.

٧ ـ **الشمائل والأخلاق**: وقد تناول المؤلفون تحت هذا العنوان: أخلاق النبي ﷺ وآدابه، وكذلك وصف جسمه، والأدوات التي كان يستعملها، ومن أشهر الكتب في هذا الباب: كتاب «الشمائل» للإمام الترمذي، و«الأنوار في شمائل النبي المختار» للبغوي»[2].

* * *

(١) يسر الله لي تهذيب هذا الكتاب بعنوان: «المهذب من الشفا»، وطبعته دار القلم بدمشق.

(٢) هذا البحث منقول من كتاب «من معين الخصائص النبوية»، للمؤلف، ص (٧ ـ ١٠).

ولمعرفة الرسول ﷺ لابد من التعامل مع كتب السنة وكتب السيرة، فكل من النوعين يكمل الآخر.

ولابد في ختام هذا الفصل من الإشارة إلى بعض الكتب التي جمعت أكثر من نوع مما سبق ذكره، فقد رغب بعض المؤلفين أن يتناول كتابة السيرة من جوانبها المتعددة، بحيث يكون القارئ أمام كتاب يلبي حاجته في وضع التصور العام للسيرة النبوية.

ومن هذه الكتب: كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن القيم، وقد جمع فيه مؤلفه السيرة حسب الوقائع، وبعض الشمائل والأخلاق، والعبادات، والطب النبوي، وأقضية الرسول ﷺ(١).

ومنها: كتاب «المواهب اللدنية» للقسطلاني، وقد جمع فيه كل فنون السيرة(٢).

ومن الجدير بالذكر: أنه ألفت كتب جديدة تعالج غير ما سبق من الموضوعات؛ منها: كتاب «السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة»(٣)، فقد عالج هذا الكتاب حركة الدعوة في مراحلها المتعددة، ورصد في كل مرحلة: الحياة السياسية والعسكرية، والوضع السكاني، وحركة الدعوة، والوضع الاقتصادي، وموضوع التربية.. إنه نمط جديد من السيرة.

---

(١) يسر الله لي جمع مادة السيرة من هذا الكتاب وطبعت بعنوان: «سيرة خير العباد»، وجمع فقه العبادات تحت عنوان: «الهدي النبوي في العبادات»، وجمع مادة السلوك والأخلاق تحت عنوان: «الهدي النبوي في الفضائل والآداب»، وكلها صدرت عن المكتب الإسلامي.

(٢) يسر الله لي تحقيق هذا الكتاب، وطبعه المكتب الإسلامي.

(٣) مؤلفه صالح أحمد الشامي، ونشره المكتب الإسلامي.

تلك كانت جولة في عالم الثقافة المتعلقة بالسيرة النبوية، عسى الله أن ينفع بها[(١)].



(١) يسَّر الله لي تأليف مجموعة من كتب السيرة، فيها تغطية لمعظم جوانبها، وهي:
١ ـ من معين السيرة.
٢ـ من معين الشمائل.
٣ ـ من معين الخصائص.
٤ ـ السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة.
٥ ـ سيرة النبي ﷺ في بيته.
وقد نشرها المكتب الإسلامي.

خلاصة الباب الثالث

رأينا ـ كما سبق ـ أننا بحاجة إلى معرفته ﷺ، لأن هذه المعرفة تُساعدنا على أداء واجبنا تجاه خالقنا ـ تبارك وتعالى ـ وتجاه ديننا، وتجاه نبينا ﷺ، وكلما كانت هذه المعرفة أوسع وأشمل كلما تحسن أداء هذه الواجبات.

ويمكن إيضاح ذلك ببيان بعض الأمثلة:

١ ـ جعل الله تعالى النبي ﷺ أُسوةً لنا، وطلب منا أن نقتدي به ونتأسى بسلوكه في كل مجالات الحياة، ما لم يكن الأمر من خصائصه ﷺ.

وكيف لنا أن نتأسَّى به في أمر نجهل كيف كان موقفه منه؟ وهكذا كلما اتسع نطاق المعرفة، كلما اتسع نطاق الاتباع والتأسي.

٢ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فقد جعل الله ـ سبحانه ـ اتباع الرسول ﷺ دليلاً على محبة العبد لله تعالى، كما جعله وسيلة لحصول العبد على محبة الله له، إنهما أمران:

ـ التعبير عن حب العبد لله تعالى.

ـ ثم الحصول على حب الله تعالى للعبد.

وكلاهما مرتبط «بالاتباع»، وكلاهما من الأمور التي يسعى إليها كل مؤمن.

وهل يكون الاتباع إلا بعد المعرفة؟!..

٣ ـ إن القرآن هو كتاب الله المنزل إلينا، والمطلوب منا العمل به، وقد رأينا أن المبين له هو الرسول ﷺ، مبين له بقوله وفعله وتصرفاته كلها..

وإذن فمعرفته ﷺ تعيننا على فهم آياته تعالى، كما تعيننا على تنفيذ ما جاء فيها، وإذا لم تتوفر هذه المعرفة، فسوف يتعطل هذا الجانب، وهو من أوليات المسلم التي يسعى إلى عملها.

٤ ـ قال تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

فتوقير الرسول وتعظيمه ﷺ، كما تقرره هذه الآية الكريمة وغيرها، من واجبات المسلم، وبمقدار ما نعرف عنه بمقدار ما يكون هذا التوقير، وكلما زادت المعرفة زاد الاحترام والتوقير، وما من أحد يماري في أن توقير العالم للرسول ﷺ أكبر وأعظم من توقير الجاهل.

٥ ـ جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[١].

وهكذا يقرر الحديث: أن حبه ﷺ شرط في الإيمان[٢].

فكيف نحقق حبه ﷺ في حياتنا؟.

وفي سبيل إيضاح هذه القضية أقول: يبدأ الحب بموقف

---

(١) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

(٢) ارجع ـ إن رغبت ـ إلى كتاب: محبة الله ورسوله شرط في الإيمان، نشره المكتب الإسلامي.

إعجاب، ثم يتأكد هذا الإعجاب بالمواقف الأخرى، وعندها يتحول إلى حب..

ولإيضاح ذلك أضرب مثالاً من الواقع: أسلم صفوان بن أمية بعد فتح مكة، وعداوته قبل ذلك للرسول ﷺ معلومة، فلنترك له الحديث ليعرفنا كيف أحبَّ رسول الله ﷺ بعد ذلك الكره الشديد.

قال صفوان: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى صار وإنه أحب الناس إليّ[(١)].

بدأ صفوان بالإعجاب بالنبي ﷺ من زاوية واحدة، هي زاوية الكرم، وإذا به أمام صورة من الكرم لم يشهدها في حياته قط.. ويتحول الإعجاب إلى حب[(٢)].

إن تميز إنسان بخصلة واحدة من خصال الخير تجعله محبوباً لدى الناس.

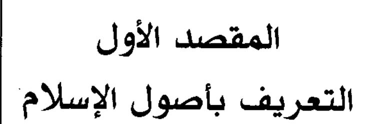
فإذا عرفنا أن خصال الخير كلها قد اجتمعت في شخص رسول الله ﷺ، وأنها كلها وصلت إلى كمالها.. فإن حبنا له لا يكاد يوصف..

ولكن هذا لا يتم إلا إذا أتيح لنا دراسة سيرته وسنته.. وعندها سنكون أكثر حبّاً له.. وعندها يتحقق لنا شرط الإيمان.



(١) رواه مسلم (٢٣١٣).

(٢) أضواء على دراسة السيرة، للمؤلف، ص (١٦ ـ ١٨)، نشره المكتب الإسلامي.


المقصد الأول
التعريف بأصول الإسلام

الباب الرابع

القرآنُ مصدرُ المعرفةِ

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾

[الإسراء: ٩]





ـ ١ ـ
تمهيد

بعد هذه الجولة في ساحات المعرفة ـ معرفة الربِّ تعالى، ومعرفة الدين، ومعرفة الرسول ﷺ ـ يحسنُ بنا أن نفتح هذا الباب ـ الرابع ـ لنتعرَّف على الكتاب الذي تُسْتَقى منه المعرفة، ويُطلَب العلم من سوره وآياته.

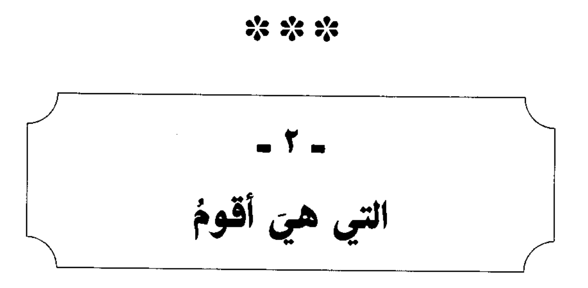
إنه القرآن الكريم.. كلام الله تعالى..

الكتابُ الذي حثَّتِ السنة المطهرة على ضرورة استمرار الصلة اليومية به، وحذَّر القرآن الكريم من هجره.

إن «**رضيتُ بالإسلام ديناً**» ينبثق عنها التزام آخر؛ هو: «**رضيت بالقرآن إماماً**».

ومن أجل بيان ذلك، رأيتُ أن أضع بين يدي القارئ الكريم هذه الخطوط العريضة ـ في هذا الباب ـ بكلماتٍ قليلة لا تملُّ القارئ، ولا تُقصِّر عن أداء المطلوب.

***



ـ ٢ ـ
التي هيَ أقومُ

أنزل الله تعالى كتابه الكريم ـ وهو خاتم الكتب ـ على قلب رسولنا الحبيب محمد بن عبد الله ـ وهو خاتم الأنبياء والرسل ـ

ليكون الدستور الذي ينظِّم للناس حياتهم، ويكون القائد على الصراط المستقيم، والدليل المرشد إلى كلِّ خير للإنسان في هذه الحياة، والمبين لكلِّ شرٍّ كي يحذره الناس.

فهو البيان والهدى للناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

«هكذا على وجه الإطلاق:

يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء.

ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلِّعة إلى أعلى؛ وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجَّه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة.

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة، بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشقُّ التكاليف على النفس حتى تملَّ وتيئس من الوفاء، ولا تسهل وتترخَّص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض، أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثَّر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض، الأسس التي

أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كلِّ أرض وفي كلِّ جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم، ونظام المال، ونظام الاجتماع، ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان»(١).

يهدي للتي هي أقوم فيرشد إلى الطريق المستقيم في كلِّ شأن من شؤون الحياة، حتى يقيم الناس أمورهم وفقاً لما جاء به.. وبهذا تضمن سلامة البدء والمنطلق.. ثم يرجع إليه بعد إنجاز العمل للاطمئنان على صحته، ومطابقته للمواصفات التي وضعها التشريع الكريم.

قال سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا» وهل هذا الحساب إلا مراجعة للنفس على ما صدر منها، ومناقشتها على مدى سلامته وموافقته للمواصفات المطلوبة.

إن هذه العملية في التأكد من سلامة الأعمال وصحتها تقتضي من المسلم أن يكون على صلة ودراية بالتشريع الذي يضبط الأمور ويبينها.

وذلكم هو كتاب الله: القرآن الكريم.



ـ ٣ ـ
الصلةُ بالقرآنِ

كانت صلةُ النبيِّ ﷺ وثيقةً بالقرآن الكريم، فبالإضافة إلى القراءة

(١) في ظلال القرآن، عند تفسير الآية الكريمة.

في الصلوات، كان يقرأ كل يوم قدراً معيناً من القرآن الكريم، ففي حديث أوس بن حذيفة، وهو واحد من وفد ثقيف: أنه ﷺ كان يأتي إليهم كلَّ يوم، وتأخَّر في يوم فسئل عن سبب ذلك فقال: «**إنه طرأ عليَّ حزبي من القرآن، فكرهتُ أن أخرج حتى أتمَّه**»[1].

والمعنى أنه طرأ عليه ﷺ ما منعه عن القراءة في الوقت الذي خصَّصه لذلك، فقرأه بعد ذلك فكان سبباً لتأخره.

وقد فعل الصحابة كما فعل ﷺ فكان لكلٍّ منهم حزبه الذي خصصه لنفسه، والتزم بقراءته كل يوم، حتى كان ذلك حديثاً متداولاً بينهم.

فقد التقى معاذ وأبو موسى، فقال معاذ: يا عبد الله، كيف تقرأ القرآن؟ قال: أتفوقه تفوُّقاً ـ أي: ألازم قراءته ليلاً ونهاراً شيئاً بعد شيء وحيناً بعد حين ـ فقال أبو موسى: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل، فأقوم فأقرأ ما كتب الله لي[2].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**من نام عن حزبه أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كُتب له كأنما قرأه من الليل**»[3].

والحديث يؤكِّد أنَّ الالتزام بحزبٍ من القرآن كلَّ يوم كان أمراً معمولاً به من كلِّ الصحابة بدلالة عموم الخطاب في هذا الحديث، وأن موعد قراءته كان ليلاً قبل النوم يختم المسلم به يومه..

---

(١) رواه أبو داود (١٣٩٣)؛ وابن ماجه (١٣٤٥).

(٢) رواه البخاري (٤٣٤١).

(٣) رواه مسلم (٧٤٧).

وليس بين أيدينا نصٌّ يحدِّد مقدار هذه القراءة، وإنما هو أمر متروك للمسلم، فهو الذي يحدد هذا المقدار وفقاً لقدرته ونشاطه، يدلُّنا على ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمرو ﵄ في قصته المشهورة.

قال عبد الله: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كنَّته، فيسألها عن بعلها، فتقول: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشاً، ولم يفتِّش لنا كنفاً منذ أتيناه، فلما طال ذلك عليه، ذكر للنبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**القني به**» فلقيتُه بعد، فقال: «**كيف تصوم؟**»[1].

وفي هذه القصَّة ناقش الرسول ﷺ عبد الله في صيامه الذي يتطوَّع به، وكذلك في أمر صلاته من الليل، وفي مقدار قراءته للقرآن.

وكان من حديثه ﷺ أن قال له: «**اقرأ القرآن في أربعين يوماً**»[2]، فقال عبد الله: إني أطيق أفضل من ذلك، فقال: «**اقرأ القرآن في شهر**»[3].

وكأني به ﷺ عندما بدأ معه من (الأربعين يوماً) إنما فعل ذلك ليلبي طموحه ورغبته في الإكثار من القراءة بعد ما عرف من قصته، وحبه للعكوف على العبادة، وإلا فمن الممكن أن تكون قراءة القرآن في ستين يوماً أو أقل أو أكثر.

وخلاصة القول: إنَّ المسلم مطلوب منه أن يكون على صلة يومية بالقرآن الكريم، ومقدار القراءة متروك له تحديده، وإن كان من

---

(١) رواه البخاري (٥٠٥٢).

(٢) رواه أبو داود (١٣٩٥)، والترمذي (٢٩٤٧).

(٣) رواه البخاري (٥٠٥٤)، ومسلم (١١٥٩).

المستحسن أن يكون في أربعين يوماً أو في شهر كما ورد في الأحاديث الشريفة.

وما ذاك إلا ليكون على صلة دائمة بتشريعه الذي أنزله الله له، ولا يطول عليه الأمد فينساه.. فاستمرار التكرار يجعل للتشريع حضوراً دائماً في الذهن.. فيظل الضابط للأعمال قائماً.



- ٤ -
كيف كانت صلةُ السَّلَفِ بالقرآن؟

وإذا كانت تلاوة القرآن أمراً مطلوباً في كلِّ يوم ـ كما رأينا ـ فيحسن بنا أن نذهب إلى السلف الصالح لنتعلَّم منهم كيف كانوا يقرؤون القرآن، وما هي نصائحهم في هذا الموضوع.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إنَّ هذه القلوب أوعية؛ فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره[١].

وقال عثمان رضي الله عنه: إني لأكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله، يعني المصحف[٢].

وقال أبو أمامة رضي الله عنه: اقرؤوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة، فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء للقرآن[٣].

---

(١) الزهد، للإمام أحمد، ص (٢٠١).

(٢) المصدر السابق، ص (١٥٩).

(٣) المصدر السابق، ص (٢٥٣).

وقال عمر رضي الله عنه: اقرؤوا القرآن تُعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله(١).

وقال رجل لأبي بن كعب رضي الله عنه: أوصني.

فقال: اتخذ كتاب الله إماماً، وارضَ به قاضياً وحكماً، فإنه الذي استخلف فيكم رسولكم، شفيع مطاع، وشاهد لا يتهم، فيه ذكركم وذكر من قبلكم، وحكم ما بينكم، وخبركم وخبر ما بعدكم(٢).

وإذا كانت هذه الأقوال تحثُّ على الصلة بالقرآن الكريم وتلاوته.. فإن المقصود من التلاوة العمل، وهذا ما فهمه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتي قوم يثقفونه مثل القناة، ليسوا بخياركم(٣).

وقال الحسن البصري:

قال الله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [صَ: ٢٩].

وما تدبُّر آياته إلا اتباعه، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إنَّ أحدهم ليقول: قد قرأتُ القرآن كلَّه، فما أسقطتُ حرفاً واحداً، وقد ـ والله ـ أسقطه كلَّه، ما يُرى له القرآن في خلق ولا عمل(٤).

---

(١) البيان والتبيين، للجاحظ (٢/ ٧٠).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٥٣).

(٣) إحياء علوم الدين (١/ ٨٥).

(٤) البداية والنهاية (٩/ ٢٧٠).

وقال الحسن أيضاً: حملة القرآن ثلاثة نفر:

١ ـ رجل اتخذه بضاعة، ينقله من مصر إلى مصر، يطلب به ما عند الناس.

٢ ـ ورجل حفظ حروفه وضيع حدوده، واستدرَّ به الولاةَ واستطال به على أهل بلده، وقد كثر هذا الضرب من حملة القرآن، لا كثَّرهم الله ﷻ.

٣ ـ ورجل قرأ القرآن، فوضع دواءه على داء قلبه، فسهر ليله، وهملتْ عيناه، تسربل الخشوع، وارتدى الوقار، واستشعر الحزن.. والله لهذا الضرب من حملة القرآن أقلُّ من الكبريت الأحمر، بهم يسقي الله الغيث، وينزل النصر، ويدفع البلاء(١).

وقال الحسن أيضاً:

إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، وينفذونها بالنهار(٢).

وقال الحارث المحاسبي:

إخواني! إذا تلا الناس كتاب الله لفضل ثوابه، ألا فأريدوا بتلاوتكم التدبُّر والاعتبار بأمثاله وعجائبه، ووعده ووعيده، وأمره ونهيه، وحرامه وحلاله، والعمل بحدوده وفرائضه، فإن ذلك أبلغ في رضوان الله تعالى.

يا قوم! إنكم ما عملتم بحدود القرآن، وصلتم إلى أجزل الثواب، وأعلى المنازل عند الله، وإن ضيَّعتم حدوده، وتلوتموه

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٨٩).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٢٧٥).

للثواب، خشيتُ أن يفوتكم الثواب بحدوده، فكم تالٍ له يتبرأ القرآن منه غداً.. أعاذنا الله وإياكم من ذلك[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح، وقد أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه، ويعمل به، لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه[٢].

نخلص مما سبق:

إلى أن السلف مجمعون على أن المطلوب في تلاوة القرآن أن تكون بتدبُّر وإمعان فكر، وهو الأمر الذي يؤدِّي إلى العمل.

والعمل هنا نوعان:

الأول: أن يعمل بما يقرأ: وفي ذلك يقول ابن القيم: التلاوة الحقيقية هي تلاوة المعنى واتباعه، تصديقاً بخبره، وائتماراً بأمره، وانتهاء عن نهيه، وائتماماً به، حيث ما قادك انقدت معه[٣].

الثاني: التأكد من الأعمال التي قام بها أنها مطابقة لما أمر به القرآن الكريم: فإن لم تكن كذلك ووجد خللاً فيما عمل، استفاد من التلاوة العودة إلى ذلك العمل وتصحيحه.

إنهما أمران ـ تثمرها تلاوة القرآن ـ: الحثّ على العمل ابتداء، والرقابة على العمل بعد ذلك.



---

(١) الوصايا، للمحاسبي، ص (١٠٧).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٥٤).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٠٢).

- ٥ -
التلاوةُ المثمرةُ

إنَّ تحقيق هذه الرقابة من القرآن الكريم على العمل لا تكون إلا إذا كانت «التلاوةُ» مثمرةً، وهي التي تكون لها آثارها الملموسة في واقع الإنسان، وواقع الناس، وهي التي تتوفَّر فيها مواصفات القبول، والتي سبق ذكر بعضها:

ومنها: الصلة الدائمة بالقرآن الكريم بحيث يكون له في كلٍّ يوم جلسة مع كتاب الله تعالى، كما قال عثمان ﷺ: إني لأكره أن يأتي عليَّ يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله.

وهذا إنما يتوفَّر إذا ألزم المسلم نفسه بهذه الصلة بغضِّ النظر عن المقدار المتلو كل يوم، كما سبق الحديث عن ذلك، فله أن يقرأ القرآن في شهر أو في شهرين أو أكثر من ذلك، والمهم عدم الانقطاع.. وإذا حصل ذلك بعامل الضرورة استدرك قسط ذلك اليوم في اليوم الذي يليه.

ومنها: التدبر والتفكير وإمعان النظر في الآيات المتلوة، فإنما هي رسائل ـ كما قال الحسن البصري رحمه الله ـ من الله تعالى إلى عباده.

وكلٌّ منا يعلم كيف يقرأ الرسالة إذا أتتْه ممن يحبُّ، فربما كرر النظر فيها مرات ومرات يستبطن ما وراء الأحرف من معانٍ.

فإذا كانت هذه الرسالة من خالقه ورازقه؛ فكيف ينبغي أن تكون هذه القراءة؟!.

ومنها: جمع القلب والحضور الذهني والقلبي والروحي عند التلاوة.

قال ابن القيم: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧].

فقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب، حاضر غير غائب، قال ابن قتيبة: استمعَ كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ»[1].

ذلك بعض ما ينبغي من أجل تلاوة مثمرة، وفي مقدمة ذلك استشعار القارئ قداسة الكلام الذي يقرؤه، وأنه كلام الله تعالى، وأنه المخاطب به.

ـ ٦ ـ
التحذيرُ من هجرِ القرآن

وعندما لا تتوفر هذه المواصفات، فإنَّ المسلم ربما وقع في دائرة هجر القرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

والآية الكريمة وإن كانت في حق الكافرين الذين رفضوا

(١) الفوائد، لابن القيم، ص (٥ ـ ٦).

الاستماع لكلام الله تعالى، فإن بعض معناها يقع على بعض المسلمين.

إن بعض المسلمين لا يقرؤون القرآن إلا في شهر رمضان؛ أليس هذا من الهجر؟!.

وقد يكون الهجر في صور أخرى:

«**منها**: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

ومنها: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

ومنها: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه.

ومنها: هجر تفهُّمه وتدبُّره ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

ومنها: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها.

فكل هذا داخل في الآية الكريمة، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض»[١].

وقد ظهرت أنواع من الهجر هي أشد خطراً مما سبق ذكره..

فقد وجد بين المسلمين من يصلِّي ويصوم، ويعتقد أن الأنظمة والقوانين التي يسنُّها الناس أفضل من شريعة الإسلام!.. وينضم إلى المطالبين بإبعاد الإسلام عن الحكم!..

أليس هذا من الهجر؟!.

---

(١) الفوائد، لابن القيم، ص (١٥٦).

ووجد بين المسلمين، من يظاهر أعداءهم عليهم والقرآن الكريم يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

أليس هذا من الهجر؟!.

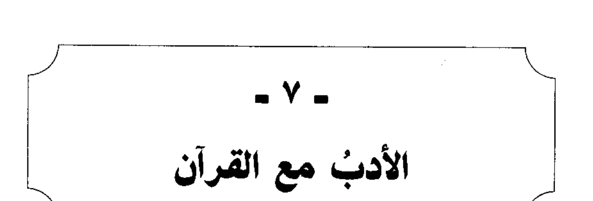
ووجد بين المسلمين من يستهزئ بالإسلام، ويعدُّ نفسه من المسلمين..

أليس هذا من الهجر؟! بلى وسببه الهجر.

نعوذ بالله من الخذلان.

إن البعد عن كتاب الله تعالى والانقطاع عنه يؤدي إلى مثل هذه الحالات التي تحاكي المناسبة التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

* * *



ـ ٧ ـ
الأدبُ مع القرآن

إن الصلة بالقرآن أمر واجب على كلِّ مسلم؛ بحيث لا يدخل في عداد الذين هجروا القرآن، وأن يكون في صلته هذه مستشعراً عظمة هذا الكتاب وقداسته، فيتعامل معه بالأدب، ويقرؤه بأدب يتناسب مع مكانته.

ويحسن أن نذكِّر ببعض هذه الآداب في كل من الأمرين:

● **أما الأدب مع القرآن الكريم**: فيبدأ من إدراك المسلم أن هذا الكتاب يختلف عن كل الكتب الأخرى؛ فهو كلام ربِّ العالمين،

الذي نزل به جبريل الأمين، على قلب سيد المرسلين، ولهذا فينبغي أن يكون التعامل معه في غاية من الأدب والاحترام.

وقد نصَّ القرآن الكريم نفسه على أول هذه الآداب بقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، وجاءت السنة المطهرة لتقول: «**ولا يمس القرآن إلا طاهر**» فعلى المسلم إذا أراد الإمساك بالقرآن.. أن يكون على طهارة كاملة.. أي: أن يكون متوضِّئاً.

وقد تحدَّث الفقهاء عن آداب أخرى:

منها: أن يكون المكان الذي يوضع فيه المصحف مكاناً مكرماً محترماً، مرتفعاً عن الأرض.

ومنها: أنه إذا كان بين مجموعة من الكتب، فلا يوضع كتاب فوقه، بل يكون المصحف فوق غيره، وهو الأعلى.

ومنها: أنه إذا كان في جهة من البيت، فلا ينبغي أن تبسط الأرجل في اتجاهه، وإذا كان في غرفة النوم فليكن على الجهة اليمنى أو اليسرى للنائم أو في جهة رأسه، ولا يكون في الجهة التي تمتد إليها الأرجل.

ويدخل في هذا المعنى: أنه قد حدثت ظاهرة جديدة في المساجد، وهي وضع مكتبات خشبية منخفضة قريبة من الأرض لتكون قريبة من يد الجالس في المسجد، توضع عليها المصاحف، فيأتي بعض من لم يتعلم الأدب مع القرآن فيجلس الواحد منهم ويمد رجليه، وتصبح المسافة بين قدميه والمصحف الذي أمامه لا تتجاوز «القدم» أو أكثر قليلاً! وهذا من سوء الأدب.

إنني لا أستطيع أن أذكر كلَّ الحالات التي يكون الأدب فيها مع القرآن متوفِّراً، ولكني أقول: هي قضية تقوم في نفس المسلم تجعله

حسن التصرف مع الكتاب الكريم في كلٍّ حالة بالشكل الذي يتناسب معها.. وأن نربِّي أولادنا على ذلك.

● **وأما الأدب عند تلاوة القرآن:** فقد سبق ذكر جملة من ذلك، ويحسن بنا أن نضع بين الأيدي جملة ما ينبغي على سبيل الاختصار:

١ ـ أن تكون جلسة القارئ مؤدَّبة تتناسب مع مقام المناجاة، فقارئ القرآن مناجٍ لله تعالى بكلامه، ولعل أفضل ذلك تلك الجلسة التي جلسها جبريل عليه السلام بين يدي الرسول ﷺ عندما سأله على الإسلام.. وهي كالجلسة بين السجدتين في الصلاة..

٢ ـ أن يكون القارئ على وضوء، حتى ولو كان يقرأ من حفظه وليس القرآن بين يديه.

٣ ـ استقبال القبلة في جلسته إذا أمكن.

٤ ـ طهارة المكان الذي يجلس فيه القارئ.

٥ ـ استحضار عظمة الكلام الذي يتلوه، وعظمة المتكلم سبحانه، وليشعر أنه المخاطب بذلك.. فالمقصود العمل..

٦ ـ الاستعاذة عند البدء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

٧ ـ حضور الذهن وتدبُّر الآيات ومحاولة فهم المعنى، وقد يسَّر الله ذلك لمن قصده.

٨ ـ الخشوع أثناء التلاوة.

٩ ـ ترتيل الآيات، والجهر بها، وتحسين الصوت بالقراءة.. وكلُّ ذلك ورد الأمر به في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

١٠ ـ الإمساك عن القراءة عند التثاؤب.

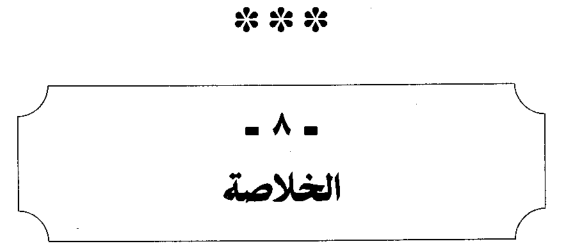
١١ ـ عدم قطع القراءة إلا لحاجة.

١٢ ـ أن يقف على آية الوعد فيسأل الله ﷻ، ويقف على آية الوعيد فيستعيذ بالله سبحانه.

١٣ ـ إذا كان في المكان عدد من القراء، فلا يجهر بعضهم فيشوش على الآخرين، بل تكون القراءة بحيث يسمع نفسه.

١٤ ـ ألا تكون القراءة في الأسواق وأماكن اللغط.. حيث لا يتوفر التقدير والاحترام للقراءة والقارئ.

* * *



ـ ٨ ـ
الخلاصة

كانت تلك جولة مقتضبة عن كتاب الله تعالى؛ لبيان أنه مصدر المعلومات عن هذا الدين الحنيف.

وبعد:

فمن أراد أن يعرف وحدانية الربِّ تعالى وأسماءه وصفاته؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف الإسلام والإيمان والإحسان؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف النبيَّ محمداً ﷺ[1]؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد إجابةً على أسئلته بشأن عالم الغيب؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف مكانة العقل في هذا الدين؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يعرف كيف يزكي نفسه؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن أراد أن يتعلَّم الإخلاص في أعماله؛ فليقرأ القرآن الكريم.

ومن.. ومن..

إنه كتاب الله تعالى الذي وصفه رسول الله ﷺ فقال:

«كتاب الله:

فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم.

وهو الفصل ليس بالهزل.

من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.

---

(١) اقرأ ـ إن رغبت وعلى سبيل المثال ـ قصة غزوة بدر في سورة الأنفال، وقصة غزوة أحد في سورة آل عمران، وقصة غزوة الخندق في سورة الأحزاب، وسورة التوبة، وسورة محمد ﷺ، وسورة الفتح، وسورة وسورة.. فسيرته ﷺ يسجِّلها القرآن حتى في أدق تفاصيلها في بعض الأحيان.

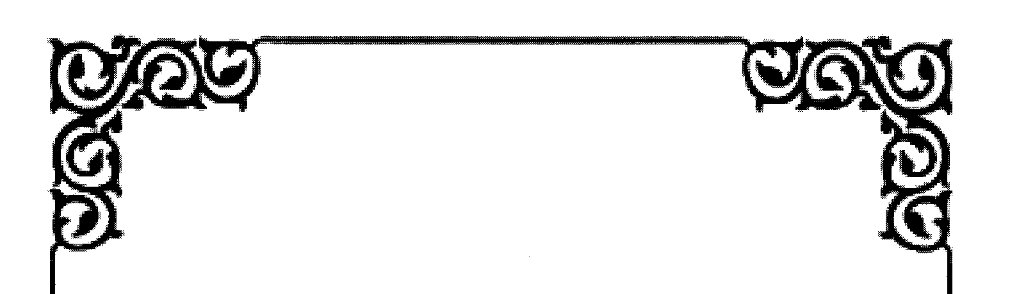
هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق على كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبه..

هو الذي لم تنتهِ الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١ ـ ٢].

من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم»[(١)].



(١) رواه الترمذي (٢٩٠٦)، والدارمي (٣٣٣١).



المقصد الثاني

آثار الالتزام بالإسلام



تمهيد
الثوابت والمقررات

إن معرفة الربّ سبحانه، والدين، والرسول ﷺ؛ من أول واجبات المسلم، وقد سبق الحديث عن ذلك في المقصد الأول من هذه الدراسة.

ومطلوب من هذه المعرفة أن تصبغ الإنسان بصبغتها، فتكون جزءاً من كيانه، وصفة لازمة لا تفارقه، وليست مجرد معرفة باردة تشبه معرفة معلومة رياضية.

إن هذه المعرفة لا بدّ أن تصبغ كل تصرفات الفرد بصباغها، تصرفاته القولية والفعلية، بل والفكرية.

ولما كان الأمر كذلك، كان من المستحسن ـ بعد أن وقفنا على إيضاح المعرفة ـ أن نسعى شوطاً آخر في بيان الآثار المترتبة على الالتزام بما جاء في هذه المعرفة.

إن من رضي بالله تعالى ربّاً؛ فعليه أن يعمل على تنفيذ أوامره.

وإن من رضي بالإسلام ديناً؛ فعليه أن يعمل على تطبيق تعاليمه.

وإن من رضي بمحمدٍ ﷺ رسولاً؛ فعليه أن يتبعه ويتأسى به.

ومن أجل إيضاح هذا الجانب التطبيقي المنبثق عن هذه المعرفة، كان لابد من بيان الأمور التالية:

ـ أثر الالتزام بالإسلام على العقل.

ـ وأثره على الروح.

ـ وأثره على الجسم.

ـ وأثره على العمل.

وسيكون بيان كل أثر في باب مستقل.

* * *

ويحسن بنا قبل الخوض في الحديث عن الآثار أن نذكّر بالثوابت التي لها صلة بموضوعنا مما سبق الحديث عنه أو الإشارة إليه:

ـ ١ ـ
سبيل النجاة

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٦ ـ ١١٧].

ثم قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٤].

تقرر الآيات الكريمة وجود خطين واضحين:

الأول: الاهتداء بهدي الله تعالى، ومن سار في هذا الطريق فلا

يضل ولا يشقى، فلا يضل لأن الطريق واضح المعالم، ولا يضل لأنه يهتدي بهدي الله تعالى، ومن كان كذلك فلا يشقى، لأن معطيات السعادة كلها بين يديه، إنها السعادة في الدنيا والآخرة.

الثاني: الإعراض عن هدي الله، وهذا يؤدي إلى حياة ضنك، فيكون في ضيق نفسي وضيق روحي.. وفي الأخرى سيكون فاقد البصيرة فاقد الحجة فلن يهتدي إلى ما ينجيه من عذاب الله تعالى.

وخلاصة القول: أن الله تعالى قرر في هذه الآيات أن الهدى سيكون موضوعاً بين يدي آدم وذريته، وطريق النجاة هو اتباعه.



- ٢ -
عقيدة الأنبياء واحدة

وقد تتابع الأنبياء والمرسلون في حمل هذه الهداية ونقلها إلى الناس جيلاً بعد جيل، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

إنها عقيدة واحدة تتابع الرسل على حملها، وهنا منزلق خطير يقع به بعض الذين يكتبون عن الإسلام، وقد أوضح هذا المنزلق صاحب الظلال رحمه الله؛ فقال:

«والذين يكتبون عن الإسلام فيقولون: إنه أول دين جاء بالعقيدة الكاملة في توحيد الله، أو جاء بالعقيدة الكاملة في حقيقة الرسالة والرسول، أو جاء بالعقيدة الكاملة في الآخرة والحساب والجزاء.. وهم يقصدون الثناء على الإسلام.. هؤلاء لا يقرؤون القرآن، ولو

قرؤوه لسمعوا الله يقرر أن جميع رسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ جاؤوا بالتوحيد المطلق الخالص، الذي لا ظلَّ فيه للشرك في صورة من صوره، وأنهم جميعاً أخبروا الناس بحقيقة الرسول وبشريته، وأنه لا يملك لهم ولا لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، ولا يعلم غيباً.. وأنهم جميعاً أنذروا قومهم بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء، وأن سائر حقائق العقيدة الإسلامية الأساسية جاء بها كل رسول، وصدَّق الكتاب الأخير ما جاءت به الكتب قبله»[١].

نعم قد اختلفت الشرائع بحسب ما يناسب كل عصر وكل زمن، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، ثم كانت شريعة الإسلام هي خاتمة الشرائع الناسخة لما قبلها، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].



ـ ٣ ـ
﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾

ومن المعلوم أنَّ الفطرة والعقل يقرَّان بوجود «الخالق» ﷻ، حتى إن الجاهليين الذين بعث فيهم محمد ﷺ كانوا يقرون بذلك، وقد ذكر

(١) في ظلال القرآن، تفسير سورة الأنعام (٢/ ١١٤٧ ـ ١١٤٨)، وقال: «إنما تلك الأقوال أثر من آثار الثقافة الأوربية، التي تزعم أن أصول العقيدة ـ حتى السماوية منها ـ قد تطورت وترقت بتطور الأقوام وترقيها، وما يمكن أن يدافع عن الإسلام بهدم أصوله التي يقررها القرآن، فليحذر القراء والكتّاب من هذا المزلق الخطير».

القرآن الكريم ذلك في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

إنهم أقروا بالخالق سبحانه ولم يلتزموا بما ينبثق عن هذا الإقرار.

إنَّ الاعتراف بالله تعالى «خالقاً» يلزم منه الاعتراف بأنه مدبر ورازق.. فما كان سبحانه ليخلق الخلق ويتركهم هملاً.

إنَّ الاعتراف بالخالق يلزم منه أنه ـ وحده ـ سبحانه صاحب الحق بوضع الشريعة والنظام الذي يعمل هذا المخلوق بموجبه، بل ينبغي الاعتراف بأنه لا أحد يمكنه وضع المنهج الذي يصلح لهذا الإنسان، لأنه لا أحد يعرف مكونات هذا الإنسان وتشابكها مع بعضها إلا خالقها، فكان وحده هو صاحب الحق في ذلك والقادر عليه.

* * *

إن التلازم في وضع المنهج للمخلوق من قبل الخالق، أمر عقلي مادي لا يستطيع إنكاره إلا جاحد لا يحترم عقله، وبالتالي فهو لا يحترم نفسه، والمثال يوضح ذلك ولله المثل الأعلى.

لنفترض أن مهندساً صمَّم آلة تقوم بعدد من العمليات المعقدة،

فمن يضع دليل التشغيل الذي يوضح آلية العمل لهذه الآلة غير المصمِّم؟ هل يقبل أحد أن يقوم بهذا العمل غيره؟ لا أعتقد. . .

وإذن فالمخترع هو أدرى بكل جزئية في الآلة، بل وهو أدرى بعملها ولماذا وضعها، وهو أدرى بالحركة المنوطة بها.. وإذن فهو وحده القادر على بيان عمل كل قطعة ومكانتها من الآلة..

فهو ـ وحده ـ الذي يضع دليل التشغيل، وهو الذي يبيّن آلية العمل..

* * *

إن كل ما سبق بيانه في الفقرتين السابقتين، يجمله القرآن الكريم في كلمتين؛ وهما قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولنذكر الآية بكاملها، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فقد رتَّب الأمر على الخلق.

«إنَّ الكون كله موجود بخلق الله ربِّ العالمين، ثم هو يمضي في حركته ونظامه بأمر الله وتصريفه وقضائه، وعلى النهج الذي سنّه له، لا يملك مخالفة هذا الأمر الإلٰهي»(١).

ويدخل في هذه القاعدة «الإنسان» في جانبه اللاإرادي، فالقلب والعقل وأجهزة الجسم كلها تعمل وفقاً للنظام الذي وضعه الله، أما جانبه الإرادي فقد تفرد فيه بالاختيار ليكون محاسباً عليه.

---

(١) المنهاج القرآني في التشريع، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد، ص (٢٤ ـ ٢٥).

ولهذا كان مطلوباً منه أن يكون في جانبه الإرادي خاضعاً أيضاً للأمر التشريعي الصادر عن الله تعالى حتى يكون عبداً لله في جانبيه الإرادي واللاإرادي.

وقد أشارت آية «الحج» إلى هذا الفريق من الناس الذي خضع لنظام الله في جانبه اللاإردي ولكنه خالف الأمر التشريعي بإرادته فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: ١٨].

فكثير من الناس سجد، وكثير منهم لم يسجد فحق عليه العذاب باختياره مخالفة الأمر.

وخلاصة القول: أنَّ الإيمان بوجود الخالق، يلزم منه الإيمان بوجود منهج له، ومن ثَمَّ الخضوع لهذا المنهج.

* * *

- ٤ -



وعلى الرغم من وضوح الفكرة السابقة فإن الإسلام لا يُكرِهُ أحداً على اعتناقه، قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

«إن قضية العقيدة ـ كما جاء بها هذا الدين ـ قضية اقتناع بعد البيان والإدراك، وليست قضية إكراه وغصب وإجبار، ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري، يخاطب العقل المفكِّر، والبداهة

الناطقة، ويخاطب الوجدان المنفعل، كما يخاطب الفطرة المستكنة، يخاطب الكيان البشري كله.

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق «الإنسان» التي يثبت له بها وصف «إنسان» فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد، إنما يسلبه إنسانيته ابتداءً»[١].

إن هذه «الحرية» في اعتناق هذا الدين أمر ضروري وواجب، بل لا يمكن تصور فعالية هذا الدين تحت عامل الإكراه.

إن التزام هذا الدين يرتب على الإنسان أعمالاً وتكاليف ينبغي أن يقوم بها؛ فإذا كان هذا الالتزام عن حرية ورغبة سارع إلى القيام بها، أما عندما يكون مكرهاً فلن يقوم بها عندما تسمح له الفرصة بذلك.

ولنأخذ مثالاً على ذلك: فرض الله صيام رمضان على المسلمين، والصائم هنا هو الذي يضبط ذاته ويراقبها، فإذا كان مكرهاً فما الذي يمنعه من التظاهر بالصيام أمام الناس، ثم عندما يخلو في بيته فعندها يأكل ويشرب ما شاء؟!..

والمسلم بشر من البشر قد يخطئ، وقد يعصي الله.. وهو بعيد عن أعين الناس؛ فلو كان مكرهاً فإن تلك المعصية لن يكون لها في نفسه أي أثر، أما عندما يكون التزامه صحيحاً عن رغبة وحرية، فسوف يكون لهذه المعصية آثارها المؤرقة على نفسه.. والتي تدفعه إلى التوبة إلى الله تعالى واستغفاره، لأنه يعلم أن الله مطلع على سره وعلانيته.

والإسلام فرض الزكاة على الأغنياء، والدولة هي التي تجمعها،

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٩١).

ولكن عندما تقصِّر الدولة في أداء واجبها هذا، فإنَّ الفرد المسلم يحاسب نفسه ويقدر زكاة أمواله ثم يقدمها للفقراء المحتاجين، ولم يكن ليفعل هذا لو كان مكرهاً على الإسلام.

إنَّ هذا الدين يجعل الرقابة ذاتية بحيث يراقب كل فرد ذاته، فيؤدي واجباته وفقاً لما هو مأمور به، ويتوب ويستغفر عندما يغفل أو يقصر.. وتلك نتيجة أولى للحرية.



- ٥ -
كرامة الإنسان وحريته

إنَّ الحرية المتاحة للإنسان في الدخول في هذا الدين أو عدم الدخول فيه، إنما هي اعتراف من هذا الدين بكرامة هذا الإنسان «واحترام لإرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه، وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني»[١].

فالتلازم قائم بين «حرية الإنسان» و«كرامته»، فلن يكون كريماً إذا لم يكن حرّاً.



---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٩١).

- ٦ -
التكليف في حدود الطاقة

ولما كان الإنسان حرّاً ومكرماً، كان مكلَّفاً في حدود الطاقة، وما زاد عن ذلك فهو غير مسؤول عنه، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

«فليس في الشريعة تكليف جسدي فوق طاقة الجسد.

أو تكليف وجداني فوق طاقة الوجدان.

أو خطاب للعقل مناقض لطبيعة العقل»(١).

ولما كان الإنسان حرّاً ومكرماً في هذا الدين، كان محاسباً على ما يفعله باختياره، أي: ما يفعله وهو «قاصد» فعله، أما ما يفعله بعامل الإكراه أو الخطأ أو النسيان فلا مسؤولية عليه في ذلك من حيث الإثم عند الله تعالى(٢).

* * *

(١) معالم شخصية المسلم، للدكتور يحيى هاشم حسن فرغل، ص (٢٠)، منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا.

(٢) لا مسؤولية من حيث الإثم، لكنه في الخطأ والإكراه قد يكلَّف بالقضاء كما في أحكام الصيام.

ـ ٧ ـ
النظرة الكلية للإنسان

ولقد كرَّم الله الإنسان بالعقل، واعتمد هذا «العقل» وسيلة للتعرّف عليه ﷻ، منطلقاً من مسلَّمات الفطرة مستعيناً بالكتابين:

١ ـ كتاب الله المنزل على رسوله ﷺ، والداعي إلى التفكر وإعمال العقل.

٢ ـ وكتاب الله المنظور، وهو هذا «الكون»؛ فإن النظر فيه يدلّ على الخالق ﷻ.

فإذا اعترف هذا العقل بوجود الخالق، وآمن به، وبما جاء من عنده، كان فرضه الأول: التسليم.

أي: الاستسلام لما جاء من عند الله تعالى بوساطة رسوله ﷺ.

والاستسلام لما جاء عن رسوله ﷺ.

وهذه هي نقطة الانطلاق في الالتزام بهذا الدين، وهو معنى «الإسلام».

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

وهذا الاستسلام استسلام مطلق، للأمر والنهي، سواء أعرف الحكمة أم لم يعرفها، وسواء أقبله العقل أو خالفه.

إنَّه «الإيمان بكل ما أخبر به النبيّ ﷺ وصحّ به النقل عنه فيما شهدناه أو غاب عنا، نعلم أنَّه حق وصدق، سواء في ذلك ما عقلناه، وما جهلناه ولم نطلع على حقيقة معناه»(١).

وبما أنَّ الإنسان مجموعة من الخصائص الجسمية والوجدانية والعقلية، ومجموعة من الاستعدادات والميول والغرائز والدوافع، والتي منها الفطري ومنها المكتسب، فإنَّه بكليته تلك ينبغي أن يكون راضياً بهذا الاستسلام.

لأن نظام هذا الدين يتناول الحياة كلها، فهو «يستغرق الإنسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعاً».

ومن هنا «فإن حقيقة الإيمان ما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط.. موجه كله إلى الله، لا يبتغي به صاحبه إلَّا وجه الله، وهي طاعة لله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة، لا يبقى معها هوى في النفس، ولا شهوة في القلب، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله»(٢).

ومن فضل الله على الإنسان أن جعل تعاليم هذا الدين الحنيف

---

(١) عن كتاب: لمعة الاعتقاد.

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٥٢٨).

تتناول نشاطه كلَّه، ولذا فهي تأخذ بيده باعتبارها الدليل المرشد في كلِّ شأن من شؤون الحياة.

«فالإسلام يتناول الحياة كلها، بكل ما تشتمل عليه من تنظيمات، ويرسم للبشر صورة كاملة لما ينبغي أن تكون عليه حياتهم في هذه الأرض.

إنَّه يتناول الإنسان من يقظته في الصباح الباكر، حتى يسلم جنبه للنوم في آخر المساء.

يعلِّمه ويلقِّنه ماذا يصنع، وماذا يقول أول ما يفتح عينيه، ثم حين يقوم، ثم حين يقضي ضرورته، ثم حين يؤدي صلاته، ثم حين يضرب في مناكب الأرض باحثاً عن رزقه ـ زارعاً أو صانعاً أو عاملاً أو بائعاً أو شارياً ـ ثم حين يتناول طعامه، ثم حين يستريح من القيلولة، ثم حين يعود في آخر اليوم، ثم حين يلقى زوجته وأطفاله، ثم حين يضع جنبه، ثم حين يأخذ بالنوم..بل إذا صحا كذلك وسط النوم فزعاً، أو غير مفزع.

وكما تناول الإسلامُ الإنسانَ فرداً في جميع أحواله، فقد تناوله كذلك وهو يعيش في المجتمع مع غيره من الأفراد.

فعلَّم المجتمع ولقَّنه كيف تكون الصلاتُ بين أفراده، وكيف تكون العلاقات، وكيف ينشئ تقاليده على المودة والإخاء والحب، والتكافل والتعاون، وكيف يشتري وكيف يبيع، وكيف يزرع وكيف يجني، وكيف يملك وكيف يوزع الثروة بين الأفراد.

وكما تناول الفرد والمجتمع تناول كذلك «الدولة» ممثلة المجتمع»[1].

---

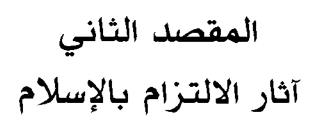
(١) قبسات من الرسول، للأستاذ محمد قطب، ص (١٦٩ ـ ١٧٠).

وهكذا فإن تعاليم هذا الدين تتناول الإنسان كله: عقلاً، وروحاً، وجسماً، وعملاً.

وبما أنه يصعب الحديث عن ذلك جملة واحدة، كان لابدّ من اتباع الأسلوب المدرسي، بحيث يكون الحديث عن كل عنصر من هذه العناصر في باب مستقل، وإن كنت على يقين بأنَّ الاشتراك قائم بين مكونات الإنسان، وأنَّ الفعل الواحد قد يشارك فيه العقل والوجدان والجسم في آن واحد، ولكنا في البحث الموضوعي لا غنى لنا عن استخدام الطريقة المدرسية.

ووفقاً لذلك فسوف يكون الحديث عن الآثار على العقل أولاً، ثم على الروح أو الوجدان، ثم على الجسم، ثم على العمل الصادر عن الإنسان ككل.





البَابُ الأَوَّلُ

آثار الالتزام بالإسلام على العقل

تمهيد

تقوم الحياة في التصوُّر الإسلامي ـ وهو التصور الموافق للواقع ـ على وجود عالمين:

١ ـ عالم الغيب: وهو ما غاب عن الناس علمه.

٢ ـ عالم الشهادة: وهو ما يشهده الناس ويرونه.

وللعقل دوره الكبير في كل من العالمين، وإن كان يغلب عليه في الأول دور المتلقي، ويغلب عليه في الثاني دور الفاعل والمنتج.

وبناءً على هذا التقسيم فسوف يكون حديثنا عن هذا الموضوع في فصلين:

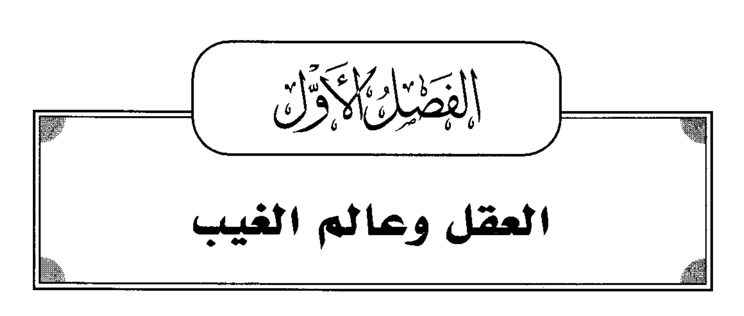
ـ نكون في الأول منهما مع «عالم الغيب».

ـ ونكون في الثاني مع «عالم الشهادة».

ونضيف فصلاً ثالثاً لنتحدَّث به عن دور العقل في ميدان التشريع.

تلك هي المجالات التي يعمل فيها العقل.

❁ ❁ ❁



الفصل الأول

العقل وعالم الغيب

«إن الله سبحانه يصف المؤمنين في مواضع كثيرة من القرآن بأنهم الذين يؤمنون بالغيب، فيجعل هذه الصفة قاعدة من قواعد الإيمان الأساسية:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٣]».

«والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها «الفرد» فيتجاوز مرتبة «الحيوان» الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة «الإنسان» الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس ـ أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس ـ وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي.. كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسُّه، كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيُه في عمره القصير المحدود، وأن وراء الكون ـ ظاهره وخافيه ـ حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمدَّ من وجودها وجوده.. حقيقة الذات الإلـٰهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول».

«والإيمان بالله سبحانه، هو إيمان بالغيب، فذات الله سبحانه

غيب بالقياس إلى البشر، فإذا آمنوا فإنما يؤمنون بغيب، يجدون آثار فعله ولا يدركون ذاته، ولا كيفيات أفعاله.

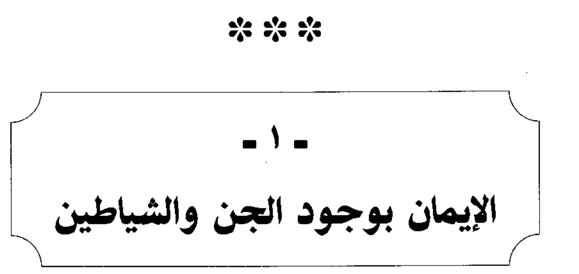
والإيمان بالآخرة كذلك، هو إيمان بالغيب، فالساعة بالقياس إلى البشر غيب، وما يكون فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب كله غيب يؤمن به المؤمن، تصديقاً لخبر الله سبحانه.

والغيب ـ الذي يتحقق الإيمان بالتصديق به ـ يشمل حقائق أخرى يذكرها القرآن الكريم..»[١].

ومن ذلك ما ذكره عن الملائكة والشياطين والجن.. ومستقبل الحياة.. وغير ذلك.

وقد سبق الحديث عن «معرفة الله تعالى» وعن «الملائكة، واليوم الآخر»، ونستكمل في هذا الفصل بعض الأمور التي لم يسبق الحديث عنها، ومن ذلك:

* * *



ـ ١ ـ
الإيمان بوجود الجن والشياطين

عالَم الجن عالم حقيقي، جاء ذكره في الآيات القرآنية الكريمة وفي الأحاديث الصحيحة، فمن أنكره أنكر الآيات القرآنية الكريمة التي تحدّثت عنه.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى:

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ١١١٤، ١١٢٠).

«لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمداً ﷺ إليهم.

وهذا لأن وجود «الجن» تواترت به أخبار الأنبياء تواتراً معلوماً بالضرورة، ومعلوم بالضرورة أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة، بل مأمورون منهيون، ليسوا صفات وأعراضاً قائمة بالإنسان أو غيره، كما يزعمه بعض الملاحدة»[(١)].

* * *

وبما أن «الجن» عالم غيبي فقد ألصقت به كثير من الأساطير والخرافات!.. ولغرابتها وجدتْ آذاناً تستمع إليها!.. حتى وصلت إلى كتب التفسير وغيرها من كتب المسلمين، وهذا ما دعا الإمام ابن كثير إلى التنبيه على ذلك، فقال:

«.. وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدّمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل، وزيادة، ونقصان»[(٢)].

وبما أنه عالم غيبي فليس هناك ما يقودنا إلى الحقيقة إلا الخبر الصادق.. وقد وصل إلينا من القرآن والسنة ما يعطينا التصور الصحيح عن هذا الموضوع.

والإسلام حرصاً منه على احترام العقل، أعطاه الحقيقة ـ في هذا الموضوع وغيره ـ بعيداً عما شابها من الترَّهات.

---

(١) الفتاوى (١٩/ ١٠).

(٢) تفسير ابن كثير، عند الآية (٥٠) من سورة الكهف.

ونحن في هذا البحث لن نخرج عن النص القرآني الكريم والحديث الصحيح، ففيهما غنية كما قال الإمام ابن كثير.

• قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

تبيّن الآية الكريمة الغاية من خلق هذين العالمين، ألا وهي «العبادة»، وإذن: فالجن كالإنس في قضية التكليف.

وقد ذكرهما القرآن الكريم في مواطن كثيرة، في خطاب واحد.

فقد أرسل الله إليهم الرسل يبلغونهم أوامره تعالى، ولهذا يكون من خطابه سبحانه يوم القيامة: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

ويسجل القرآن الكريم أنهم كانوا على معرفة بالأنبياء السابقين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٠].

ولما أراد سبحانه التحدي بشأن القرآن قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وبيّن ـ سبحانه ـ أن الذين لا يهتدون بأمر الله من الفريقين مآلهم إلى النار، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وخلاصة القول: إن الجن ـ كالإنس ـ مكلفون، قال الإمام ابن تيمية: «الجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم.. مشاركون الإنسان في جنس التكليف بالأمر والنهي والتحليل والتحريم، هذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين»(١).

• وجاءت النصوص تبيّن أن المادة التي خلق منها الجن هي النار.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤ ـ ١٥].

وقال تعالى ـ حاكياً قول إبليس ـ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وفي الحديث: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم**»(٢).

وخلق الجن متقدم على خلق الإنسان:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٧].

وفي الحديث: عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لما**

---

(١) الفتاوى (٤/ ٢٣٣).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٦).

صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خُلق خلقاً لا يتمالك»(١).

فهذا يدل على أنَّ خلق إبليس سبق خلق آدم عليه السلام.

● وهل إبليس أبو الجن أم واحد منهم؟.

قال الإمام الحسن البصري: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر»(٢).

وكذلك قال الإمام ابن تيمية: إن إبليس هو أبو الجن(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] ما يفهم أنه واحد منهم.

والشياطين هم كفار الجن، وإلى هذا جاءت الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال مجاهد في تفسير الآية: كفار الجن شياطين، يوحون إلى شياطين الإنسان ـ كفار الإنس ـ زخرف القول غروراً(٤).

● والجن يأكلون ويشربون، فقد جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**إذا دخل الرجل بيته، فذكر**

---

(١) رواه مسلم (٢٦١١).

(٢) جاء هذا في تفسير ابن كثير، عند الآية (٥٠) من سورة الكهف، وقال: رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه.

(٣) الفتاوى (٤/ ٢٣٥، ٣٤٦).

(٤) تفسير ابن كثير، عند تفسير الآية المذكورة.

الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء»[(١)].

وفي رواية له، قال: قال ﷺ: «**لا تأكلوا بالشمال، فإن الشيطان يأكل بالشمال**»[(٢)].

أما الطعام الذي يتناولونه، فهو الطعام الذي يتناوله بنو آدم، كما في الحديث السابق وأمثاله من الأحاديث.. يضاف إلى ذلك ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، حيث قال: إن رسول الله ﷺ قال له: «**ابغني أحجاراً أستنفض بها، ولاتأتني بعظم ولا بروثة**».. فأتيته بأحجار أحملها في طرف ثوبي حتى وضعتُ إلى جنبه، ثم انصرفت، حتى إذا فرغ مشيت معه، فقلت: ما بال العظم والروثة؟ قال: «**هما من طعام الجن، وإنه أتاني وفد نصيبين ـ ونعم الجن ـ فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعاماً**»[(٣)].

وجاء في حديث مسلم: وسألوه الزاد، فقال ﷺ: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم**»[(٤)].

● وهم ـ مثل بني آدم ـ يتوالدون، ولهم ذرية، وقد جاء هذا صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ

---

(١) رواه مسلم (٢٠١٨).

(٢) رواه مسلم (٢٠١٩).

(٣) رواه البخاري (٣٨٦٠).

(٤) رواه مسلم (٤٥٠).

إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وهم يموتون أيضاً، كما جاء في الحديث المتفق عليه: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبيّ ﷺ كان يقول: «**أعوذ بعزتك، الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**»(١).

● أما قدراتهم فهي بشكل عام أقلّ من قدرات المؤمنين، وإن كان لهم بعض الخصائص التي لا يستطيعها البشر.

ففي قصة عرش بلقيس التي ذكرها القرآن الكريم تبيّن أن قدرة الذي عنده علم من الكتاب، وهو من البشر، أكبر من قدرة العفريت من الجن، ويحسن بنا أن نذكر النص القرآني ففيه اليقين.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠].

وقد وصف الله تعالى كيد الشيطان بالضعف فقال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان جنح الليل فكفوا صبيانكم؛ فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب**

---

(١) رواه البخاري (٧٣٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٧١٧).

ساعة من الليل فحلوهم، فأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً».

وفي رواية لمسلم: «**غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناء..**»(١).

وهكذا تبدو قدرتهم محدودة.

● ولهم القدرة على التشكُّل بأشكال الإنسان والحيوان، وقد ذكر القرآن قصة إبليس يوم بدر؛ إذ جاء في صورة سراقة بن مالك وحرَّض المشركين على القتال، ووعدهم بالمساعدة.. فلما التقى الفريقان ورأى الملائكة ولَّى هارباً.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وتروي كتب السيرة مشاركته كبار قريش اجتماعهم في دار الندوة يوم هجرة النبيّ ﷺ، وتحريضه إيّاهم على قتله.

● ولهم القدرة أيضاً على الارتفاع في جوِّ السماء، وقد سجل القرآن الكريم ذلك في سورة الجن، فقال تعالى ـ ذاكراً قولهم ـ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ٩].

(١) رواه البخاري (٥٦٢٣)، ومسلم (٢٠١٢).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «يخبر الله تعالى عن الجن حين بعث رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك، لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط، ولا يدرى من الصادق، وهذا من لطف الله بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز».

وجاء في الحديث المتفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

«انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه، عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حدث، فانطلقوا، فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، قال: فانطلق الذين توجَّهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمَّعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢]، وأنزل الله ﷻ على نبيّه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١] وإنما أوحي إليه قول الجن»[1].

(١) رواه البخاري (٤٩٢١)، ومسلم (٤٩٩).

• ولا سلطة للشيطان على الإنسان المسلم بحيث تكون له قدرة على إكراه الناس على الضلال، وإنما جعل الله حدود سلطته في الوسوسة وتزيين الغواية وتحسين سلوك الشر للناس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠].

فبيّن أن عمله يتم عن طريق «التزيين» وأن هذا لا يطولُ عبادَ الله المخلصين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

والشيطان مخالط للإنسان في كثير من شؤون حياته، ولذلك جاءت السنة بالأدعية المناسبة لكل موقف لتكون حصناً للمسلم من وساوس الشيطان، ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم مثل سورتي الفلق والناس.

* * *

إن الحديث عن الجن يقودنا إلى الحديث عن إبليس، الذي سجل القرآن عداوته لآدم وذريته بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٦ ـ ١١٧].

وتقرر هاتان الآيتان من سورة طه عداوة إبليس لآدم وذريته، وتحذّرنا من هذا العدو، ولقد تكرر هذا التحذير كثيراً في القرآن الكريم، الأمر الذي يدلّ على عظم هذا الخطر.. وما لم يأخذ المسلم حيطته فربما انزلق به إلى الهاوية حيث خسارة الدنيا والآخرة.

ولهذا نجد عالماً كبيراً وإماماً متقدِّماً في الفقه والحديث وعلم عيوب النفس هو الحارث المحاسبي، يعدّ «معرفة إبليس» ركناً من أركان المعرفة التي هي:

- معرفة الله تعالى.
- معرفة إبليس عدو الله تعالى.
- معرفة نفسك الأمارة بالسوء.
- معرفة العمل لله ﷻ.

ويحسن بنا أن ننقل كلامه في هذا الشأن؛ فهو متناسب مع ما جاء في القرآن العظيم من تحذير ودعوة إلى الحيطة، قال:

«وأما معرفة عدو الله إبليس، فهو أن تعلم أن الجليل ـ جلَّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه ـ قد أمرك بمحاربته ومجاهدته في السرّ والعلانية، في الطاعة والمعصية.

وتعلم أنه قد عاند الله تعالى في عبده آدم عليه السلام وضارَّه في ذريته، تنام ولا ينام عنك، وتغفل ولا يغفل عنك.. دائباً مجتهداً في عطبك وهلكتك، في نومك ويقظتك، في سرِّك وعلانيتك.

واحذر الشيطان في الطاعة فيبطلها عليك، وفي المعصية فيوقعك فيها، لا يألو بك حيلة ولا خديعة ولا مكراً.

وليس راحته في أن يوقعك في المعصية، ولا أن يوقعك في رياء ولا إعجاب، إنما أمنيته أن ترد معه حيث يورد، وهي جهنم أعاذنا الله منها.

فإذا عرفته بهذه الصفة والمنزلة، فألزم قلبك معرفته والحذر منه في الحق والباطل، بلا غفلةٍ ولا سهو منك.

فحاربه أشدّ المحاربة وجاهده أشدّ المجاهدة ظاهراً وباطناً.

ولا تدع أن تفزع إلى الله في حركاتك كلها، فلتستعن به، وتؤدي إليه من نفسك الفقر والفاقة واللجوء إليه، فإنه لا حيلة لك ولا قوة إلّا به.

واسأل الله تعالى النصر عليه جاهداً متذللاً بالبكاء والتضرع.

وهو أول من عصى الله ﷻ، وعادى أولياء الله تعالى من الأنبياء والصالحين.

واعلم أنك في جهاد عظيم، وفي قرب من الربِّ جلَّ ثناؤه.. فاثبت ولا تعجز..

فالله اللهَ لازم، ولا تأمنه ـ الشيطان ـ، فما خلق الله ﷻ أشدَّ عليك منه، فالحذر الحذر منه، فإنما هو الورود على العطب، أو النجاة بفضل الله ﷻ، أعاذنا الله وإيّاك من إبليس وجنوده..»[١].

وإذا كنت على صلة بالقرآن الكريم وكثرة تحذيره من الشيطان، فلن تستغرب هذا الكلام من الإمام المحاسبي.

نكتفي بهذا القدر من الحديث عن هذا الموضوع، وما ذكرته يعطي التصوُّر المجمل، ومن كان على صلة بالقرآن والسنة فسوف يكون أمام صورة أشمل وأدق.

والذي يهمنا التركيز عليه في هذا الموضوع، أنَّ العقل مهما بذل من جهد وهو بعيد عن وحي الله تعالى؛ فلن يصل إلى عُشر هذه الحقائق التي جاءت في النصوص الإسلامية الصادقة.

---

(١) شرح المعرفة، للحارث المحاسبي، ص (٣٢ ـ ٣٥)، حققه صالح الشامي، نشره: دار القلم بدمشق.

وبهذا يكون الإيمان بهذا الدين قد وفر على العقل الجهد الذي لن يوصله إلى الحقيقة، وأعطاه ذلك دون كبير عناء.

وهذا من رحمة الله بعباده، وتوفيراً للوقت الذي هو أثمن من أن يضيع في الأوهام.. ولكي لا نحرث في البحر.



- ٢ -
أسئلة تحتاج إلى أجوبة

إنَّ الإنسان الذي لم يهتدِ بهدي الله تعالى، تطرح عليه نفسه أسئلة تجعله في حيرة من أمره، لأنَّه لا يجد جواباً عليها، وهذه الأسئلة تنصبُّ عادة على قضايا كبرى، كالمنشأ والمصير، والموت وما بعد الموت..

وهذه الأسئلة ليست في نطاق العلم حتى يجيب عليها، كما أنها ليست في دائرة الفلسفة حتى تجيب عليها.. وعندما يتبرع أحدهما بالجواب، فإنه يخبط خبط عشواء فيأتي بالعجب العجاب.

وقد صوَّر أحد الشعراء حيرة هذا الإنسان الذي لم يهتدِ بهدي الله تعالى، فجاء وصفه في غاية الدقة، ولنذكر بعض قوله ففيه البيان الواضح:

جئتُ، لا أعلمُ من أينَ، ولكني أتيتُ
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيتُ
وسأبقى ماشياً إن شئتُ هذا أو أبيتُ
كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي
لستُ أدري

أجـديـد أم قـديـم أنـا فـي هـذا الـوجـودِ
هـل أنـا حـرٌّ طـلـيـق أم أسـيـرٌ فـي قـيـودِ
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مَقُودِ
أتــمــنــى أنــنــي أدري ولــكــن
لستُ أدري

ولقد قلتُ لنفسي وأنا بين المقابرْ
هل رأيتِ الأمنَ والراحةَ إلَّا في الحفائرْ؟
فأشارت، فإذا الدود عيثٌ في المحاجرْ
ثــم قــلــتُ: أيــهــا الــســائــل إنــي..
لستُ أدري

إنني أشهد في نفسي صراعاً وعراكا
وأرى ذاتي شيطاناً وأحياناً ملاكا
هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذاك اشتراكا
أم تــرانــي واهــمــاً فــيــمــا أراه؟
لستُ أدري[1]

---

(١) من قصيدة للشاعر إيليا أبو ماضي عنوانها: «الطلاسم».
وقد عارض عدد من الشعراء قصيدة إيليا أبو ماضي، وردوا عليها، ومنهم الشاعر فتحي محمد سليم، وهذه بعض المقاطع من قصيدته:

إنــنــي أدري وأدري بـيـقـيـن
أنـنـي سُوِّيـتُ من ماء وطـين
مضغةٌ من نطفةٍ، ماءٌ مهين
خُلِّقَتْ في الرَّحْمِ في كِنٍّ مَكين
نـبـأُ الـحـقِّ وقـرآنٌ مـبـيـن
عن رسولٍ صادقِ الوعدِ أَمين
إنَّـه تـنـزيـلُ ربِّ الـعـالـمـين
حكمة بالغةٌ، لو كنت تدري
لـسـت تـدري

إنـني أدري وأدري كيـف أدري

إنها الحيرة، وإنه القلق، وإنه الصراع مع الذات.. أسئلة كثيرة لا تجد الجواب.

وقد صور القرآن هذه الحالة بأسلوبه الفريد وبلاغته العالية فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

إنهما صورتان: لمؤمن وكافر، فالكافر يمشي منكبّاً على وجهه منحنياً لا مستوياً، لا يدري أين يسلك، ولا كيف يذهب، بل هو تائه حائر ضال.. والمؤمن يمشي منتصب القامة على طريق واضح المعالم مستقيم..

وجاءت هذه الصورة مرة أخرى بأسلوب آخر، في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن

= إنني أملكُ من شأني وأمري
إنني أفهمُ ما في الكونِ يجري
في حدودٍ ضمنَ تفكيري وقدري
وسلوكي باختياري لا بقسْر
غايتي إرضاءُ من قدْ شدَّ أسْري
شرعُ ربِّي فيه إصلاحي وخيري
سوف تدري
إن في الناسِ كريماً وحليما
إن فيهم خاسئاً وَغْداً لئيما
إن في الجنَّةِ خيراً ونعيما
إن في النَّارِ عذاباً وسموما
جُمِّعَتْ أضدادها جمعاً حكيما
فاتركِ العلمَ لمن يدري ويدري
سوف تدري

مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً، أي في الضلالة هالكاً حائراً، فأحيا الله قلبه بالإيمان، وهداه له، فهو يعرف كيف يسلك وكيف يتصرف، لا سيما والنور ـ الذي هو القرآن ـ يضيء له الطريق.. أما الآخر فهو قائم في وسط الظلام الحالك لا يدري أين يتوجه.. فالظلام يحيط به من كل جوانبه.

ولكن الإنسان هو الذي يضع نفسه في هذا الظلام عندما لا يستفيد من الحواس التي وهبت له، فالله سبحانه وهب الإنسان العقل المفكر والعين المبصرة والأذن التي تسمع.. فحين يغلق هذه المنافذ التي تصله بما يحيط به يكون في هذا الظلام.

أما حين يستفيد منها فسوف يتعرَّف بها على الخالق، ويعرف أن الله أرسل الأنبياء يبلغون رسالاته... وعندها سيحيا ويجد النور الذي يمشي به، كما جاء في الآية الثانية، وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨ ـ ١٧٩].

عندما يعطِّل الإنسان حواسَّه يصبح كالأنعام يسير وفقاً لغرائزه، وعندها سيكون في ظلمات بعضها فوق بعض، فإذا صحا يوماً من غفلته ووجدت تلك الأسئلة الطريق إلى نفسه.. فلن يجد الجواب.

إنَّ هذه الأجوبة تمتلكها فئة واحدة، هي التي اهتدت بهدي الله تعالى.. إن الإسلام يمتلك الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها.

إنَّ المسلم يعلم من أين جاء وإلى أين يقصد.

وهو يمشي في طريقه حرّاً مختاراً لأنه أراد المشي في هذا الطريق.

إنه يدري ما يفعل وما يريد أن يفعل.

إنه يدري ماذا في المقابر.. وما بعد المقابر، إنَّ القضية ليست قضية هذا الجسم الفاني.. إنها قضية الروح.

وهو يدري ـ وعلى يقين ـ أنَّه يبعث ليحاسب.. يبعث نفسه بعظمه ولحمه وشحمه، يبعث كله، ويعرف ذاته.. يحييه الذي أنشأه أول مرة.

والمسلم لا يشهد صراعاً مع ذاته، وإنما الصراع مع شيطانه.. عندما يريد أن يضله.. والمسلم يعيش في أمن مع ذاته ومجتمعه.

إنَّ الإسلام يمتلك الإجابة على هذه الأسئلة كلها.. وإذا كان المجال لا يتسع هنا للإجابة عنها فيحسن بنا أن نقف على واحد منها، وهو:

ما هي الغاية من وجود الإنسان؟.

وقد جاء الجواب واضحاً صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إنَّ غاية الوجود الإنساني هي العبادة، ومعناها الخضوع الشامل لله وحده في كل شؤون الحياة، وليست مجرد «الشعائر التعبُّدية» التي تعارف عليها الناس، بل هي أوسع وأشمل من ذلك.

«إنَّ حقيقة العبادة تتمثَّل في أمرين رئيسين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي استقرار

الشعور على أنَّ هناك عبداً وربّاً، وليس في الوجود إلا عابد ومعبود، وإلا رب واحد والكل له عبيد.

والثاني: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض.. كلها عبادة، وكلها تحقق الوظيفة التي خلق الجن والإنس من أجلها.

عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعراً أنه هنا للقيام بوظيفته من قبل الله تعالى.. لا غاية له إلا الطاعة.. وجزاؤها يجده طمأنينة ورضا في نفسه عن عمله في الدنيا.. ثم يجده في الآخرة تكريماً ونعيماً وفضلاً عظيماً»[١].

وهكذا يعرّفه الإسلام لماذا هو موجود في الدنيا، وهذا يجعله قاصداً لكل عمل يقوم به، عارفاً بما يريد.. وعندئذ فلن يكون للعبث مكان في حياته، لأنها في نظره أثمن من أن تضيع.

وخلاصة القول: إنَّ الإسلام يأخذ بيد الضالين في تيه الحياة ليعرفهم قيمة الحياة ومعنى الحياة.. وبهذا يحقِّق لهم إنسانيتهم وكرامتهم.

«إنَّ الإسلام يرفع من اهتمامات البشر، بقدر ما يرفع من تصوُّرهم للوجود الإنساني وللوجود كله، وبقدر ما يكشف لهم عن علة وجودهم وحقيقته ومصيره، وبقدر ما يجيب إجابة صادقة واضحة

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٨٧)، تفسير سورة الذاريات.

عن الأسئلة التي تساور كل نفس: من أين جئت؟ لماذا جئت؟ إلى أين أذهب؟...

وإجابة الإسلام على هذه الأسئلة تحدد التصور الحق للوجود الإنساني وللوجود كله؛ فإن الإنسان ليس بدعاً من الخلائق كلها، فهو واحد منها، جاء من حيث جاءت، وشاركها علة وجودها، ويذهب إلى حيث تقتضي حكمة خالق الوجود أن يذهب، فالإجابة على تلك الأسئلة تشمل كذلك تفسيراً كاملاً للوجود كله...»[1].

ولا يملك هذا التفسير إلا الإسلام.



ـ ٣ ـ
اللا محدود وعجز العقل

إنَّ العقل رهين تصوراته التي هي انعكاس لمشاهداته، كما أن هذه التصورات مرتبطة بالمكان والزمان، فإذا خرجنا به عن حدود هذا المثلث ـ التصورات، الزمان، المكان ـ بدا عاجزاً.

وعجزه ـ هنا ـ ليس عيباً فيه، لأنَّ هذا المجال يعدّ خارج مدركاته، وفوق قدراته.

ولهذا يظل التسليم هنا ـ أيضاً ـ هو الطريق الصحيح.

ولنضرب أمثلة على ذلك:

١ ـ سبق الحديث عن الإيمان بالله تعالى، وسبق القول بأنَّ معرفة

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٩٥)، تفسير سورة الطور.

«حقيقة الألوهية» أكبر من مجال الإدراك البشري، ولذا يكتفى بمعرفة آثار أفعاله ﷻ.

وسبب ذلك أنَّ «حقيقة الألوهية» هي خارج إدراك الفكر البشري لأنّها مخالفة لتصوراته ومدركاته.

قال سيد قطب رحمه الله:

«إنَّ عقيدة التوحيد الإسلامية، لا تدع مجالاً لأي تصوُّر بشري عن ذات الله سبحانه، ولا عن كيفيات أفعاله، فالله سبحانه ليس كمثله شيء.. ومن ثم لا مجال للتصوُّر البشري لينشئ صورة عن ذات الله، فكل التصورات البشرية إنّما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل البشري مما حوله من أشياء، فإذا كان الله سبحانه ليس كمثله شيء، توقف التصوُّر البشري إطلاقاً عن إنشاء صورة معينة لذاته تعالى، ومتى توقف عن إنشاء صورة معينة لذاته العلية فإنَّه يتوقف تبعاً لذلك عن تصوُّر كيفيات أفعاله جميعاً، ولم يبق أمامه إلا مجال تدبر آثار هذه الأفعال في الوجود من حوله.. وهذا هو مجاله»[1].

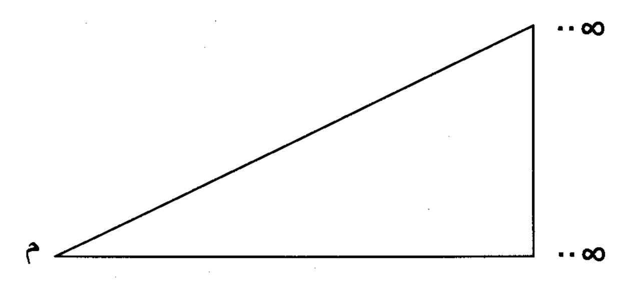
٢ ـ والعقل محدود بالزمان والمكان، وفي هذا الصدد يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله: «فالعقل لا يحكم إلا في حدود الزمان والمكان، فما كان خارجاً عنهما من مسائل الروح.. وآلاء الله وصفاته فلا حكم للعقل عليه.

ثم إن العقل محدود، لا يحكم على غير المحدود، ولا يستطيع أن يحيط به.. تصوَّر خلود المؤمنين في الجنة، إنَّ عقل المؤمن موقن بأنه حقيقة، وقد جاءه هذا اليقين من الخبر الصادق، ولكن انظر: هل

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٢٩٦).

يحيط عقلك بالخلود؟ ركّز فكرك فيه، تجد أنَّك تتصور بقاءهم في الجنة قرناً وقرنين، ومئة قرن، ومليون، وألف مليون، ثم تجد عقلك يقف عاجزاً، ويسأل: وبعد؟ إنه يريد أن يضع لذلك نهاية، إنَّه لا يدرك الـ (لا نهاية)، وإذا افترض الوصول إليها وقع في التناقض الذي يقول ببطلانه.

ومن أقرب أدلتهم هذا الدليل، وهو أن تخرج من نقطة (م) مثلاً ـ في الشكل ـ شعاعين، أي: خطين مستقيمين متباعدين، ونفرض مدَّ كلٍّ منهما إلى ما لانهاية ∞.. فهل الخط الواصل بين اللانهايتين (∞∞) محدود أو غير محدود.



إذا قلت: إنَّه محدود، يرد عليك أنَّه بين لا نهايتين، فكيف يكون محدوداً؟!.

وإن قلت: إنَّه غير محدود، ردَّ عليك بأنَّه بين نقطتين، فكيف يكون غير محدود؟! وهذا تناقض.

فثبت أنَّ العقل يختل ميزانه إن حاول الحكم على غير المحدود..

فالعقل إذن، لا يستطيع أن يحكم، ولا يصح حكمه إلا في

الأمور المادية المحدودة، أما ما وراء المادة ـ أي عالم الغيب ـ فلا حكم للعقل عليه»[١].

٣ ـ وقد قرر هذا المعنى ـ من قبل ـ الإمام ابن الجوزي رحمه الله عندما قال:

«من تفكر في عظمة الله عز وجل طاش عقله، لأنّه يحتاج أن يثبت موجوداً لا أول لوجوده، وهذا شيء لا يعرفه الحس، وإنّما يقرُّ به العقل ضرورة، وهو متحير بعد الإقرار...»[٢].

وهكذا يعترف ابن الجوزي بأنَّ العقل يطيش وما يكاد يعقل قضية اللانهاية.. وليس أمام العقل إلا التسليم.

يجب أن نعترف بأنَّ «العقل» عاجز في ميدان الغيب، ويحسن به أنَّ يعترف بقصوره وعجزه، حتى لا يدخل في متاهات لا مخرج له منها.



ـ ٤ ـ
الإيمان بالغيب ليس إيماناً بالوهم ولا إيذاناً بالفوضى

كتب الشيخ محمد الغزالي (السقا) تحت هذا العنوان موضوعاً ذا

(١) تعريف عام بدين الإسلام، ص (٥٦ ـ ٥٧)، دار المنارة.

(٢) صيد الخاطر، الفصل (٢٧١).

صلة ببحثنا، ونَقْلُ بعض ما جاء فيه يفيد في استكمال المسائل السابقة؛ قال:

«تضمَّن الإسلام ـ كما تضمَّن غيره من الديانات السماوية ـ حديثاً عن عوالمَ أخرى غير محسوسة، وهو حديث محدد البدايات والنهايات، فهناك ملائكة لشؤون الحياة والموت، وهناك جن مكلفون مثلنا بالإيمان والصلاح، فيهم الفاسد والطيب.

وعلمنا بهذه الأجناس قاصر، والمصدر الأول لإثباتها هو الدين، والنصوص الدالة على وجودها لا يمكن نفيها.

غير أنَّ الخياليين والخرافيين من الناس وسَّعوا دائرة الكلام في هذه العوالم المغيبة، وأقحموها في شؤون مادية كثيرة، ونسبوا إليها من التصرفات والآثار ما يبرأ منه الدين.

والمسلم يلتزم ما ورد فحسب، وهو لن يخالف معلوماً من الدين بالضرورة، ولكن من حقه تكذيب الأخبار التي يقصها الواهمون، كما أن من حقه حراسة الحقائق المادية والدينية من شغب المنحرفين.

فنحن اليوم نصون الدين والعقل بنفي كل ما يشيع بين العوام من ترهات في هذه المجالات، فاستحضار الجان ـ وهو ما يسمى بتحضير الأرواح ـ شغل بباطل.

وتصديق السحر والشعوذة، وخلط المعارف الطبية بأعمال الشياطين الخفية لا صلة له بالدين.

ويتصل بذلك حساب الجمل والطوالع.

والغريب أنَّ بعض المفسرين والمؤرخين ينساق مع البله في هذا التيار.

إنَّ السمعيات لا مصدر لها إلا الكتاب والسنة، أما أخبار الناس فليست مصدر علم، بل كثيراً ما تكون محور أساطير، ولا ضير من تكذيبها.

ومما يؤخذ على المسلمين في العصور المتأخرة خلطهم بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

إنَّ العالم الأول غامض الصورة، مبهم المعالم، لا نعرف من حقائقه إلا القليل الذي عرَّفنا به الشارع لحكمة قصد إليها.

أما العالم الذي نعيش فيه، فهو واضح الصورة، بيّن المعالم، لعناصره خصائص ثابتة، وللعلاقة بين بعضها والبعض الآخر قوانين محكمة.

غير أنَّ بعض المتدينين يلبس هذا بذاك، فلا تتماسك في ذهنه صورة دقيقة للحياة وسننها، بل تتحول «المادة» وصفاتها وقوانينها إلى سائل رجراج يتساوى فيه الممكن والمستحيل.

يقص القشيري عن ذي النون المصري: أنَّه أقسم على شجرة ليس فيها رطب أن تنثر رطباً جنيّاً، فنثرت.

ويقص: أنَّ أبا تراب النخشبي عطش أصحابه فضرب برجله الأرض، فانفجرت عين من ماء زلال.

ويظل القشيري ينقل هذه الأساطير حتى يسوِّد بها أكثر من ست عشرة صفحة من رسالته.

بأي حق يأخذ هذا اللغو الفارغ طابع الدين؟!..

الإسلام دين يطارد الخرافة من الفكر.

والذي يهمنا هنا أن نقول في عموم وإطلاق: **إنَّ كل ما ينيم التفكير أو يخمله يستحيل أن يكون من الإسلام»**[١].

وخلاصة ما يريد أن يقوله الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: هو أنَّ ما ينقل من أوهام وترهات لا ينبغي تصديقها على اعتبارها نوعاً من الغيب الذي يجب علينا الإيمان به، وذلك لأنَّ الله تعالى بيّن لنا الغيب الذي يجب الإيمان به كما مرَّ في الفقرتين الأولى والثانية من هذا الفصل.

والغالب **أنَّ** بعض البسطاء من الناس يصدق مثل هذه القصص باعتبارها تنضوي تحت عنوان الكرامات.

والكرامات: أمر خارق للعادة يجريه الله على يد بعض الأولياء ممن التزموا بأوامر الإسلام وكانوا على درجة من التقوى.

والتصديق بالكرامات من أصول أهل السنة والجماعة، كما يقول الإمام ابن تيمية[٢].

أقول: وهذا التصديق على الجملة، فليس المسلم مكلفاً بالتصديق بواقعة معينة على أنها كرامة، **لأن** «الكرامة» لها مواصفات في شخصٍ من نسبت إليه، فما لم يكن من أهل الصلاح والتقوى كانت استدراجاً.

قال الليث بن سعد: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء؛ فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة[٣].

---

(١) ركائز الإيمان، ص (٨٤ ـ ٨٩)، الناشر: دار الاعتصام.

(٢) الرسالة الواسطية.

(٣) تفسير ابن كثير، عند تفسير الآية (٢٣) من سورة البقرة.

والخلاصة: إنَّ المسلم إن كان حاضراً ظهور هذه الكرامة على يد الرجل الصالح فله أن يصدقها، وإن نقلت إليه عن طريق صحيح فله أن يصدقها.. وليس له أن يجبر غيره على ذلك.

وإذا كانت المعجزات لم تسلم من الوضاعين الذين قاموا بتخيُّل المعجزات ونسبتها إلى النبيّ ﷺ حتى قام رجال الحديث ببيان بطلان هذا النمط من المعجزات[1]، فإن ميدان الكرامات أوسع وأرحب لدخول الأساطير فيها، وقد تبرع تلاميذ ومريدو كل شيخ باختراع كرامات لشيخهم حتى يكون مقدماً على المشايخ الآخرين.

فليس كل ما يقال في هذا الشأن ينبغي تصديقه، فقد كان لجهلة القصاص دور كبير في ترويج كثير من الخيالات ونسبتها إلى بعض المشايخ على أنها كرامات.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وكم قد زوَّق قاص مجلسه بذكر أقوام.. وكم ينقلون أن أقواماً مشوا على الماء، وقد قال إبراهيم الحربي[2]: لا يصح أن أحداً مشى على الماء قط.

فإذا سمعوا هذا قالوا: أتنكرون كرامات الأولياء؟! فنقول: لسنا من المنكرين لها، بل نتبع ما صحَّ»[3].

إن التصديق بالكرامات الصحيحة الثابتة أمر مطلوب، ضمن قواعد الشرع، ولكن هذا لا يجعلنا نلغي عقولنا ونذهب وراء

---

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع في كتاب: من معين الخصائص النبوية، ص (٢٩٨)، نشره المكتب الإسلامي.

(٢) من أعلام المحدثين، عارف بالفقه، زاهد، توفي (٢٨٥هـ). الأعلام (١/ ٣٢).

(٣) صيد الخاطر، الفصل (١٩).

الخرافات والأساطير، وقد رأينا قول الليث بن سعد، ومن بعده الإمام ابن الجوزي، وغيرهما.

إن احترام العقل أمر يقرره الإسلام، ولذلك يبيِّن له كل ما يلزمه معرفته من عالم الغيب.



خلاصة الفصل الأول

رأينا في هذا الفصل أن الإيمان بالغيب ارتقاء بالإنسان؛ لأنه يتجاوز به مرتبة «الحيوان» الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة «الإنسان» الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك.

ولكنه لم يُترك في مجال الإدراك «الكلي» بل أعطي بعض التفصيل الذي يحتاج إليه في حياته، ومن ذلك:

١ ـ عرف عن طريق الخبر الصادق أن هناك عالم غير عالم الإنسان، هو عالم الجن، وهو مخالط لبني آدم، فأعطي من المعلومات عنه ما يفي بالحاجة لكيفية التعامل معهم، وبخاصة الكفار منهم الذين يسمون «الشياطين»، وأن هؤلاء الشياطين هم أعداء للإنسان، فَعُلِّمَ كيفية الاحتراز منهم.

٢ ـ وعن طريق الخبر الصادق أعطي الإجابات على كل الأسئلة التي ـ لولاها ـ لعاش قلقاً حائراً.

٣ ـ وعرف أن «العقل» محدود، فهو غير قادر على إدراك اللامحدود، فكان لابدّ من اعترافه بالعجز في هذا المجال.

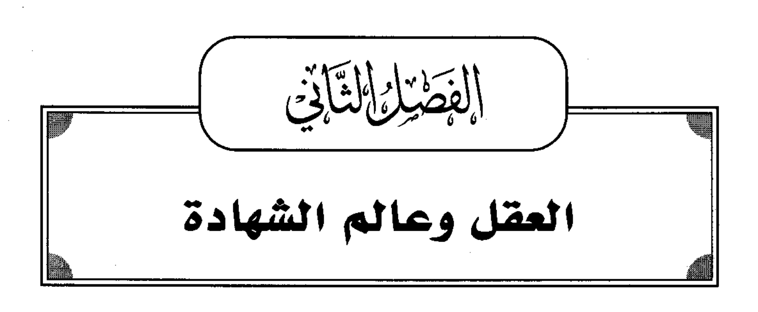
٤ ـ والإيمان بالغيب لا يعني تعطيل العقل، وقبول كل ما يلقى إلينا، بل يعني تحرر العقل وانطلاقه.

لقد أضاعت البشرية دهوراً طويلة وهي تحاول تلمُّس معالم هذا العالم ـ عالم الغيب ـ فلم تصل إلى شيء، وقد وفر «الإسلام» على العقل ضياع الزمن، وأعطاه ما يلزمه من معلومات عنه، فأفاده في أمرين:

١ ـ الحصول على المعلومة الصحيحة، وهذا كنز لا يقدر بثمن.

٢ ـ توفير جهد العقل عن أن يضيع فيما لا طاقة له به، لينصرف إلى ما فيه نفعه، فكم كسب المسلم من الوقت ـ الذي هو أثمن ما في الحياة ـ من هداية هذا المنهج له.





الفصل الثاني

العقل وعالم الشهادة

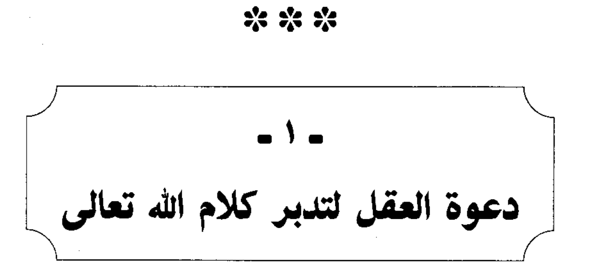
عالم الشهادة ـ كما سبق القول ـ هو العالم المشاهد المنظور، هو الكون الكبير.

والمراد بالمشاهد هنا: ما هو مشاهد بالعين المجردة، أو بالعين بوساطة الوسائل المعينة والمساعدة بحسب كل زمن وتقدمه العلمي.

ولئن كان العقل إزاء «عالم الغيب» محدود الحركة ضمن الإجابة على أسئلته، وإخباره عما يلزمه معرفته.. وتحريره من الأوهام.. وإعلامه بعجزه في بعض الميادين، فإنه هنا في العالم المشاهد له حرية الحركة والفعل، بل هو مدعو إلى العمل الجاد، فهذا الميدان ميدان عمله.

وسوف يكون بيان ذلك من خلال النقاط التالية:

***



ـ ١ ـ
دعوة العقل لتدبر كلام الله تعالى

إن أول واجبات العقل تدبر كلام خالقه ﷻ، وإعمال الفكر في الوصول إلى الفهم، ففي ذلك سعادة الإنسان.

إنه الكتاب الذي يخاطب «الإنسان» وما أنزل هذا الكتاب إلا من أجله، والإسلام عندما يدعو إلى تدبر آياته، فإنما يفعل ذلك لأنه الدستور الذي ينبغي أن يتعامل معه في حياته الدنيا، وهو الدستور الذي سيعامل وفقاً لمراده في الحياة الآخرة.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

إن أصحاب الألباب من غير المسلمين إذا تدبروه بعيداً عن المؤثرات؛ فسيأخذ بأيديهم إلى الإيمان ليكونوا في عداد المسلمين.

وإن المسلم إذا تدبره فسوف يكون ذلك عاملاً في زيادة إيمانه، «إن تدبره يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير»(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

إن سماع هذا الكتاب وتدبر آياته يزيد الإيمان، ذلك أنه يعرض حقائق الكون بحيث يتلقاها العقل والوجدان والمشاعر في آن واحد، فهو يخاطب الإنسان بكليته، ولهذا كان معجزاً، فما من كلام آخر يستطيع أن يؤدي هذا الدور.

وهو مع ذلك معجز في لغته، معجز في بلاغته وأسلوبه، معجز في إخباره عن الغيب، معجز بحقائقه العلمية التي تنكشف يوماً بعد يوم..

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٢٣٩٥).

وهو كذلك معجز بتناسق آياته وتصديق بعضها لبعض، وعدم وجود تعارض فيما بينها على الرغم من امتداد زمن نزولها ثلاثة وعشرين عاماً.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

إن عدم وجود الاختلاف فيه دليل على أنه كلام الله، والذين يظنون وجود الاختلاف والتعارض فيه لم يفهموه، فالخلل في أفهامهم فليراجعوا أنفسهم وعقولهم.

إنه الكتاب الذي يعلن عن نفسه أنه كلام الله تعالى، ويبرهن على ذلك بنفسه.

إن المسلم مطالب بإعمال عقله في آيات القرآن العظيم ليقف على حقائق الإيمان الكبرى التي لا يجدها في غيره، واقرأ معي ـ كمثال على ذلك ـ قوله تعالى:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

تخيل معي أنك في حديقة غناء ممتدة الأطراف، وارفة الظلال، كثيرة الأشجار، ثم أدر بصرك في أرجائها ثم ثبت بصرك على شجرة واحدة محاولاً تقدير عدد أوراقها.. ما كان منها على الأغصان، وما كان ساقطاً في طريقه إلى الأرض، وما كان مستقرّاً على الأرض، وما كان من هذه الأوراق رطباً وما كان يابساً.. كم هو عدد أوراق هذه الشجرة الواحدة؟ إنك لو كلفت إحصاء ذلك لاحتجت إلى وقت غير يسير، هذا إذا أمكنك القيام بهذا العمل بدقة وأمانة!..

إن عدد أوراق هذه الشجرة وأوراق أشجار الحديقة، بل وأشجار البلد، بل وأشجار الكون؛ معلومة لله ﷻ، ويظل العقل يتأمل ويفكر في قوله: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾.. إن حركة أية ورقة في كل مكان وفي كل زمان معلومة لله ﷻ.

إنه الوقوف على جانب من مثل واحد مما ذكر في هذه الآية الكريمة عن علم الله تعالى.

قال سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية الكريمة:

«إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يندُّ عنه شيء، في الزمان ولا في المكان، في الأرض ولا في السماء، في البر ولا في البحر، في جوف الأرض ولا في طباق الجو، من حي وميت، ويابس ورطب.

ولكن أين هذا الذي نقوله نحن ـ بأسلوبنا البشري المعهود ـ من ذلك النسق القرآني العجيب؟! وأين هذا التعبير الإحصائي المجرد من ذلك التصوير العميق الموحي؟!.

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير، يرتاد آفاق المعلوم والمجهول، وعالم الغيب وعالم الشهود، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح، ووراء حدود هذا الكون المشهود.

وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فجٍّ وواد، وهو يرتاد ـ أو يحاول أن يرتاد ـ أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل، البعيدة الآماد والأغوار.. مفاتحها كلها عند الله، لا يعلمها إلا هو.. ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عدّ، وعين الله على كل ورقة تسقط، هنا

وهنا وهناك، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض، لا يندُّ منه شيء عن علم الله المحيط.

إنها جولة تدير الرؤوس، وتذهل العقول، جولة في آماد من الزمان، وآفاق من المكان، وأغوار من المنظور والمحجوب، والمعلوم والمجهول.. جولة يحيا بتصور آمادها الخيال، وهي ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات.

ألا إنه الإعجاز.

وننظر إلى هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز، الناطق بمصدر هذا القرآن.

ننظر إليها من ناحية موضوعها، فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا الكلام لا يقوله بشر، فليس عليه طابع البشر.

إن الفكر البشري ـ حين يتحدث عن مثل هذا الموضوع: موضوع شمول العلم وإحاطته ـ لا يرتاد هذه الآفاق.. إن مطارح الفكر البشري وانطلاقاته في هذا المجال لها طابع آخر ولها حدود، إنه ينتزع تصوراته التي يعبر عنها من اهتماماته.. فما اهتمام الفكر البشري بتقصِّي وإحصاء الورق الساقط من الشجر، في كل أنحاء الأرض؟!..

إن المسألة لا تخطر على بال الفكر البشري ابتداء، لا يخطر على باله أن يتتبع ويحصي ذلك الورق الساقط في أنحاء الأرض، ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه، ولا أن يعبر هذا التعبير عن العلم الشامل، إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق.

وما اهتمام الفكر البشري بكل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض؟!..

إنَّ أقصى ما يحفل به بنو البشر هو الحب الذي يبذرونه في جوف الأرض، ويرتقبون إنباته.. فأما تتبع كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض، فمما لا يخطر للبشر على بال أن يهتموا به، ولا أن يلحظوا وجوده ولا أن يعبروا به عن العلم الشامل.

وما اهتمام الفكر البشري بهذا الإطلاق (ولا رطب ولا يابس)؟!.

إن أقصىٰ ما يتجه إليه تفكير البشر، هو الانتفاع بالرطب واليابس مما بين أيديهم.. فأما التحدُّث عنه كدليل للعلم الشامل، فهذا ليس من المعهود في اتجاه البشر وتعبيراتهم كذلك! إنما كل رطب ويابس شأن يحصيه الخالق، ويعبر عنه الخالق.

ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة، وكل حبة مخبوءة، وكل رطب، وكل يابس في كتاب مبين، وفي سجل محفوظ.. فما شأنهم بهذا؟! وما فائدته لهم؟! وما احتفالهم بتسجيله؟! إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب الملك، الذي لا يندّ عنه شيء في ملكه.. الصغير كالكبير، والحقير كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب.

إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائع.. مشهد الورق الساقط.. إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري والاهتمام البشري، وكذلك لا تلحظه العين البشرية، ولا تلم به النظرة البشرية.

إنه المشهد الذي يتكشَّف هكذا بجملته لعلم الله وحده، المشرف على كل شيء، المحيط بكل شيء، الحافظ لكل شيء..

وهذه الآية وأمثالها في القرآن الكريم، تكفي وحدها لمعرفة مصدر هذا الكتاب الكريم» اهـ.

إن هذا المشهد لم يوقفنا أمام جانب من علم الله تعالى وحسب، بل وأمام عظمته تعالى وجلاله ووحدانيته.. وهكذا تكون معرفة الله تعالى من خلال كلامه هي المعرفة الأمثل والأدق.. وهو ما دعا إليه الأئمة الكبار بشأن معرفته تعالى أن تكون عن طريق القرآن الكريم، كما رأينا في مقدمة القسم الأول من هذا البحث.

إن تدبر القرآن الكريم من قبل العقل تعدّ أهم وظائفه، وهي شرف له أنْ أهَّله الله لذلك.



ـ ٢ ـ
دعوة العقل إلى النظر في الكون

دعا القرآن الكريم الناس إلى النظر في مخلوقات الله تعالى؛ ليتعرَّفوا من خلالها على عظمة خالقها وجلاله.

والنظر في الكون هو المجال الثاني الذي دعي العقل إليه، ليصل به إلى ما وراء ذلك من الإيمان بالله تعالى.

والقرآن يكرر هذه الدعوة كثيراً، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ ـ ٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والآيات كثيرة كثيرة في هذا المجال.

والقرآن يعرض هذه المشاهد الكونية ليلفت النظر إليها، فكثيراً ما يكون إلف الإنسان للأشياء ومخالطتها حجاباً بينه وبين النظر فيها نظرة الفاحص المتأمِّل، ولهذا جاء القرآن منبِّهاً إلى ذلك..

والنظر هو الخطوة الأولى في تأمُّل الأشياء، ثم يأتي التفكير بعد ذلك.

وعندما يتجرَّد العقل بعيداً عن المؤثرات يستطيع أن ينفذ إلى حقائق الأشياء، فكلُّ شيء في هذا الكون يشهد بوجود الخالق سبحانه.

فالعقل عند الإنسان غير المؤمن عندما يقف أمام المشاهد التي دعا القرآن إلى النظر فيها في واقعها الطبيعي.. سيكون مدعوّاً بقوة إلى الإيمان بالله..

والعقل عند الإنسان المسلم عندما يقف أمام هذه المشاهد سيزداد إيماناً.

وستظل هذه الدعوة إلى النظر ثم التدبر ثم إعمال الفكر قائمة مهما تقدم الزمن وتقدمت وسائله، بل إن هذا التقدم ربما أتاح لنا مشاهدةً أدق وأعمق تتجاوز الظاهر إلى ما وراءه..

فقد دعا القرآن الإنسان إلى النظر في ذاته، فهو أقرب مشاهد لنفسه، فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

إنها دعوة في كلمات معدودة، ولكن الساحة المدعو للنظر فيها واسعة واسعة.

إنها دعوة لتتبُّع النظر في حياة الإنسان منذ كان نطفة فعلقة فمضغة.. إلى أن صار جنيناً.. ثم مولوداً.. ذكراً أو أنثى.. ثم بعد شبابه.. وهرمه.. وموته.

دعوة إلى النظر في الحواس كيف يجري عملها.. آلية الإبصار.. آلية السمع.. آلية التفكير.

دعوة إلى النظر في كيفية تعامل الحواس بعضها مع بعض، وكيفية استجابتها للعوامل الخارجية أو الداخلية الصادرة عن العقل.

وتقدَّم العلم ولا زالت الدعوة قائمة: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾.

ومما قاله العلم:

«إن الجلد الذي يغطي السطح الخارجي للجسم غير قابل للاختراق بواسطة الماء والغازات، كما أنه لا يسمح للجراثيم التي تعيش على سطحه بالدخول إلى الجسم، فضلاً على أنه قادر على تحطيم هذه الجراثيم بمساعدة المواد التي تفرزها غدده.

وعن طريق السطح الخارجي يتصل الجسم بالعالم الكوني، وحقيقة الأمر أن الجلد هو مأوى كمية هائلة من أعضاء الاستقبال، يسجل كل منها ـ تبعاً لتكوينه الخاص ـ التغييرات التي تحدث في البيئة، فالخلايا القابلة للمس، والمبعثرة على سطحه تحس بالضغط والألم والحرارة والبرد، وتلك الموجودة في الغشاء المخاطي للفم تتأثر بصفات خاصة في الطعام وكذا بالحرارة، أما ذبذبات الهواء فتؤثر في ذلك الجهاز شديد التعقيد للأذن الداخلية بواسطة غشاء طبلة الأذن، وعظام الأذن الوسطى، أما شبكة أعصاب الشم فتتأثر بالروائح.

والهيكل العظمي، إنه ليس مجرد إطار للجسم، إذ إنه يكون أيضاً جزءاً من نظم الدورة الدموية والتنفس والتغذية، ما دام أنه يصنع كريات الدم الحمراء والبيضاء بمساعدة نخاع العظم»[(١)].

«ومركز حاسة الإبصار في العين التي تحتوي على مئة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء، وهي أطراف الأعصاب، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب، الذي يقيها ليل نهار، والذي تعتبر حركته لا إرادية، الذي يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة، كما يكسر حدة الشمس بما تلقي الأهداب على العين من ظلال، وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين، أما السائل المحيط بالعين والذي يعرف بالدموع فهو أقوى مطهر»[(٢)].

تلك بعض المعلومات القليلة عن بعض أعضاء الجسم، ولكن لماذا لا نتحدَّث عن الوحدة الأساسية في بناء الجسم التي هي «الخلية». . فإن الحديث عنها يغني عما سواه:

---

(١) الإنسان ذلك المجهول، ألكسيس كاريل، ص (٨٢ و١٢٤).

(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٨٤٨)، نقلاً عن كتاب: الله والعلم الحديث.

«الخلية هي الوحدة الأساسية التي يتشكَّل منها الكائن الحي، ويوجد حوالي (١٠٠ ترليون) خلية أو أكثر في جسم الإنسان البالغ، والخلية موجود حي لا تدركه حواسنا، فهي تقع في نطاق ما لا ندركه ولا نبصره، ولولا اكتشاف المجهر المكبر ما استطعنا الكشف عن أسرار الخلية المبهرة، فهي من الصغر بحيث إن رؤية كُريَّة حمراء تتطلب عدسة مجهرية تكبر الجسم المرئي (١٤٠) ضعفاً، ووزن الخلية من الصغر، بحيث لا يتعدَّى الجزء من المليار من الجرام.

والخلية في حالة حياة وموت.. دائم، فالجسم يستهلك كل ثانية من العمر (١٢٥) مليون خلية، يتم استبدالها بخلايا جديدة، متطابقة متماثلة، دون أن ندري أن خلايا الجسم كلها تجدد شبابها مرة كل أسبوع، بمثل هذا المعدل، وأصل هذه الملايين من الخلايا: هو خلية النطفة الأمشاج، التي تتوالى انقساماتها حتى تصير جنيناً حيّاً يرزق.

وتتكون الخلية أساساً من جزأين رئيسين:

١ ـ **النواة**: وهي مركز الإدارة والإشراف والقيادة بالخلية، وبداخلها نويَّة مصغرة، ويغلف النواة غشاء نووي خاص، يسمح بتبادل البروتينات النووية مع هيولى الخلية.

٢ ـ **هيولى الخلية**: ويسمى السيتوبلازم، ويعتبر ميدان العمل والإنتاج بالخلية»[(١)].

فالإنسان عالم واسع، ومكوناته تعدّ بأرقام فلكية، ومقاييسها (بالميكرون) وأوزانها الواحد من المليار من الجرام.

---

(١) رحلة الإيمان في جسم الإنسان، للدكتور حامد أحمد حامد، ص (١٥)، نشرته دار القلم بدمشق.

ومع كل التقدم العلمي في عالم الطب فإن دعوة: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لن تزال قائمة، وما زالت معرفتنا بأنفسنا بدائية كما يقول الدكتور ألكسيس كاريل.

ونعود إلى الآية نفسها في قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

فقد تحدَّثنا عن الوحدة في النفس التي هي جسم الإنسان، فلنتحدث عما يشبه الوحدة بالنسبة للأرض المذكورة في الآية قبلها:

«إن الفحص المجهري لعدة مليمترات مربعة من أية قطعة صخرية تظهر أمام عيوننا عوالم من الأشكال والتراكيب والألوان التي لا يمكن تخيُّلها، هنا تتخطَّى الحقيقةُ الخيالَ، وصفيحة رقيقة من صخرة تحت الضوء المستقطب تعطينا الفرصة لنقوم بنزهة، أو سفرة طويلة، تكاد أعيننا لا تصدق ما تشاهد خلالها، هنا جغرافية جديدة، مناظر خلابة، أنهار، جبال، بحيرات، عوالم هندسية مملوءة بنماذج من النحت، عالم تسوده قوانين فيزيائية وهندسية دقيقة»(١).

إن دعوة الإسلام الإنسان لإعمال الفكر في كل ما يحيط به، ليتوصل من «المشاهَد» إلى بارئه وخالقه، واستشعار عظمته وجلاله.. ليست دعوة لغير المؤمنين حتى يؤمنوا، ولكنها دعوة أيضاً للمؤمنين ليزدادوا إيماناً.

يضاف إلى ذلك أن عملية «التفكير» تعدّ عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى.. وقد سئلت أم ذر رضي الله عنها عن عبادة أبي ذر رضي الله عنه، فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكَّر(٢).

---

(١) المجلة العربية، السنة الثانية، العدد (٢/ ٢٢)، من مقال الدكتور رفيق الفرا.

(٢) المهذب من إحياء علوم الدين (٢/ ٤٢٩)، نشرته دار القلم بدمشق.

ـ ٣ ـ
حرية العقل والعلم التجريبي

رأينا في الفقرة السابقة بعض الآيات الكريمة التي تدعو إلى النظر في السماء وفي الأرض وما خلق الله من شيء.. تبصرة لقوم يعقلون.

وإذا كانت تلك الآيات جاءت في سياق الدعوة إلى الإيمان بالخالق والتعرف على عظمته من خلال مخلوقاته.. فإنها في الوقت نفسه إثارةٌ لطاقات العقل الإنساني، وتوجيه له إلى المشاهدة والملاحظة والإدراك لشتى ظواهر الكون.. والعمل على سبر غورها بالبحث والتدبر.

إن القرآن العظيم لم يكتفِ بالدعوة إلى النظر في السماء والأرض وما خلق الله من شيء، بل وعد عباده أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم.. فقال:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

و«السين» هنا كما هو معلوم في اللغة تفيد الاستقبال، وذلك يعني أن الآية الكريمة تتحدث دائماً عن الزمن القادم.

إنه وعدٌ منه سبحانه بإطلاع الناس على خفايا في الكون وفي أنفسهم لم يعرفوها من قبل!.. وإذا كان هذا الخطاب خالداً باقياً على مرّ العصور فذلك يعني أن كل جيل يضاف إلى علمه شيء جديد.

لقد وعدهم الله أن يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم. . .

«ولقد صدقهم الله وعده فكشف لهم عن آياته خلال القرون الأربعة عشر التي تلت هذا الوعد، وكشف لهم عن آياته في أنفسهم، وما يزال يكشف لهم كل يوم عن جديد»[١].

إن المؤمن الذي تلقّى هذا الوعد: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ هو الذي خاطبه الله بقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١] ولذا سعى في البحث والنظر.

ولهذا كان المسلمون أول من وضع قواعد العلم التجريبي.

إن الوعد الوارد في الآية الأولى بإطلاع الله تعالى لهم، والتقرير الجازم في الآية الثانية بوجود هذه الآيات في الأرض والأنفس، والدعوة المتكررة في الآيات الكثيرة للنظر والتدبر دفعت المسلمين إلى البحث. . فكان العلم التجريبي.

«إن العلوم المادية، والإبداع في عالم المادة بشتى صنوفه ووسائله، موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربه وكشوفه وفروضه ونظرياته، بما أنها أساس خلافته في الأرض، وبما أنه مهيَّأ لها بطبيعة تكوينه»[٢].

وهكذا يطلق الإسلام للعقل حرية العمل بكل طاقاته، في العالم المشاهد، هذه الطاقات التي ضنَّ بها أن تضيع في ميدان ليست

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣١٣٠).
(٢) في ظلال القرآن (١/ ١٨١).

مؤهلة للخوض فيه، وهو عالم الغيب، ووفرها لتعمل في ميدانها الذي خُلقت له.

إن المسلم تعلَّم من كتابه الكريم: أن الله قد خلق هذا الكون، وجعل له سنناً لا تتبدَّل، وأنه على الإنسان أن يبحث عن هذه السنن.. وعندها سيدرك بعضها في حدود طاقته وإمكاناته.

وقد كان وعد: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ حافزاً إلى العمل الجاد..

كما جاءت أحاديث الرسول ﷺ لتؤكِّد هذا المعنى، ونكتفي بذكر مثالين في هذا الباب:

• فقد جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن النبيّ ﷺ قال: «**لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء، برأ بإذن الله عز وجل**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أنزل الله من داء إلَّا أنزل له شفاء**»[2].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل لم ينزل داء، إلا أنزل له شفاء، عَلِمَه من عَلِمَه، وجهله من جهله**»[3].

إن هذه الأحاديث الشريفة تضع بين الأيدي حقيقة مؤكدة، وهي أن كل داء له دواء، وهي حقيقة لأنها من قول الصادق المصدوق ﷺ.

وهذا ما يدفع الأطباء والصيادلة إلى البحث عن الأدوية، فهم متأكدون من وجود الدواء، وعليهم أن يبحثوا عنه.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٠٤).

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٨).

(٣) رواه الإمام أحمد (٣٥٧٨).

وهنا ينطلق العقل بكلِّ الحرية المتاحة له، وبكلِّ الطاقات التي يمتلكها ليبحث عن شيء هو متأكِّد من وجوده.. ولذا فهو لا يملُّ تكرار التجربة عندما تفشل؛ لأنها خطوة على طريق الحقيقة.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في بيان أثر هذه الأحاديث على نفسية كل من المريض والطبيب:

«وفي قوله ﷺ: «**لكل داء دواء**» تقوية لنفس المريض والطبيب، وحثٌّ على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه:

- فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء يزيله، تعلَّق قلبه بروح الرجاء.. وانفتح له باب الرجاء.

- وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء، أمكنه طلبه، والتفتيش عليه»[(١)].

وهكذا ينبعث عقل الطبيب إلى البحث وهو على ثقة من الوصول إلى الدواء.

• وقال النبيّ ﷺ: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**».

وقصة هذا الحديث كما جاءت عن عائشة ورافع بن خديج وطلحة ﭫ: أن النبيّ ﷺ لما قدم المدينة، مرَّ على قوم وهم على رؤوس النخل يلقحونه، فقال: «**ما يصنع هؤلاء؟**» قالوا: يلقحونه، فقال: «**لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً**»، فتركوه، فخرج شيصاً - هو البسر الرديء - فمرَّ بهم فقال: «**ما لنخلكم؟**» قالوا: قلت: كذا وكذا، قال: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**».

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٥ - ١٦).

وفي رواية قال: «**إنما أنا بشر، فإذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي، فإنما أنا بشر**»(١).

والحديث على قلة كلماته يضعنا أمام درس عملي، يقوم على التجربة، فالرسول ﷺ أراد أن يخفف عنهم مشقة التلقيح، وظن أنهم لو تركوه لصلح، فهي تجربة تجري باقتراح منه ﷺ، ولكن التجربة لم توصلهم إلى النتيجة المطلوبة، وعندها قال ﷺ ما قال.. وهذا يعني منه ﷺ فتح الباب للوصول إلى المطلوب، عن طريق التجربة وإعمال العقل.. وبتجربة بعد تجربة يمكن الوصول إلى المطلوب.

وهل تكتشف المعلومات المادية إلا عن هذا الطريق.

فأول الدروس المستفادة من هذه الواقعة(٢) دعوته ﷺ إلى تطوير الوسائل وأن لا يظل الإنسان على حال واحدة لا يفكر في تحسينها.. وإذا فشلت في المرة الأولى؛ فليعاود..

وفي قوله ﷺ: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**» بيان بأن أمور الدنيا تحتاج إلى علم وخبرة، ولا يمكن لهذا العلم وهذه الخبرة أن تتقدَّم وتنتج إذا لم يكن للعقل حرية التفكير والفعل.. وهذا ما فعله الإسلام.

---

(١) رواه مسلم (٢٣٦١، ٢٣٦٢، ٢٣٦٣).

(٢) إن قيمة هذه الواقعة تأتي من كونها تبين المنهج الذي قصد إليه ﷺ، فقد قصد إلى تخفيف أعباء العمل مع المحافظة على المنتج، إنه منهج في التفكير لا يقتصر على هذه الواقعة وإنما هو أسلوب في التفكير، ومن هنا جاءت قيمته.
وقد درسنا في علم الاقتصاد قديماً يوم أن لم تكن الآلة قد غطت معظم المجالات ويوم أن كان ما يزال للعامل دوره، أن العلماء كانوا يدرسون حركة يد العامل في أدائه للمهمة الموكلة إليه، ويجرون التجارب على ذلك للوصول إلى أقصر حركة وأقل جهد يوصلان إلى الغرض المنشود.
وقد سبق ﷺ إلى تحقيق مثل هذا الغرض قبل ثلاثة عشر قرناً.

إن: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**» فتح لباب العلم التجريبي على مصراعيه، ودعوة لأن يمارس كل عالم دوره في تقدُّم هذه الأمور إلى الأحسن، فيما هو من مصلحة الإنسان.

ومما ينبغي لفت النظر إليه، أن ميدان هذا العلم ـ العلم التجريبي ـ هو الساحة الفنية التطبيقية، التي يمكن لكلِّ إنسان أن يُعمل عقله وخبرته فيها، بغضِّ النظر عن دينه أو قومه أو انتمائه.

إنها ساحة العلم المادي المجرَّد، التي هي مفتوحة لكل إنسان ـ أي إنسان ـ يملك المؤهلات التي تتيح له ممارسة العمل في مخابرها ومعاملها.

قال الأستاذ محمد قطب تعليقاً على حادثة تأبير النخل بعد أن عرضها ـ كما سبق ذكر ذلك ـ:

«تلك قصة الحديث. .

وهي واضحة الدلالة فيما تركه الرسول ﷺ للناس من أمور يتصرَّفون بها بمعرفتهم، لأنهم أعلم بها وأخبر بدقائقها.

إنها «المسائل الفنية التطبيقية» التي تتناولها خبرة الناس في الأرض منقطعة عن كل عقيدة أو تنظيم سياسيٍّ أو اجتماعيٍّ أو اقتصاديٍّ.

وهي في الوقت ذاته تصلح للتطبيق مع كلِّ عقيدة، وكلِّ تنظيم؛ لأنها ليست جزءاً من أي عقيدة أو تنظيم.

بل إنها حقائق علمية مجرَّدة عن وجود الإنسان ذاته بكلِّ عقائده وكل تنظيماته، كحقيقة اتحاد الأوكسجين والهدروجين لتكوين الماء، وحقيقة انصهار الحديد في درجة كذا مئوية.

هي حقائق ليست ناشئة عن وجود الإنسان، وإنما هي سابقة له، موجودة منذ وجدت هذه العناصر في الكون.

و قصارى «تدخُّل» الإنسان فيها أن يكتشفها ويعرفها، ثم يستغلها لصالحه، ويطبقها في حياته العملية..

هي إذن المسائل «التكنيكية» البحتة بتعبيرنا العامي الحديث، المسائل التي يتحصَّل عليها المؤمنون والكفار سواء، ولا تؤثر بذاتها في عقيدة القلب أو اتجاه الشعور»[١].



ـ ٤ ـ
العلم التجريبي والسنن الإلـهية

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: صلّى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ثم أقبل على الناس فقال: «**بينا رجل يسوق بقرة؛ إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث**»[٢].

هذه الحادثة التي ينقلها لنا الرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق عن رجل ممن كان قبلنا، تبيّن أن لله تعالى سنناً في كل المخلوقات، وأن التعامل معها ينبغي أن يكون وفق هذه السنن.

فالبقرة خُلقت للحرث، ولم تخلق لتكون حيواناً يركب كالحصان والحمار، واستعمالها في غير ما خُلقت له تغيير لسنن الله تعالى..

---

(١) كتاب: قبسات من الرسول، ص(١٦٥).

(٢) رواه البخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨).

وربما لو حصل هذا باستمرار وتحوَّلت الأبقار إلى حيوانات للركوب؛ ربما أثر على طبيعتها، وربما أثر على نوعية الحليب الناتج.. لا ندري فليس هناك ـ فيما أعلم ـ بحوث في هذا الصدد.

وربما يستغرب القارئ هذا الموضوع ويتساءل عن علاقته بالعلم التجريبي والعقل، وحرية العقل.. التي نحن بصدد الحديث عنها.

والحقيقة أنَّا لم نخرج عن الموضوع، فالبقرة التي لم تخلق للركوب عليها، خلقها الله تعالى لتعيش على الأعشاب والحشائش، ولتكون هذه المادة طعامها، ولكن عندما تحول البقر إلى سلعة تجارية ـ لحماً وحليباً ـ أجريت أبحاث لزيادة وزنه بسرعة، وتبيّن أن إضافة اللحوم إلى طعامه تزيد في سمن البقرة بسرعة ويزداد وزنها، وبالتالي يزيد الربح.

وذلك لأن «البروتين» الذي يحويه اللحم يعد مادة فعالة في زيادة الوزن، ولهذا عمدت بعض البلدان المصدرة للحوم الأبقار إلى الاستفادة من بقايا اللحوم في المسالخ التي تذبح فيها الحيوانات، فأخذت كل تلك البقايا بما فيها الدماء والعظام والأمعاء والجلود.. فطحنتها وأضافتها إلى طعام الأبقار، وكذلك استفادت من الحيوانات الميتة في هذا الميدان.

ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف وجود مرض في هذه الأبقار أطلق عليه اسم «جنون البقر».. وهذا المرض يمكن أن ينتقل إلى الأشخاص الذين تناولوا لحم هذه الأبقار أو حليبها.

ولبيان الآثار الناتجة عن هذا الأمر رأيت أن أنقل واحداً من التقارير المتعلِّقة بالموضوع، فلغة الأرقام تؤدي إلى تصوُّر أوضح.

كتب «ويليام أندرهيل» في مجلة «نيوز ويك» الصادرة باللغة العربية بتاريخ (٢٠ شباط من عام ٢٠٠١م) ما يلي:

«إن الخطر الحقيقي من انتشار هذا الوباء ـ جنون البقر ـ هو موضع تكهنات الجميع، ولكن القلق منه يعم أنحاء العالم، وقد حذرت في الأسبوع الماضي «منظمة الأغذية والزراعة» التابعة للأمم المتحدة (فاو) من أن الأبقار في أكثر من (١٠٠) بلد في العالم ربما كانت قد تعرَّضت للإصابة بمرض جنون البقر، المعروف علميّاً باسم مرض التهاب الدماغ البقري ذي الشكل الإسفنجي (بي إس إي).

وقد قضى هذا المرض المهلك الذي يصيب الدماغ على ما يقرب من (١٨٠٠٠٠) رأس من البقر، ويُعزى إليه أيضاً موت أكثر من (٨٠) من البشر، منذ أن تمَّ التوصل إلى تشخيصه في بريطانيا عام (١٩٨٥م).

وقد عبرت منظمة الأغذية والزراعة العالمية عن قلق محدد حول تهديد محتمل لانتشاره في أوروبة الشرقية والشرق الأوسط وآسية، حيث قامت بريطانيا بتصدير كميات كبيرة من أعلاف الحيوانات التي ربما كانت ملوثة، بعد أن تم منع استهلاكها محليّاً عام (١٩٨٦م)[1].

ويخشى علماء الأوبئة من أن تكون الكلفة النهائية لمرض التهاب الدماغ البقري أعلى من ذلك بكثير، ويقولون: إن الفترة بين الإصابة بالمرض وظهور أعراضه على البشر قد تأخذ عقوداً من الزمن، وقد

---

(١) انظر ـ رحمك الله وعافاك ـ إلى هذه الإنسانية الرفيعة المستوى، مادة يحظر استعمالها داخل بريطانيا لضررها، تصدرها إلى الدول الأخرى!.

يكون من شبه المستحيل تشخيص المرض قبل أن يصل إلى مراحله القاتلة، ويقول علماء مرموقون بناء على استقراء معلومات مستقاة من انتشار أمراض مشابهة: إن عدد الموتى من مرض جنون البقر، والذي لا علاج له في شكله البشري، والمعروف علميّاً باسم: مرض «كروتز ـ فيلدت ـ جاكوب» (سي جي دي) قد يزيد على (١٢٥٠٠٠) في بريطانيا وحدها.

وفي الوقت نفسه، يبحث القائمون على الرعاية الصحية في العالم، أخطار الدم الذي يقدمه المتبرِّعون، والذي قد يكون ملوَّثاً، ويبحثون في سلامة وصحة كل منتج أتى من الأبقار: من أغذية الأطفال، إلى كريمات الجلد، والمصل الواقي من الشلل، وأدوية أخرى.

وتظهر يوميّاً تقريباً تحذيرات جديدة، ودواعٍ للقلق أيضاً، فقد ذكرت الصحافة اللندنية الأسبوع الماضي: أن دماً قد قدمه متبرِّع بريطاني لم يكن معروفاً بإصابته بمرض «كروتز ـ فيلدت ـ جاكوب» أن الدم الذي تبرع به هذا قد تم استخدامه في صنع مستحضر لتخثر الدم، يعطى للذين يعانون من مرض نزف الدم، وأن تلك المستحضرات قد تم شحنها إلى عشرة بلدان حول العالم، من البرازيل إلى دبي، وتصرُّ السلطات البريطانية على أن الخطر من ذلك ليس إلا حدساً، إذ ليس هناك من دلائل على انتقال هذا المرض في الدم، ومع ذلك فإن بنوك الدم في كل من أستراليا والولايات المتحدة، وبلدان أخرى كثيرة ترفض الدم من أي متبرع قضى ستة شهور أو أكثر في بريطانيا خلال الثمانينيات أو أوائل التسعينيات. .

إن الخطر الأكبر يأتي من استهلاك لحوم البقر الموبوءة، وقد

انتشرت العدوى في بريطانيا في الثمانينيات عندما قام المزارعون ـ وباستمرار ـ بإطعام أبقارهم بقايا جثث الأبقار الميتة كبروتينات إضافية رخيصة.

وقد توصَّل العلماء اليوم إلى معرفة أن جينات التهاب الدماغ البقري معدية بدرجة عالية، ويقدِّر الباحثون في الطب: أن غراماً واحداً من اللحم والعظم الموبوء في وجبة واحدة (إم بي إم) وهي بحجم حبة ذرة، كافية لنقل المرض إلى بقرة سليمة.

وبينما كان هذا الوباء ينتشر في الأبقار، قام بائعو الحبوب البريطانيون بتصدير آلاف الأطنان من الأعلاف الموبوءة، جرى تصدير أغلبها إلى أوروبة.. ولم تتوقف هذه الصادرات حتى عام (١٩٩٦م).

وتواجه بريطانيا أسئلة صعبة تتطلب الإجابة عليها: لماذا سمحت الحكومة باستمرار التصدير رغم تحذير كبير الأطباء السير «دونالد أتشيسون»؟.

وعلينا أن نتذكر أن الناس كانوا يعتقدون أن هذا المرض لا يكاد يكون موجوداً في أغلب أنحاء أوروبة لحين حلول العام الماضي ـ عام (٢٠٠٠ م) ـ عندما قام الاتحاد الأوروبي بفرض برنامج فحوصات مشددة لالتهاب الدماغ البقري، ومنذ ذلك الحين تم اكتشاف مزيد من الحالات المرضية، وفي هذا العام وحده وجدت (٢٣) حالة في فرنسا، و(٢٠) في ألمانيا، و(١٥) في إسبانيا.

ويحذِّر مسؤولو الصحة الدوليون من أن انتشار وباء جنون البقر في العالم النامي، قد يؤدي إلى خراب ودمار، فقد كان المرض قاسياً على بريطانيا التي أنفقت (ستة بلايين دولار) على جهودها

لمكافحته، بما فيها القضاء على أكثر من أربعة ملايين رأس من البقر.

ولكن ضربة كهذه قد تخرب اقتصاد دول كثيرة من دول العالم الثالث.

وتقول (ماورا ريكيتس) وهي اختصاصية في مرض جنون البقر، تعمل في منظمة الصحة العالمية: آمل أن يكون هذا المرض محصوراً في الأقطار الغنية في أوروبة، ولكنا لا نعلم ذلك...» انتهى.

هذا بعض ما جاء في هذا التقرير.

والذي نريد قوله: إن مخالفة السنن الكونية التي وضعها الله في طبيعة الأشياء هو الذي أدَّى إلى هذا الوضع المخيف والمهدِّد لحياة البشر.

إن الإسلام حينما أطلق للفكر حريته في العالم المشاهد، ودعا إلى النظر، دعاه إلى النظر في السنن التي قامت بها الأشياء.. والعمل ضمن هذه السنن.

قد يكون مفهوماً حرص التجار البريطانيين على الربح، وتسخير العلم التجريبي في سبيل زيادة الوزن وزيادة كمية الحليب بالنسبة للأبقار.

ولكن هذا يكون بالبحث في أنواع الحشائش والمزروعات.. واختيار الأفضل منها بعد البحث والتجريب، لا أن يلجأ إلى تغيير جذري في النظام الذي وضعه الله تعالى!.. فتصبح البقرة مشاركة للسبع والكلب في طعامه.

ألا يدخل هذا فيما حكاه الله ﷻ من توعُّد الشيطان للإنسان ـ بقوله:

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

أليس هذا من تغيير خلق الله؟! الله أعلم.



ـ ٥ ـ
العلم التجريبي والسراب الخادع

«في أمريكا جمعية غريبة شعارها «جمد الجسد وانتظر.. ثم اخرج مرة أخرى إلى الحياة» ولقد تأسست هذه الجمعية بعد أن ظهر كتاب اسمه «نظرات على الخلود» عام (١٩٦٤م).

وفيه شرح مؤلفه «روبرت ايتنجر» كيفية حفظ الجسد قبل موته الإكلينيكي بدقائق بوساطة تبريده فجائيّاً بالنيتروجين السائل، حيث تصل درجة الحرارة إلى حوالي (١٩٦) درجة مئوية تحت الصفر، ولابدّ والحال كذلك من وضع الجسد في كبسولة خاصة يبلغ ثمنها حوالي (٤١٠٠) دولار ـ بأسعار عام (١٩٦٨م) ـ بالإضافة إلى عشرة آلاف دولار مصاريف التجهيز، و(٤٥٠) دولاراً سنويّاً تكلفة النتيروجين السائل.

ودون الدخول في التفاصيل نقول: إنه يوجد حتى الآن حوالي (١٤) جسداً أمريكيّاً محفوظاً في كبسولات تحت درجة حرارة

منخفضة جدّاً»[١]. . ينتظرون أن يكتشف العلم طريقة إحيائهم مرة أخرى.

هذه خلاصة ما جاء بشأن هذا الموضوع الذي يطمح أصحابه بالعيش مرة أخرى، ولكن بعض العوائق تواجهه:

«**منها**: أن الدكتور «كبرتس هندرسون» رئيس جمعية التبريد الفجائي بنيويورك يعتبر أن تجميد الناس قبل موتهم يمثل جريمة قتل.

ومنها: أنه إذا تحقق ـ هذا المشروع ـ فلن يفيد البشرية شيئاً، لأن الجديد دائماً أفضل من القديم، ثم إن أهمية الإنسان تنبع من المجتمع الذي يعيش فيه. . فأفكارنا الحالية قد لا تتناسب مع أفكار المستقبل، ولا كذلك العادات والسلوك.

ثم إن الإنسان المجمَّد الذي يتوق إلى حياة جديدة في عصر غير عصره، لا يستطيع أن يهضم ويستوعب ويتقبل التغير الجذري الذي سيحل بهذا الكوكب بعد مئة أو مئتين من السنين. . ولا شك أنه سيصبح غريباً في هذا العالم، وعندما يرى ولا يعرف شيئاً مما يدور حوله، فقد تأتيه صدمة تودي بحياته، فالمعرفة الفجائية دون مقدمات قد تساوي موتاً فجائيّاً بدون مقدمات كذلك»[٢].

لقد حفظ الإسلام العقل من التفكير بمثل هذه التُّرَّهات، فحفظ له وقته وسلامة تفكيره.

ذلك أن هذا التفكير يتعارض مع أولية من أوليات الإيمان، وهي

---

(١) التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان، للدكتور عبد المحسن صالح، ص (٢٣٦)، سلسلة عالم المعرفة (٤٨).

(٢) المرجع السابق، ص (٢٣٦، ٢٣٨).

أن عمر الإنسان محدود لا يزيد ولا ينقص وأنه إذا مات لن يقوم من موتته تلك إلا يوم البعث والنشور.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

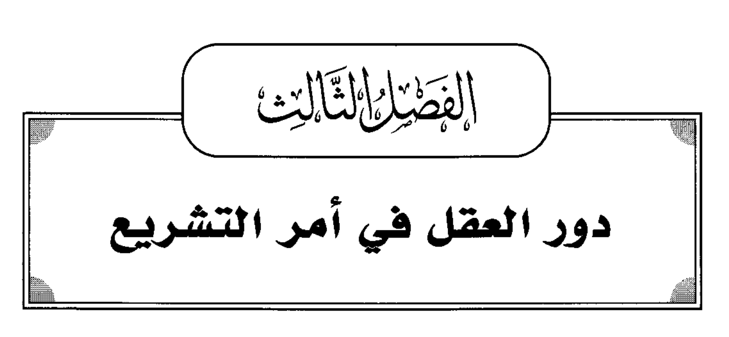
وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠].

هكذا جاء قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ليقطع كل أمل في الحياة مرة أخرى في هذه الحياة الدنيا.

وإذن: فالمسلم لا يمكن أن يتطرَّق إلى فكره التفكير في مثل هذه المسألة فضلاً عن مباشرة العمل في تجميد الجسم وما بعد ذلك.

لقد حفظ الإسلام هذا العقل فعلاً من السقوط في مثل هذه الأوهام فحقق له الكرامة.





الفصل الثالث

دور العقل في أمر التشريع

إن قضية التشريع من خصائص الألوهية، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

«يقول الشيخ محمد المدني رحمه الله تعليقاً على هذه الآية وما بعدها:

فهذه الآيات الكريمة تسبح هذا السبح الطويل في تقرير ذلك المبدأ: مبدأ إرجاع التشريع كله لله تعالى، عن طريق الرجوع إليه فيما أنزل، والرجوع إلى رسوله فيما بلَّغ أو بيَّن، والرجوع إلى أولي الأمر فيما يستنبطون، تطبيقاً للنصوص، وتنزيلاً على القواعد والمصالح، فإنهم بذلك موقِّعون عن رب العالمين، وليسوا مشرعين، أو هم ـ بتعبير آخر ـ مظهرون لحكم الله بعد التأمل في مصادره والتعرف عليه، لا منشئون لأحكام من عندهم»[1].

«وقال الشيخ محمد فرج السنهوري:

لا حاكم سوى الله سبحانه، ولا حكم إلا ما حكم به، ولا شرع

---

(١) المنهاج القرآني في التشريع، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد، ص (٢٩٩).

إلا ما شرعه، على هذا اتفق المسلمون وقال به جميعهم.. فالحاكم عند الجميع هو الله ﷻ.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد أطلق عليه اسم «الشارع» في بعض عبارات العلماء، فما كان ذلك إلا تجوزاً، مراعاة لأنه المبلِّغ عنه.

وإذا كان الشاطبي في بعض المواطن قد سمى عمل المجتهد تشريعاً، فما كان منه إلا تساهلاً، أساغه أن عمل المجتهد كاشف عن التشريع، ومظهر له، فالسلطة التشريعية هي لله وحده»[(١)].

إنه ليس من حق العقل أن يشرع ابتداء، ولكن له كل الحق ـ عندما يكون مؤهَّلاً بالمعلومات اللازمة للاجتهاد ـ أن يعمل في حدود النص، ويبذل جهده في تفهُّمه واستنباط الأحكام منه.

إن المؤهلات التي ترشِّح العقل ليكون أهلاً لفهم النصوص، نصوص الكتاب والسنة، هي العلم.. وقد بين العلماء العلم المطلوب لذلك.

ولقد حضَّ الإسلام ـ من أجل ذلك ـ على العلم، وجعل رتبته تلي رتبة النبوة، وجعل حامليه ورثة الأنبياء، بل جعل الله العلماء صفوة عباده واختصَّهم بخشيته، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

فمكانة «العلم» عند الله عظيمة، لا تصل إليها مكانة عمل آخر، وما ذلك إلا لما أنيط بالعلماء من مهمة الفقه في دين الله، والاجتهاد في أمر الوقائع المستجدة واستنباط أحكام الله لها.

---

(١) المصدر السابق، ص (٣٠٠).

وإذا كان «العقل» هو المعوَّل عليه في تحصيل العلم، تبيّن لنا المكانة الرفيعة التي تبوأها في رحاب هذا الدين.

فقد أطلق الإسلام له حرية العمل في ميدان التشريع في إطار الكتاب والسنة، مقتفياً طريقة الصحابة ﷺ ومن تبعهم بإحسان في فهم النصوص والتعامل معها.

فهذا الدين ـ الذي أكمله الله تعالى ـ جاء بنصوص وقواعد كلية قابلة للتطبيق مع مراعاة اختلاف الزمان والمكان.

يقول الإمام ابن تيمية:

«الذي عليه جمهور أئمة المسلمين، أن النصوص وافية بجمهور أحكام أفعال العباد، ومنهم من يقول: إنها وافية بجميع ذلك.

وإنما أنكر ذلك من أنكره، لأنه لم يفهم معاني النصوص العامة التي هي أقوال الله ورسوله، وشمولها أفعال العباد.

وذلك أن الله بعث محمداً ﷺ بجوامع الكلم، فيتكلَّم بالكلمة الجامعة العامة، التي هي قضية كلية، وقاعدة عامة، تتناول أنواعاً كثيرة، وتلك الأنواع تتناول أعياناً لا تحصى، بهذا الوجه تكون النصوص محيطة بأحكام أفعال العباد..»[(١)].

فمهمة العالم هي معرفة انتماء الواقعة التي بين يديه إلى أيٍّ من القواعد العامة المتفق عليها حتى يستنبط لها الحكم المناسب، وهي عملية يقوم بها العقل ويقلب وجوهها الفكر.

---

(١) المنهاج القرآني في التشريع، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد، ص (٢٨٤)، نقلاً عن الفتاوى الكبرى (١/ ٤١٠).

وعندما لا يجد العالم بغيته في طلب حكم ما، فذلك يعود إلى تقصيره، لا إلى نقص في التشريع.

ويوضِّح الإمام ابن القيم قضية التقصير في فهم النصوص فيقول:

«فكم من حكم دلَّ عليه النص ولم يفهموا دلالته عليه، وسبب هذا الخطأ حصرهم الدلالة في مجرد ظاهر اللفظ، دون إيمائه، وتنبيهه، وإشارته، وعُرفه عند المخاطبين»(١).

ومهمة فهم النصوص ـ مع مراعاة اختلاف الزمان والمكان ـ منوطة بالعلماء.

يقول الدكتور عبد الستار سعيد:

«على أننا نعود إلى التنبيه بأن الله تعالى لم يجعل شريعته مدوَّنة فقهية أو قانونية للأحكام الجزئية، وإنما ـ كما وضحنا ـ جعل فيها النص الجزئي، والقاعدة الكلية، وتعددت فيها دلالات الألفاظ، وروعي فيها عند تطبيق الأحكام على الأحوال المناسبات والعلل، والأسباب التي يدور عليها الحكم وجوداً وعدماً، وتخصيصاً وتعميماً، ونحو ذلك.

ومن ثم يتضح عظم المهمة التي يؤدِّيها أئمة العلم والاجتهاد لهذه الشريعة الربانية، في إطار تعاليمها الثابتة، وقواعدها المرنة التي كفلت لها السعة والشمول، وتلبية مصالح الأمم في كل زمان ومكان»(٢).

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٣٣٨)، دار الجيل ـ بيروت.

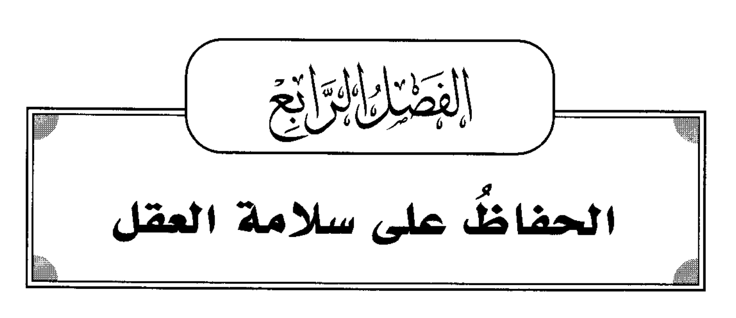
(٢) المنهاج القرآني في التشريع، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد، ص (٢٨٧).

إن دور «العقل» كبير كبير، والمسؤولية الملقاة على عاتقه عظيمة عظيمة.

وهنا يجد «العقل» كرامته وشرفه وفضله، حين يتاح له العمل في فهم النص الإلـٰهي الكريم، مع الشعور بجلالة النص، وخشية العالم صاحب العقل، وواقعية الفهم، والعمل ابتغاء مرضاة الله تعالى.

وأي ميدان أعظم من هذا الميدان يتاح للعقل أن يعمل فيه؟!.





الفصل الرابع

الحفاظُ على سلامة العقل

رأينا ـ من خلال ما سبق ـ مكانة العقل في هذا الدين الحنيف.

ومما يؤكِّد هذه المكانة أن الله تعالى جعل تكليف الإنسان بأوامر شرعية مرتبطاً بوجود العقل، فإذا غاب العقل، أو أصيب الإنسان بالجنون، فإن التكليف ـ عندئذ ـ يرفع عنه.

وهكذا فإن غياب العقل يجعل صاحبه وكأنه غير موجود على ساحة العمل فلا يطالب بشيء، ولا يؤمر بشيء.. فبانعدام العقل ينعدم الوجود الفاعل للإنسان.

وإذن فالعقل مناط التكليف.

وقد جاء التشريع الإسلامي ليحقق ويحافظ على مصالح الإنسان والتي تتمثَّل في خمسة أمور،أطلق عليها العلماء مصطلح «الكليات الخمس» وهي: الدين، والعقل، والنفس، والعرض، والمال.

وقد وضع الإسلام لكلٍّ منها من التشريعات ما يصونه به.

وبما أن الخلل الذي يصيب العقل إنما يدخل عليه من باب المخدرات والمسكرات، فقد أغلق الإسلام هذا الباب، وجعل تناول هذه الأشياء في دائرة التحريم،وهي الدائرة الأشد والأقوى في المنع.

ذلك لأنَّ الإنسان عندما يتناول ذلك يختلُّ توازنه وينعدم دوره..

من أجل ذلك جاء القرآن الكريم ليخاطب المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]

وجاءت الأحاديث الصحيحة الكثيرة لتؤكِّد هذا التحريم، وتبين العقوبة التي ينبغي أن تنزل بمن خالف أمر الله..

والإسلام عندما يحرم شيئاً يسدُّ كل المنافذ المؤدية إليه، وفي بناء هذه القاعدة التشريعية جاء قوله ﷺ: «**لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، ومبتاعها، وبائعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه**»[1].

وهكذا يصيب الإثم كل من شارك بإيصالها إلى من يتناولها، حتى ولو كانت هذه المشاركة بنقلها من مكان إلى آخر..

كل هذا يقوم به الإسلام حفاظاً على العقل ألا يغيب ولو لبعض الوقت.

«إن غيبوبة السكر ـ بأي مسكر ـ تنافي اليقظة الدائمة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم ليكون موصولاً بالله في كلِّ لحظة، مراقباً لله في كلِّ خطرة، ثم ليكون بهذه اليقظة عاملاً إيجابيّاً في نماء الحياة وتجددها، وفي صيانتها من الضعف والفساد، وفي حماية نفسه وماله وعرضه، وحماية أمن الجماعة المسلمة وشريعتها من كلِّ اعتداء.

والفرد المسلم ليس متروكاً لذاته وللذَّاته، فعليه في كل لحظة تكاليف تستوجب اليقظة الدائمة، تكاليف لربه، وتكاليف لنفسه، وتكاليف لأهله، وتكاليف للجماعة المسلمة التي يعيش فيها،

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجه (٣٣٨٠).

وتكاليف للإنسانية كلها ليدعوها ويهديها.. وهو مطالب باليقظة الدائمة لينهض بهذه التكاليف..

وغيبوبة السكر لا تتفق في شيء مع هذا الاتجاه»[1].

ثم إن تناول المسكرات والمخدرات لا يضرُّ بالعقل وحده فيغيبه عن ساحة الوعي، ولكنه مضر بالجسم ضرراً بالغاً، وهكذا تتسع دائرة أثره لتشمل عنصرين من عناصر الكليات الخمس التي سبق ذكرها.

ولهذا يأتي التشريع الإسلامي ليصون العقل والجسم؛ بتحريم كل ما هو ضار..



(١) في ظلال القرآن (٢/ ٩٧٧).

خلاصة الباب الأول

تبيّن لنا من الفصول السابقة مدى احترام الإسلام للعقل، ولذلك وضعه ضمن منهج واضح المعالم.. بعد أن يكون قد التزم بالإسلام ديناً.

ويتلخَّص هذا المنهج بالنقاط التالية:

١ ـ إن أولى مواد هذا المنهج هي اعتراف العقل بالعجز التام في دائرة حددها المنهج وسبق شرحها.

٢ ـ في ميدان عالم الغيب لا مجال لعمله، ولذا أعطاه الله عن طريق الرسل ما يلزمه معرفته عن هذا العالم، كما لبّى طلبه بالإجابة على الأسئلة التي تطرح نفسها ولا يجد العقل عليها إجابة.

٣ ـ وخارج هاتين الدائرتين نجد أنفسنا أمام العالم المشاهد، وهنا أطلق الإسلام للعقل حريته في المجالين النظري والعملي.

ـ **ففي المجال النظري**: يتفكَّر في كتاب الله تعالى، كما يتفكَّر في بديع صنع الله بالنظر في هذا الكون ـ ليزداد إيماناً ـ ويتعرَّف على سنن الله في الكون.

كما ينظر في سير الأمم التي خلت، والتي قصَّ القرآن الكثير منها، وبخاصة ما يرتبط بالأنبياء والرسل، وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١] وهذا الاعتبار يستفيد منه القادة والأفراد كل في مجاله.

ـ **وفي المجال العملي**: بالنظر والتجربة لتحسين وسائله، والتوصل إلى كل ما يخدمه ويساعده.

على أن هذه الحرية المعطاة له في العالم المشاهد ينبغي أن تكون في بواعثها وأهدافها لا تؤدي إلى ما يتعارض مع شؤون العقيدة أو نظام الأخلاق.

٤ ـ وشرَّفه بالنظر في الكتاب والسنة لاستنباط الأحكام.

إن ما رتبه الإسلام للعقل ضمن هذا المنهج يعدّ أفضل ما حصل عليه العقل في تاريخ الإنسانية.

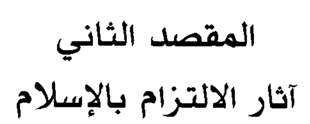
فقد وفر له وقته بعدم الخوض في ميادين لا يحسن التعامل معها، لأنَّ مبادئها الأولية مغيبة عنه.

كما صانه عن الخوض في الترَّهات والأساطير والأوهام.. وارتفع به عن ذلك.

كما صانه عن مجالات العبث وكل ما لا غاية له مشروعة.







الباب الثاني

آثار الالتزام بالإسلام على الروح



تمهيد
عن الروح

قال الله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

الروح من أمر الله، هذا ما قاله الله تعالى.

«فالروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه، وسرّ من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشري وبعض الخلائق التي لا نعلم حقيقتها.

ولقد أبدع الإنسان في هذه الأرض ما أبدع، ولكنه وقف حسيراً أمام ذلك السرّ اللطيف ـ الروح ـ لا يدري ما هو، ولا كيف جاء، ولا كيف يذهب، ولا أين كان، ولا أين يكون، إلا ما يخبر به العليم الخبير في التنزيل، وما جاء في التنزيل هو العلم المستيقن»[١].

والقرآن يجيب الناس عما هم في حاجة إليه، وما يستطيع إدراكهم البشري بلوغه ومعرفته، فلا يبدد الطاقة العقلية فيما لا ينتج ولا يثمر.

ولذلك كان الجواب مجملاً: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وهو

---

(١) في ظلال القرآن، عند تفسير الآية الكريمة.

جواب وأي جواب؛ فهو يوحي بعظمة المسؤول عنه ويغلق الباب في شأن البحث عن هذا السر، حتى يوفر الوقت للإنسان، فلا يبدِّد فيما لا طائل وراءه.

والحقيقة الثابتة هي أن الروح موجودة بين جنبي الإنسان، وأن الإنسان يشعر ويعلم يقيناً أنه يحيا بهذا السر، فليتعامل مع هذه الحقيقة من حيث وجودها بغض النظر عن البحث عن حقيقتها، فذلك أمر فوق طاقة إدراكه.

وبما أن الإنسان لا يملك شيئاً عن حقائق الروح، فعليه أن ينصاع وينقاد للمنهج الذي وضعه الله لها، فهو السبيل الوحيد الذي يلبِّي أشواقها ورغباتها، وتطلعاتها، ويعصمها من الانحراف والشذوذ.

فالله سبحانه هو خالق الروح، وهي من أمره، وينبغي أن تعمل وفق أمره، لأنه ـ وحده ـ العالم بأسرارها وتكوينها، فله الخلق والأمر.

والإنسان بإرادته يستطيع أن يسيِّر نفسه(١) وفق هذا المنهج،

---

(١) قال الإمام ابن القيم: قال الجمهور: «النفس» و«الروح» اسمان لمسمى واحد، وقد أطلق القرآن «النفس» على الذات بجملتها كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وأطلقها على الروح وحدها كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس. كتاب: الروح، ص (٣٠٧) وما بعدها.

والنفس واحدة ولكن لها صفات، فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فهي مطمئنة، وهي لوَّامة، وهي أمارة بالسوء.

والذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن الناس درجوا على استعمال لفظ «الروح» عندما يريدون الحديث عن النفس المطمئنة، ودرجوا على استعمال لفظ «النفس» عندما =

فيرتقي بها لما يحبه الله تعالى ويرضاه، وبإرادته يستطيع أن يخالفه فينزلق ويهوي، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠].

«فالإنسان كي يزكِّي نفسه بحاجة دائمة للرجوع إلى الموازين الإلٰهية الثابتة، ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه، ولم يضلله، كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلٰهه هواه، وبذلك يظل قريباً من الله، يهتدي بهديه، ويستضيء بالنور الذي أمدَّه به في متاهات الطريق»(١).

وفي هذا الباب سنتعرَّف على ما ينبغي على الروح أن تقوم به نتيجة لالتزامها بالإسلام، وذلك في فصلين:

ـ يتحدث الأول عن أثر الإيمان على الروح.

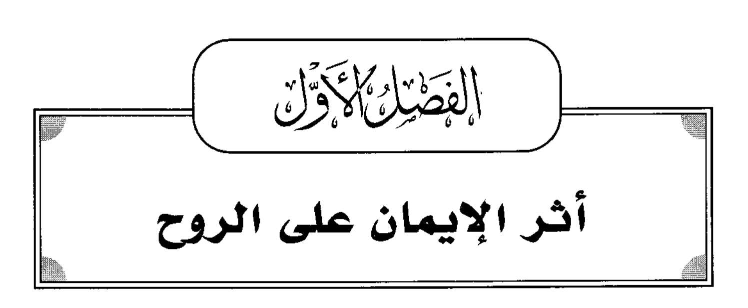
ـ ويتحدث الثاني عن تزكيتها والارتقاء بها.

راجياً من الله تعالى أن ييسر الطريق ويلهم الصواب.



= يريدون الأمارة بالسوء، فيقولون: لابدّ من مجاهدة النفس وكسرها.
وسنأخذ في هذا الباب بما ذهب إليه الجمهور، إذ المؤدَّى واحد، فالمراد بالروح معاونتها في تحقيق أشواقها، والمراد من النفس الارتقاء بها من «الأمارة» إلى «اللوامة» ثم إلى «المطمئنة».

(١) في ظلال القرآن، عند تفسير الآية الكريمة.



الفصل الأول

أثر الإيمان على الروح

- ١ -
إزالة الوسائط

جاءت الأديان السماوية لتصل الإنسان بخالقه سبحانه، ولكن الانحراف أصاب القائمين عليها، فجعلوا من أنفسهم وسائط بين الله وبين عباده، وأعطوا لأنفسهم ما هو من شأن الله وحده من أمور التحليل والتحريم والمغفرة للذنوب.

وقد وصف الله تعالى حالهم هذه بقوله:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وهكذا أصبح أتباع الديانات السماوية شأنهم شأن الأديان الوثنية، لم تعد الصلة مباشرة بينهم وبين آلهتهم، فقام السدنة هنا وسائط، وقام رجال الدين هناك وسائط.

وجاء الإسلام فألغى هذه الوسائط، ووصل الإنسان بربه، فأصبح يدعوه ويفزع إليه، فكان ذلك من تكريم الله له، فلم يعد يستطيع أحد أن يستذله أو يستعبده.

إن أول آثار الإيمان على النفس الإنسانية أنها أصبحت قادرة على أن تتوجه إلى بارئها لا تحول الحواجز والوسائط بينها وبينه.

يقول الشيخ يوسف القرضاوي:

«لقد كان من تكريم الله للإنسان في نظر الإسلام: أن فتح له باب التقرب إليه ﷻ أنى شاء، ومتى شاء، ولم يحوجه إلى وسطاء يتحكمون في ضميره، ويقفون حجاباً بينه وبين ربه، يقول الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ويقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ويعلن الحديث القدسي: **أن من تقرب إلى الله شبراً تقرَّب إليه ذراعاً**[(١)].

فلا حاجة بالإنسان إذن إلى وساطة كاهن، يصل عن طريقه إلى معرفة الله تعالى.

وبهذا يستطيع الإنسان المسلم أن يقرع باب ربه متى شاء، وأين شاء بعيداً عن سيطرة طبقة الدجاجلة المدعين للسمسرة بين الله وعباده.

يستطيع أن يدعو ربه متى شاء، فيجده أقرب إليه من حبل الوريد دون وسيط أو شفيع، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

---

(١) من حديث رواه البخاري (٤٧٠٥)، ومسلم (٢٥٧٥).

ويستطيع أن يصلي ويتعبَّد في أي مكان، وحده أو مع غيره، دون حجر أو تضييق، فالأرض كلها له مسجد، والله معه حيث كان: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

ويستطيع أن يناجي ربه مباشرة، في أي ساعة من ليل أو نهار، فليس على بابه حاجب ولا بواب.

وليس هذا لخاصة الأتقياء والصالحين، دون العصاة والمذنبين، كلا، فإن باب الله مفتوح على مصراعيه لكل من دعاه ورجاه، ووقف على عتبته ضارعاً مستغفراً، وإن اقترف قبل ذلك كبائر الإثم وفواحش الذنوب، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وفي الحديث القدسي الصحيح: «**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم**»(١).

وفي القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وما أجمل وأرق هذا النداء: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾.. فرغم خطاياهم وإسرافهم على أنفسهم، لم يطردهم من ساحته، ولم يحرمهم شرف عبوديته، وأضافهم إلى ذاته القدسية إيناساً لهم وتحبباً إليهم»(٢).

وهكذا ارتفع الإسلام بالناس من العبودية للعباد، إلى العبودية

---

(١) رواه مسلم.
(٢) الخصائص العامة للإسلام، ص (٧٩ ـ ٨١)، مؤسسة الرسالة.

لله، فأصبحوا مرهفي الحسِّ، في يقظة دائمة من الضمير، لا يغيب عنهم أن الله سبحانه مطلع عليهم، عالم بما تكنه نفوسهم.. وفي مثل هذا الوضع يكون للروح نشاطها وتطلعاتها.

* * *

ـ ٢ ـ
الحبُّ أوَّلُ لوازمِ الإيمان

إن الإيمان الذي يطلبه الإسلام ليس «معرفة» نظرية باردة، تكتفي بالاعتراف أو اليقين العقلي وحسب، ولكنه قوة محركة للطاقات التي أودعها الله في هذا المخلوق المكرَّم الذي هو الإنسان.

وفي مقدمة هذه الطاقات، ما يصدر عن الروح من أشواق ومشاعر وعواطف ووجدانيات.. فهذه كلها ينبغي أن تكون فاعلة ومؤثرة في حياة الإنسان، وبالتالي في دنيا الناس.

ويعدّ «الحب» أعظم محرك لطاقات الروح.

ولهذا لم يجعله الإسلام أمراً تجميلياً يمكن الاستغناء عنه أو تجاوزه، بل جعله «شرطاً» لازماً، قائماً في بنيان الإيمان ذاته، لا يقوم الإيمان إلا به.

وجعل تقديم أي حب عليه أمراً يستحقُّ الوعيد من الله تعالى بالعقوبة، وهذا ما سجلته الآية الكريمة التالية:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

كما بين المواصفات التي يطلبها من عباده بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، فـ «الحب» هو الصفة الأولى لمن يؤتى بهم بدلاً من المرتدين.

قال الإمام ابن تيمية: «محبة الله، بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجلّ قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين»[(١)].

وقال الإمام الغزالي: «اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض.. وقد جعل رسول الله ﷺ الحبَّ لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة»[(٢)].

وهذا يعني أن الإيمان لا يكون صحيحاً إذا لم يتوفر فيه هذا الحب لله ورسوله.

* * *

(١) الفتاوى (١٠/٤٨).
(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٩٤).

ـ ٣ ـ
آثار محبة الله تعالى[1]

إن محبة الله تعالى عندما تتمكن من قلب المؤمن، وتستولي عليه، لا بد لها من آثار تنشأ عنها، تظهر في سلوك الفرد وتعاملاته، باعتبارها من لوازم هذه المحبة، ومن ذلك:

ـ أن يحبَّ ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه.

ـ أن يحبَّ في الله، ويبغض في الله.

ـ أن يبغض أعداء الله.

وقد يكون من المستحسن إيضاح هذه الأمور وبيانها.

١ ـ أما محبة ما يحبُّه الله:

فلا تتم إلَّا بموالاة المحبوب، وهي موافقته ومتابعته في حب ما يحب، وبغض ما يبغض، فالمحبُّ لله تعالى:

ـ يحبُّ ما أحبَّه الله تعالى، ويكره ما أبغضه الله تعالى.

ـ ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه.

ـ ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه.

ـ ويأمر بما يأمر به الله تعالى، وينهى عما نهى عنه.

فهو موافق له في كل ذلك[2].

---

(١) هذه الفقرة عن كتاب: محبة الله ورسوله شرط في الإيمان، للمؤلف، ص (٩٦) وما بعدها، نشره المكتب الإسلامي.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٨، ١٩٢).

وإن محبة ما يحبه الله من الأعيان والأعمال من تمام محبته تعالى.

فالله سبحانه يحبُّ الأنبياء والمرسلين والملائكة والمؤمنين.. والمؤمن يحبُّ ذلك.

والله تعالى يحبُّ الإيمان والتقوى.. والمؤمن يحبُّ ذلك.

والله تعالى يبغض الكفر والفسوق والعصيان.. والمؤمن يبغض ذلك.

والله تعالى يحب «المحسنين» و«التوابين» و«المتطهرين» و«المتقين» و«الصابرين» و«المتوكلين» و«المقسطين» و«المقاتلين في سبيله».. والمؤمن يحبُّ ذلك.

والله سبحانه لا يحب «الكافرين» و«الظالمين» و«المعتدين» و«المتكبرين» و«المختالين» و«الخائنين» و«المفسدين» و«المسرفين» و«الفرحين».. والمؤمن لا يحبُّ ذلك.

والخلاصة: فإنه لا يكون حب من العبد لله تعالى، إذا لم يكن متابعاً وموافقاً له ـ سبحانه ـ في محابِّه.

٢ ـ وأما الحبُّ في الله ولله:

فلا بدّ في البدء من التفريق بين نوعين من الحبِّ:

ـ الحبُّ لله.

ـ والحبُّ مع الله.

فالحبِّ لله وفي الله هو حبُّ أهل التوحيد والإخلاص، فهم يحبون غير الله في الله.

والحبُّ مع الله، وهو حبُّ المشركين، الذين يحبون غير الله مع الله.

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي الحبِّ لله وفي الله وردت أحاديث كثيرة أذكر بعضها:

ـ عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه قال:

«**مَن أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[(١)].

ـ وعن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«**من أعطى لله، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، وأنكح لله؛ فقد استكمل إيمانه**»[(٢)].

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«**أفضل الأعمال: الحبُّ في الله، والبغض في الله**»[(٣)].

ـ وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم:

«**إن أوثق عرى الإيمان أن تحبَّ في الله، وتبغض في الله**»[(٤)].

* * *

إن من التزم بحبِّ ما يحبُّه الله، وبغض ما يبغضه الله ـ وهو

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٨١).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٢١).

(٣) رواه أبو داود (٤٥٩٩).

(٤) المسند (٤/ ٢٨٦).

اللازم الأول ـ سوف يصل إلى هذه الدرجة من الحب التي ذكرتها الأحاديث السابقة، فيصبح حبه للأعيان والأعمال لأجل الله تعالى.

فهو يحبُّ الشخص لأنه ملتزم بأوامر الله ومتّبع سنّة رسول الله..

وهو يبغض الآخر لكفره أو لمعاصيه، أو لدعوته إلى البدع..

فالباعث على الحبِّ أو البغض هو النظر إلى الشخص من خلال محابِّ الله تعالى، أو من خلال مكروهاته.

وهذا المعنى هو الذي سجله الحديث الشريف:

«وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله»[(١)].

وقد يسمع عن إنسان في بلد بعيد أنه يحبُّ الله ورسوله ويعمل فيما يرضي الله ﷻ، فيحبه لذلك، وهو لم يره، وليس له عنده مصلحة، ولا يتوقع أن يكون له ذلك.. فهذا من الحب في الله.

وقد يسمع عن إنسان محارب لله ورسوله فيمقته لذلك ويبغضه، مع أنه لا يناله من ضرره ولا يتوقع منه ذلك لبُعده عنه، ووجود الحواجز بينه وبينه، فهذا البغض لله.

وعندما ينطلق المسلم في حبِّه وبُغضه من هذا المنطلق، ويصبح هذا صفة قائمة في شخصه ملازمة له، لا تنفك عنه، لأنها منبثقة عن الإيمان.. فإنه يكون كما نصّت الأحاديث قد استكمل الإيمان، أو في دائرة أفضل الأعمال.

٣ ـ وأما بغض أعداء الله:

فإن من أحب لله وأبغض لله، فلابد أن يكره أعداء الله.

---

(١) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

إن حبَّ الشيء وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته، ومَن أحبّ الله تعالى، فلا بدَّ أن يكره أعداءه.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والتعبير بقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ﴾ ذو إيقاع قوي مؤثر، إذ هو نفي للوجود، وإذا كان النفي منصبّاً على الوجود، فهو أمر غير متصوَّر، وذلك راجع إلى عدم إمكان وجود المتضادين معاً.

إذ لا يمكن أن يجتمع في قلب إنسان واحد ودَّان، ودّ لله ورسوله، وودّ لأعداء الله ورسوله، كما لا يجتمع النور والظلمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ إلغاء لكل التعليلات والمبررات التي يمكن أن تتخذ تبريراً لذلك.

وفي هذا ما فيه من القطع والجزم في هذه القضية.. وعدم تركها لتلاعب العواطف.. فالرابطة بين المؤمنين هي رابطة الإيمان، وعلى أساسها تقام علائق الودِّ والحبِّ.

وإذا كان القرآن يمنع موادة أقرب الناس بالإنسان رحماً؛ وهم الآباء والأبناء ـ إذا كانوا محادّين لله تعالى ـ فغيرهم من باب أولى.

* * *

ـ ٤ ـ
محبة الرسول ﷺ

كان الحديث في الفقرة السابقة عن آثار محبة الله تعالى ولوازمها، ويأتي في مقدمة ذلك محبة النبيّ ﷺ.

فهي فرع من محبة الله تعالى، تابعة لها ومنبثقة عنها.

قال ابن رجب الحنبلي: «ومعلوم أن محبة الرسول ﷺ إنما هي تابعة لمحبة الله ﷻ، فإن الرسول إنما يُحَبُّ موافقة لمحبة الله له، ولأمر الله بمحبته وطاعته واتباعه»[١].

وقد جاء هذا المعنى في نصوص صريحة كثيرة عنه ﷺ:

قال أنس رضي الله عنه: قال النبيّ ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[٢].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**فو الذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده**»[٣].

وعن عبد الله بن هشام رضي الله عنه، قال: كنا مع النبيّ ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء، إلا من نفسي.

فقال النبيّ ﷺ: «**لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك**».

---

(١) استنشاق نسيم الأنس، للإمام ابن رجب، ص (٢٨).
(٢) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).
(٣) رواه البخاري (١٤).

فقال له عمر: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إليَّ من نفسي.

فقال النبيّ ﷺ: «**الآن يا عمر**»[١].

هذه هي مكانة حبه ﷺ من الإيمان، فهي مع حب الله تعالى تشكِّل عموده الفقري شأنهما شأن «الشهادتين» بالنسبة للإسلام.



ـ ٥ ـ
أشواق الروح وحلاوة الإيمان

بهذا الحب ـ لله ولرسوله ـ تأخذ الروح حظها في تلبية أشواقها ورغباتها، والنشاطُ في هذا الميدان ليس له حدود، والناس متفاوتون فيه، فمستقل ومستكثر، ولكنهم جميعاً يشتركون في الشعور بحلاوة الإيمان التي نصَّ عليها الحديث الشريف، من قوله ﷺ:

«**ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان:**

ـ أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما.

ـ وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

ـ وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[٢].

* * *

---

(١) رواه البخاري (٦٦٣٢).

(٢) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

- ٦ -

ذكر الله تعالى

ما من شك في أن أحب شيء إلى المحبِّ أن يكون في مناجاة من يحبُّ، أو الحديث عنه وذكر ما يتعلق به.

وإذا كان هذا شأن الإنسان مع الإنسان ـ ولله المثل الأعلى ـ فإن أمر محبة الله تعالى فوق ذلك، فهي أعلى شأناً وأرفع مكانةً.. ولا مجال للمقارنة.

ومن هذه الحقيقة القائمة في فطرة الإنسان، تأتي قضية ذكر الله تعالى..

فالمؤمن ـ الذي آمن بخالقه وأحبه ـ على ذكر دائم له، فهو لا يغيب عنه طرفة عين.

ولبيان ذلك، ينبغي أن نعلم أن الذكر نوعان:

- ذكر: بمعنى التذكُّر، وهو الحضور الذهني الدائم.
- وذكر باللسان.

فالمؤمن مستحضر للذكر الأول باستمرار، وذلك لأنه ما من عمل يريد أن يقوم به إلا ولله فيه حكم.. إما بالحلِّ أو التحريم أو الإباحة.. وهو مضطر لاستحضار هذا الحكم قبل الإقدام على الفعل..

فهو مستحضر لرقابة الله تعالى عليه دائماً، ولذلك فهو ينظر في الحكم أولاً.. وهذا ما يجعله على تذكُّر دائم لخالقه ﷻ.

وأما النوع الثاني فهو أنواع، وأفضلها ما تواطأ عليه القلب

واللسان[١]، وقد يسَّر الإسلام عملية التعامل مع هذا الذكر؛ فربط معظمه بمناسبات العمل اليومي، ونص على صيغه وألفاظه.

يقول الإمام الحسن البصري:

«الذكر ذكران: ذكر الله ﷻ بين نفسك، وبين الله ﷻ، ما أحسنه وأعظم أجره، وأفضل من ذلك: ذكر الله سبحانه عند ما حرَّم الله ﷻ»[٢].

وقال الإمام ابن القيم:

«حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ ﷺ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: «**حلق الذكر، فإن لله سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم**»[٣].

قال عطاء ـ في شرحه للحديث ـ: مجالس الذكر: مجالس الحلال والحرام، كيف يشتري ويبيع، ويصوم ويصلي، ويتصدق، وينكح ويطلق، ويحج»[٤].

وهكذا بيَّن كل من الإمامين ـ الحسن البصري، وابن القيم نقلاً عن عطاء ـ أن الذكر نوعان.. وهما يغطيان وقت الإنسان كله.. دون أن يعيقه ذلك عن عمله.. لأنه إذا كان من النوع الأول فهو بمقام الضابط الموجه للعمل، وإن كان من النوع الثاني، فهو ـ في الغالب ـ

---

(١) انظر تفصيل ذلك ـ إن رغبت ـ في كتاب: الوابل الصيب، ص (١٨٧)، نشره المكتب الإسلامي بعناية المؤلف.

(٢) مواعظ الإمام الحسن البصري، للمؤلف، ص (٥٨)، نشره المكتب الإسلامي.

(٣) رواه الترمذي (٣٥١٠).

(٤) مواعظ الإمام ابن القيم، للمؤلف، ص (٢٢)، نشره المكتب الإسلامي.

مصاحب للعمل لا يستغرق وقتاً خارجه، فالذي جلس ليأكل لن يضيره أن يسمي قبل البدء بالطعام وأن يحمد بعد الانتهاء منه، وهكذا في بقية الأعمال.

وهناك نوع آخر من الذكر، وقد جاء ذكره في قول ابن القيم قبل قليل، حيث يجتمع الناس على ذكر الله، لا دافع لهم إلا ابتغاء وجهه تعالى، وهذا النوع يفي بمتطلبات الروح ويروي ظمأها، وبخاصة عندما ينغمس الإنسان في ماديات الحياة الدنيا، وقد جاء ذكر هذا النوع في أحاديث كثيرة، تطلب في أماكنها، وأكتفي بذكر واحد منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلمُّوا إلى حاجتكم**، قال: **فيحفُّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا.**

قال: **فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم منهم ـ ما يقول عبادي؟.**

قال: **تقول: يسبِّحونك ويكبِّرونك ويحمدونك ويمجدونك.**

قال: **فيقول: هل رأوني؟.**

قال: **فيقولون: لا والله ما رأوك.**

قال: **فيقول: وكيف لو رأوني؟.**

قال: **يقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً.**

قال: **يقول: فما يسألونني؟.**

قال: **يقولون: يسألونك الجنة.**

قال: **يقول: وهل رأوها؟.**

قال: **يقولون: لا والله ـ يا ربِّ ـ ما رأوها.**

قال: **يقول: فكيف لو رأوها؟.**

قال: **يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً، وأشدَّ لها طلباً، وأعظم فيها رغبة.**

قال: **يقولُ: فممَّ يتعوَّذون؟.**

قال: **يقولون: من النار.**

قال: **يقول: وهل رأوها؟.**

قال: **يقولون: لا والله ـ يا ربِّ ـ ما رأوها.**

قال: **يقول: فكيف لو رأوها؟.**

قال: **يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافة.**

قال: **فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم.**

قال: **يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة.**

قال: **يقول: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»**[(١)].

ويؤكد سيد قطب رحمه الله على ضرورة حضور القلب في الذكر فيقول:

«إن ذكر الله ـ كما توجِّه إليه النصوص ـ ليس مجرد الذكر بالشفة واللسان، ولكنه الذكر بالقلب والجنان، فذكر الله إن لم يرتعش له

(١) رواه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

الوجدان، وإن لم يخفق له القلب، وإن لم تعش به النفس، إن لم يكن مصحوباً بالتضرُّع والتذلل والخشية والخوف.. لن يكون ذكراً.. بل قد يكون سوء أدب في حق الله سبحانه.

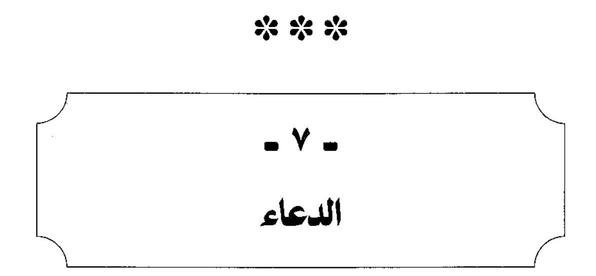
إنما هو التوجه إلى الله بالتذلل والضراعة، وبالخشية والتقوى...

إنما هو استحضار جلال الله وعظمته، واستحضار المخافة لغضبه وعقابه، واستحضار الرجاء فيه والالتجاء إليه.. حتى يصفو الجوهر الروحي في الإنسان، ويتَّصل بمصدره اللدني الشفيف المنير.

فإذا تحرك اللسان مع القلب، وإذا نبست الشفاه مع الروح، فليكن ذلك في صورة لا تخدش الخشوع، ولا تناقض الضراعة، ليكن ذلك في صوت خفيض»[1].

وعندما يؤدَّى الذكر بمثل هذه الطريقة، يطمئن به القلب، وتسعد به الروح كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

* * *



- ٧ -
الدعاء

والدعاء نوع من الذكر، وقد جاء في القرآن الكريم على معانٍ؛ منها: العبادة، والسؤال، والاستغاثة، والثناء..

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٢٦ ـ ١٤٢٧)، في تفسير سورة الأعراف.

وهو من أعظم العبادات، إذ هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له وما شرعت العبادات إلا للخضوع للباري، وإظهار الافتقار إليه[(١)].

ولهذا كان «**الدعاء هو العبادة**»[(٢)]، وكان «**الدعاء مخ العبادة**»[(٣)].

وقد أمر الله عباده فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

كما وجههم إلى أن الدعاء إنما يكون بأسمائه الحسنى؛ فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ولهذا فالمسلم عندما يتجه إلى خالقه بالدعاء، يتوجه وفي ذهنه ذلك المَعِين الذي لا ينضب مما تفيض به أسماء الله الحسنى وصفاته العظيمة من معانٍ كريمة..

يتوجه إلى الله الملك السلام المؤمن..

يتوجه إلى الله المهيمن العزيز الجبار المتكبر..

يتوجه إلى الله البارئ المصور..

يتوجه إلى الله السميع البصير.. عالم الغيب والشهادة..

يتوجه إلى الله الرزَّاق الكريم الفتاح العليم..

يتوجه إلى الله الغفار التواب..

يتوجه إلى الله البر الرؤوف.. الرحيم.

---

(١) فتح الباري (١١/ ٩٤) وما بعدها.

(٢) رواه أبو داود (٢٤٧٩)، والترمذي، وابن ماجه.

(٣) رواه الترمذي (٣٣٧١).

يتوجه إليه وكل هذه المعاني ـ وغيرها مما تحمله الأسماء الحسنى ـ مهيمن على روحه، فيغمره شعور يملأ عليه كيانه، لأنه يدعو القادر على إجابة الدعاء وهو على كل شيء قدير.

إنه وحده الملجأ والملاذ..

فالعبد عندما يكون في حال الضعف يلجأ إلى القوي المتين.

وعندما يكون في حال الفقر يلجأ إلى الغني.

وعندما يُستذل يلجأ إلى العزيز.

وفي حال الخوف يلجأ إلى القهار.

إنه وحده ـ سبحانه ـ المسؤول: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩] يسألونه جميعاً، لأنهم محتاجون إليه، لا يستغني عنه أحد منهم..

فهو «يغفر ذنباً، ويفرّج همّاً، ويكشف كرباً، ويجبر كسيراً، ويغني فقيراً، ويعلِّم جاهلاً، ويهدي ضالّاً، ويرشد حيران، ويغيث لهفان، ويفكُّ عانياً، ويشبع جائعاً، ويكسو عارياً، ويشفي مريضاً، ويعافي مبتلًى، ويقبل تائباً، ويجزي محسناً، وينصر مظلوماً، ويقصم جبَّاراً، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويؤمّن روعة، ويرفع أقواماً، ويضع آخرين»[1].

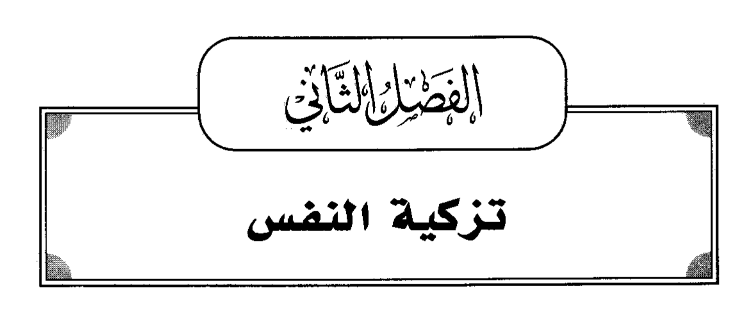
وفي هذه المعاني وهذه الحقائق تجد الروح الأمن والطمأنينة، والسكينة والراحة، فتفرُّ إلى الله، ولا تفرُّ منه.. فقد وسعت رحمته كل شيء.

---

(١) الوابل الصيب، ص (١٣٩)، نشره المكتب الإسلامي.

وكما أن الذكر ينبغي أن يكون في تذلل وضراعة وخشية، فكذلك الدعاء، فإنه ينبغي أن يكون في وضعية الأدب من حيث الهيئة ـ سواء أكان قائماً أو قاعداً ـ وفي حضور ذهني وتوجه روحي.. فذلك أقرب للقبول.





الفصل الثاني

تزكية النفس

- ١ -
العبادة تشمل نشاطَ الإنسان كلّه

إن طاقة الإنسان الروحية كبيرة، وهي قابلة للارتقاء في معارج الخير حتى تكون في وضع أشبه بوضع الملائكة.

وهي قابلة للهبوط حتى تصير في دركات بعيدة الغور، قريبة من إبليس.

ومطلوب من المؤمن الارتقاء بها في طريق «التزكية»، والابتعاد بها عن مراتع الخذلان والمعصية.

وهذا ما أجملته الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

قال قتادة ـ كما في تفسير ابن كثير ـ:

«قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل».

* * *

وعملية «التزكية» لم تترك الإنسان يختار طريقها وآليتها، وإنما

تولاها المنهج، فرتَّب درجاتها، وحدد معالمها، وذلك ضِمْنَ الغاية الكلية من وجود الإنسان الواردة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

«والعبادة في الإسلام تستوعب الكيان البشريَّ كله، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب، أو ببدنه فقط، أو بقلبه لا غير، أو بعقله مجرداً، أو بحواسه وحدها.

بل يعبد الله بهذه كلِّها، بلسانه ذاكراً داعياً تالياً، وببدنه مصلياً صائماً مجاهداً، وبقلبه خائفاً راجياً محبّاً متوكِّلاً، وبعقله متفكِّراً متأمِّلاً، وبحواسه كلها مستعملاً لها في طاعته سبحانه.

وتتسع العبادة للحياة كلها فلا تقتصر على الشعائر.. بل تشمل كل حركة، وكل عمل ترتقي به الحياة ويسعد به الناس.

وكل عمل نافع يقوم به المسلم لخدمة المجتمع، أو مساعدة أفراده، وخصوصاً الضعفاء وذوي العجز والفاقة منهم.. هو كذلك عبادة أي عبادة.

ويدخل في دائرة العبادة سعي الإنسان على معاشه ومعاش أسرته»[١].

إن مصطلح «العبادة» يشمل نشاط الإنسان كله.

«ليس هناك «عبادات» وحدها، و«معاملات» وحدها.. إلا في التصنيف الفقهي، وكلتا العبادات والمعاملات بمعناها هذا

---

(١) الخصائص العامة للإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، ص (١١٥)، مؤسسة الرسالة.

الاصطلاحي.. كلها عبادات وفرائض وعقود مع الله، والإخلال بشيء منها إخلال بعقد الإيمان مع الله»[١].

وبعد إيضاح المعنى الصحيح «للعبادة» وأنها تشمل نشاط الإنسان كله، وفي سبيل العمل على تزكية النفس في كل ذلك النشاط، كان لا بدّ لنا من وقفة أمام الحديث النبوي التالي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنتُه بالحرب.

وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه.

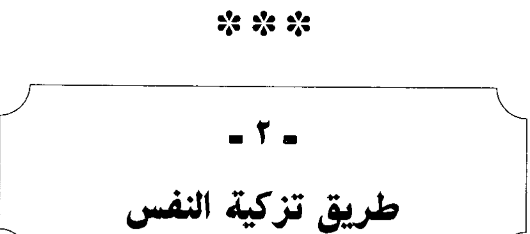
وما يزال عبدي يتقرَّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته: كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه.

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٨٤٩)، وقال في (٤/ ١٩٣٧):
«إن تقسيم النشاط الإنساني إلى «عبادات» و«معاملات» مسألة جاءت متأخرة عن التأليف في مادة «الفقه»، ومع أنه كان المقصود به ـ في أول الأمر ـ مجرد التقسيم «الفني» الذي هو طابع التأليف العلمي، إلا أنه ـ مع الأسف ـ أنشأ فيما بعد آثاراً سيئة في التصور، تبعها ـ بعد فترة ـ آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها، إذ جعل يترسب في تصورات الناس: أن صفة «العبادة» إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط، الذي يتناوله «فقه العبادات»، بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط، الذي يتناوله «فقه المعاملات» وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه، فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي».
«ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة..»اهـ.

وما ترددت عن شيء أنا فاعله، ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته»[(١)].

* * *



ـ ٢ ـ
طريق تزكية النفس

يقرِّر الحديث القدسي السابق أن الوصول إلى تزكية النفس يمر عبر مرحلتين: الأولى أداء الفرائض، والثانية التقرب بالنوافل.

ويسبق هاتين المرحلتين: مرحلة «الطهارة» التي قررها قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

فالتزكية لا تكون إلَّا بعد الطهارة من «التدسية» وهي انغماس النفس في الفجور والمعاصي.

يقول الإمام ابن القيم في هذا المعنى:

«قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان، فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات.

فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة، لم يبقَ فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع.

وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة، إلا إذا فرغها من ضدها»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) الفوائد، للإمام ابن القيم، الفائدة (١٠).

وإذن فالوصول بالنفس إلى درجة «التزكية» أو ما عبَّر عنه الحديث القدسي بدرجة «محبة الله تعالى للعبد» أو ما عبر عنه حديث جبريل عليه السلام السابق بدرجة «الإحسان» يمر عبر ثلاث مراحل:

الأولى: تنظيف النفس من المعاصي والمخالفات؛ وهو ما يمكن تسميته بـ «الطهارة»، أو ما يمكن تسميته بـ «السلامة من العيوب» أو «التخلية».

الثانية: أداء الفروض.

الثالثة: المداومة على أداء النوافل.

وبما أن «العبادة» تشمل نشاط الإنسان كله، فإن هذه «الدرجات» لابدّ من المرور بها للوصول إلى تزكية النفس في أي نشاط إنساني.

ولبيان هذه المسألة وبيان أبعادها، لابدّ لنا من اللجوء إلى التقسيم المدرسي لنشاط الإنسان الذي يدخل تحت «العبادة».

ويمكن تقسيم ذلك إلى ثلاث فئات رئيسة: العبادات (بالمعنى الخاص)، والمعاملات، والأخلاق.

وسوف نتحدث عن كل واحدة منها في فقرة مستقلة.



- ٣ -
تزكية النفس في ميدان العبادات

ونعني بالعبادات هنا: الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج.

● **فالصلاة** تكون سلامتها من العيوب: باستكمال شروطها ـ من

طهارة وغيرها ـ وبالحضور والخشوع فيها.. وعلامة هذه السلامة أن تكون آمرة صاحبها بالمعروف ناهية له عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وما هو مطلوب في الفروض مطلوب في النوافل؛ يضاف إلى ذلك:

ـ ألا تكون في الأوقات المكروهة.

ـ وأن تكون في الأوقات التي يملكها؛ فالموظف الذي ارتبطت مصالح الناس به لا يحق له أن يصلي الضحى، لأن هذا الوقت ليس ملكاً له، والعامل الذي أجَّر نفسه لمدة محدودة من الزمن لا يحق له أن يفعل ذلك لأن الوقت المتفق عليه أصبح ملكاً للمستأجر.

أما أداء المكتوبة فلا بدّ منه، لأنه معروف أنه لا بدَّ له من تأديته، والمعروف عرفاً كالمشروط شرطاً.

فإذا سارت الأمور في الصلاة بهذا النمط، يكون هذا المصلي قد وصل إلى درجة التقرب بالنوافل..

• وكذلك **صوم شهر رمضان**، حين يؤدّى سليماً من العيوب، فالصائم ممتنع عن الطعام والشراب والشهوة، وكذلك عن الكذب والغيبة والنميمة.. وسائر العيوب الأخرى.. يكون قد أدى الفرض المطلوب منه.

وله أن يأتي بالنوافل كذلك.. وما ذكرته في الصلاة مطلوب في الصيام.

ـ بشرط أن لا يكون ذلك للأيام المحظور صومها كأيام الأعياد وتخصيص يوم الجمعة بالصوم.

ـ وكذلك على أن لا يسبب له ضعفاً عن أداء عمل مطلوب منه.

فلا ينبغي أن تكون النوافل على حساب انتقاص غيرها من الواجبات، فإذا سارت الأمور كذلك في الصوم يكون قد وصل إلى درجة التقرُّب بالنوافل.

● **والزكاة** كذلك لابدّ من سلامتها من العيوب، ويتم ذلك بأن تؤدّى كاملة لا نقص فيها ولا عيب؛ في وقتها، طيبة بها نفسه.

ثم تكون النوافل بالصدقات.. وإذا أدّاها بحيث لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ـ كما ورد في الحديث الشريف ـ فذلك من الخير.

ولا بدّ في الصدقات أن تكون من أمواله الفائضة عن نفقة عياله، ونفقة من كلفه الشرع بالإنفاق عليهم من ذوي رحمه.

وعندها يكون في درجة التقرُّب بأداء النوافل.

● وأما **الحج** فمطلوب أداؤه مرة واحدة في العمر على سبيل الفرض، بحيث يكون أيضاً سليماً من العيوب، بأن يكون المال المعدّ للنفقة فيه من الحلال.

وأن يكون أثناء أدائه بعيداً عن الرفث والفسوق والجدال..

فإذا أراد أن يحجَّ نفلاً طلب منه ما طلب في الفرض، يضاف إلى ذلك أن لا يكون على حساب سلّم الأولويات.. فقد تكون لقمة في فم جائع في بلده الذي يريد أن ينطلق منه أفضل عند الله من هذا الحج، وقد يكون ستر بدن عارٍ كذلك.

قال الإمام عبد الله بن المبارك: «لقمة في بطن جائع أرجح في ميزاني من عمارة المسجد، ولو عمرته وحدي»[1].

(١) مواعظ الإمام عبد الله بن المبارك، للمؤلف، ص (٦١)، نشره المكتب الإسلامي.

ولما كتب حجبة الكعبة إلى عمر بن عبد العزيز أن يأمر للبيت بكسوة، كما كان يفعل من كان قبله، كتب إليهم: إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة، فإنهم أولى بذلك من البيت[١].

ـ ٤ ـ
ضوابط النوافل

وإذا كنا بصدد الحديث عن «النوافل» فينبغي أن نذكِّر بالقاعدة المهمَّة التي وضعها أبو بكر رضي الله عنه في هذا الموضوع؛ حيث قال: «إن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة»[٢].

فالنافلة لم تسمَّ «نافلة» إلَّا لأنها زائدة على الفريضة، فلابدّ من أداء الفريضة أولاً ثم يأتي دور النافلة، وهو ما جاء في حديث أبي هريرة الذي سبق ذكره: «**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل...**».

وهذا المعنى ليس خاصّاً بالفرد، بل هو قائم في حياة الجماعة، والمثال على ذلك: مسألة حجة النفل في هذه الأيام.

فمن المعلوم أن أماكن المشاعر محدودة، وبالتالي: فإن استيعابها محدود، فكان لابدّ من تحديد عدد الحجاج في كلِّ موسم، وهنا يأتي دور تطبيق القاعدة:

فإن من حج حجة الفرض ينبغي أن يتيح المجال لغيره ممَّن لم يؤدِّ الفرض.

* * *

---

(١) مواعظ الإمام عمر بن عبد العزيز، للمؤلف، ص (١٣٩)، نشره المكتب الإسلامي.

(٢) مواعظ الصحابة، للمؤلف، ص (٤٥)، نشره المكتب الإسلامي.

وأمر آخر: وهو أن الإنسان إذا أتيح له أن يصل إلى درجة النوافل في «العبادات» فإنه يكون قد بدأ تزكية النفس في هذا الجانب، ولا تتم «التزكية» إلَّا باستكمال الجوانب الأخرى، التي سيأتي ذكرها.

ومما ينبغي التنبيه عليه: أن سلَّم «التزكية» أو «الإحسان» كثير الدرجات وفضل الله أوسع.



- ٥ -
تزكية النفس في ميدان المعاملات

ونعني بالمعاملات: كل ما جرى فيه اتفاق بين طرفين على سلعة أو عمل.. ويطلق عليه بعضهم اسم «العقود».

فالعقد يمثِّل اتفاقاً بين طرفين، وقد يوثق ذلك بكتابة عقد.

ويشمل ذلك: البيع والشراء، والإيجار، والوكالة، والشراكة، والشفعة، والرهن، والهبة، والزواج.

* * *

وينطبق على المعاملات ما سبق الحديث عنه في «العبادات».

فالوصول فيها إلى مرتبة «النوافل» تمر عبر السلامة من العيوب.

* * *

فكل عقد يكون بين طرفين، لابدّ أن يقوم على التراضي.

فـ «التراضي» هو «الفرض» في العقود كلها، ويترتب على فقدانه بطلان العقد.

* * *

وينبغي أن يسبق «العقد» السلامة من العيوب، والتي منها:

الغش، والاحتكار، وتطفيف الكيل، والغرر، ومطل الغني، والنجش، واليمين الكاذبة لترويج السلعة.

يضاف إليها أن لا يلتزم الإنسان بعمل لا يحسنه ولا يتقنه..

فكل هذه الأشياء ينبغي على المسلم أن تكون عقوده التي يجريها خالية منها ومن أمثالها.

والضابط لهذا: القاعدةُ التي وضعها النبيّ ﷺ بقوله:

«**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**»(١).

وقوله: «**وأَحِبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك**»(٢).

فليضع العاقد نفسه مكان الطرف الآخر، ولينظر هل يقبل ما يريد أن يقدمه له من غش أو تغرير أو عيب؟..

فإذا تمَّ العقد خالياً من العيوب، جاء دور النوافل، وهي كثيرة، ونذكر أمثلة على ذلك:

ـ **منها**: التسامح، وهو مطلوب بين المتعاقدين.

قال ﷺ: «**رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**»(٣).

وقال ﷺ: «**إن الله يحبُّ سمح البيع، سمح الشراء، سمح القضاء**»(٤).

---

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٢) رواه الترمذي (١٣٠٥)، وابن ماجه (٤٢١٧).

(٣) رواه البخاري (٢٠٧٦).

(٤) رواه الترمذي (١٣١٩).

ـ **ومنها**: إنظار المعسر، أو وضع الدين عنه، وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وقال ﷺ: «**من سرَّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فلينفِّس عن معسر أو يضع عنه**»[١].

وقال ﷺ: «**من أنظر معسراً، أو وضع عنه، أظلّه الله في ظله**»[٢].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة كلها تؤكد عظم الجزاء على هذا الفعل.

ـ **ومنها**: حسن القضاء، فقد قال ﷺ: «**إن خيار الناس أحسنهم قضاء**»[٣].

وقال: «**خيركم خيركم قضاءً**»[٤].

والخيرية هنا قد تكون بالوفاء قبل موعد حلول الأجل، وقد تكون بالوفاء بأجود ممَّا هو مطلوب منه.

ـ **ومنها**: الإقالة: وهي موافقة البائع المشتري على فسخ عقد البيع بعد إبرامه، ويكون ذلك بسبب ندمه، أو تغير رأيه، أو لسبب طارئ، وهي من فضائل الأعمال، كما جاء ذلك في قوله ﷺ: «**من أقال مسلماً، أقال الله عثرته**»[٥]، زاد في رواية: «**يوم القيامة**»[٦].

---

(١) رواه مسلم (١٥٦٣).

(٢) رواه مسلم (٣٠٠٦).

(٣) رواه مسلم (١٦٠٠).

(٤) رواه النسائي (٤٦٣٣)، وابن ماجه (٢٢٨٦).

(٥) رواه أبو داود (٣٤٦٠).

(٦) رواه ابن ماجه (٢١٩٩).

ـ **ومنها**: الشفاعة في قضاء الحاجات، ومن جملتها الشفاعة في وضع الدين، وقد جاءت بها أحاديث صحيحة.

وقد حضّ ﷺ عليها فقال: «**اشفعوا تؤجروا**»[(١)].

إن ميدان «تزكية النفس» في باب المعاملات ميدان واسع، له وجوه متعددة، وأنماط كثيرة، وذلك لسعة موضوع المعاملات وتعدد فروعه.

ومن الصعب استيعاب الأمثلة على كل الفروع في مثل هذا الحيّز من البحث، ولعل ما سبق ذكره منها يؤدِّي بعض الغرض.



ـ ٦ ـ
تزكية النفس في ميدان الأخلاق

للأخلاق مكانة عظيمة في المنهج الإسلامي، وخير ما يوضِّح لنا هذه المكانة قوله ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[(٢)].

وحينما تحدّث القرآن الكريم عن النبيّ ﷺ خاطبه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وعندما نقرأ في تاريخ التشريع الإسلامي، نجده قد ابتدأ بـ «الأخلاق»، فالمرحلة المكية من حياة الدعوة ـ على امتدادها ـ لم ينزل فيها سوى الأمر بالصلاة، ولكنها حفلت بالأحكام الأخلاقية،

---

(١) رواه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٤٢٩).

(٢) ذكره ابن كثير في: البداية (٦/ ٣٥)، وعزاه للإمام أحمد، وقال في مختصر المقاصد الحسنة: صحيح.

فقد سبقت تربية المسلمين في ميدان الأخلاق نزول أحكام العبادات وغيرها[1].

ولما للأخلاق من مكانة، كان من غاية العبادات أن تصب في معينها لتشكِّل رافداً من روافدها، فمن مهمة الصلاة أن تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن مهمة الزكاة تطهير النفس وتزكيتها، ومن مهمة الصيام المساهمة في رصيد التقوى، ومن مهمة الحج تزكية النفس بالبعد عن الرفث والفسوق والجدال.

وليس هذا فحسب، بل إن الإسلام جعل لها الهيمنة على ميدان «المعاملات» وهو مجال مادي، فالبيع والشراء يتمُّ بخلق التسامح، والمسلم لا يبيع على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه.. والمسلم أخو المسلم لا يظلمه.

* * *

بعد هذه المقدمة **أقول**: إن العمل على تزكية النفس في هذا الباب يمر بالمراحل التي سبق ذكرها في «العبادات» و«المعاملات».

فالطهارة أولاً، ثم الالتزام بأداء الواجبات ثانياً.. ثم التزكية..

وعندما نصنِّف الأخلاق نجدها تندرج في ثلاث فئات:

ـ أخلاق يجب اجتنابها لأنها سيئة.

ـ وأخلاق لا بدّ من التزامها والتخلُّق بها.

ـ وأخلاق يرتقي بها الإنسان في سلَّم المكارم وهي حقل التزكية ومسرحه.

---

(١) انظر: تفصيل ذلك في كتاب: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، للمؤلف، نشره المكتب الإسلامي.

وكان من دعائه ﷺ: «**اللَّهم.. واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلَّا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلَّا أنت**»(١).

• إن الطهارة من سيِّئ الأخلاق هي الخطوة الأولىٰ على طريق التزكية، ومن هذه الأخلاق: الحسد، والغرور، والكبر، والرياء، والجبن، والبخل، والظلم.

ومنها ما هو مرتبط باللسان: كالكذب، والغيبة، والنميمة، وقول الزور، والسباب، والمجاهرة بالمعاصي... وغير ذلك.

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة تحذّر وتنفر من هذه الأخلاق، وقد استعاذ ﷺ من الجبن والبخل، والعجز والكسل.. وغيرها، وكان من دعائه ﷺ:

«**اللَّهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء**»(٢).

إنه لا بدّ للمسلم من مجاهدة نفسه للتخلُّص من سيِّئ الأخلاق، واللجوء إلى الله سبحانه بالاستعاذة به والدعاء حتى يساعده على التخلص منها.

• أما الأخلاق التي لا بدّ من التزامها، والتي هي في درجة الفروض من العبادات، ولا يمكن التهاون بها؛ فهي: كالصدق، والوفاء بالوعد والعهد، وأداء الأمانة.. وأمثالها؛ فإن عدم الالتزام

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٩١).

بها يجعل المسلم في صف المنافقين، كما ورد ذلك في أحاديث كثيرة؛ منها قوله ﷺ:

«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(١).

إن التزام المسلم بهذا النوع من الأخلاق أمر واجب، لأنها هي التي تصبغه بصبغة الإسلام والإيمان، وهي التي تؤهِّله للارتقاء في سلم تزكية النفس؛ فهي القاعدة التي لابدّ منها.

• ومن هذه القاعدة يرتقي في سلم مكارم الأخلاق التي منها: الكرم، والإيثار، والعفو، والحلم، وتفريج كربات الآخرين، والرحمة.

والقرآن والسنة مليئان بالنصوص التي تحضُّ على هذه الأخلاق، وتبين عظم ثوابها، وارتفاع مكانة فاعليها عند الله تعالى، وأكتفي بذكر ثلاثة أحاديث في هذا الموضوع وفقاً لما تسمح به مساحة هذا البحث.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«تبسُّمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أحبُّ الناس إلى الله عز وجل أنفعهم للناس.

وأحبُّ الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً.

ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً ـ في مسجد المدينة ـ.

ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته.

ومن كظم غيظاً، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضا يوم القيامة.

ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام»[٢].

وعندما يعيش المسلم في مثل هذه المعاني الواردة في هذه الأحاديث وأمثالها.. فإنه لن يعيشها بفكره وحسب، ولكنه يعيشها

---

(١) رواه الترمذي (١٩٥٦).

(٢) قال في مجمع الزوائد (١٣٧٠٨): رواه الطبراني في الثلاثة. وجاء في صحيح الجامع الصغير برقم (١٧٦).

واقعاً عمليّاً فيجد لها من السعادة ما يطمئنه بأنه قد بدأ خطواته في عالم تزكية النفس. .

إن الأخلاق الفاضلة لها مردودان:

أحدهما: سعادة تغمر صاحبها بالمشاعر الفياضة الخيرة.

والثاني: سعادة يسعد بها المجتمع من حوله، بأفعاله الخيرة.



- ٧ -
التوازن في عملية التزكية

كان هذا التقسيم المدرسي في الحديث عن تزكية النفس ـ إلى تزكية: في العبادات، والمعاملات، والأخلاق ـ ضروريّاً لإعطاء تصوُّر عن المساحة التي يشغلها النشاط الروحي.

والحقيقة أن «الروح» كلٌّ لا يتجزأ، فهي حينما ترتقي في سُلَّم الفضائل «النوافل» فسوف يكون ارتقاؤها متوازناً في المجالات السابق ذكرها.

فلا يعقل أن يقوم المسلم ليله متنفلاً بالصلاة تقرباً إلى الله تعالى، ثم يظلم الناس حقوقهم في النهار، كما لا يعقل أن يقضي بعض أيامه صائماً متنفِّلاً ثم يجحد أمانة اؤتمن عليها، كما لا يعقل أن يكثر من التنفل بالحج ـ كما هي عادة بعضهم ـ على حساب النفقات الواجبة عليه لأهله ورحمه ومن تلزمه نفقتهم.

إن هذا لو حدث، فإن صاحبه لن يكون في حقل تزكية النفس، لأن «التزكية» كما رأينا إنما تأتي بعد مرحلة الطهارة والسلامة من

العيوب.. وما دام الإنسان لم يستكمل الطهارة فكيف يحرم بالصلاة؟!.

وقد أوضح النبيّ ﷺ هذا الأمر بشكل لا لبس فيه.

فالمسلم قد لا يستطيع أن يرتقي في درجات العطاء من فعل الخير والإحسان.. وهذا مقبول منه ما دام غير مقصِّر في أداء الفروض، ولكنه لا يقبل منه أن يكون في ميدان الشر، فالحد الأدنى الذي لا ينبغي أن ينزل عنه، هو الوقوف عند عدم فعل الشر، ومن كان كذلك فقد عُدَّ له هذا الموقف في ميزان الصدقات، فعدم ارتكاب الشر هو في الحقيقة ولوج في ساحة الخير.

قال الرسول ﷺ ـ فيما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ـ:

«على كل مسلم صدقة».

قالوا: فإن لم يجد؟.

قال: **«فيعمل بيديه، فينفع نفسه ويتصدق»**.

قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟.

قال: **«فيعين ذا الحاجة الملهوف»**.

قالوا: فإن لم يفعل؟.

قال: **«فليأمر بالخير ـ** أو قال: **بالمعروف»**.

قالوا: فإن لم يفعل.

قال: **«فليمسك عن الشر، فإنه له صدقة»**(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: سألتُ النبيّ ﷺ: أي العمل أفضل؟.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٢٢)، ومسلم (١٠٠٨).

قال: «**إيمان بالله، وجهاد في سبيله**».

قلت: فأي الرقاب أفضل؟.

قال: «**أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها**».

قلت: فإن لم أفعل؟.

قال: «**تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق**[١]».

قال: فإن لم أفعل؟.

قال: «**تدع الناس من الشَّرِّ، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك**»[٢].

إن الإمساك عن الشر هو الحد الأدنى، أي المحافظة على الطهارة وعدم التلوث بالمعاصي.

إن النوافل ـ كما سبق في الحديث القدسي ـ ما تزال ترتفع بالعبد حتىٰ يحبه الله تعالى، وعندها لن يكون فيه قابلية للشر؛ لأنَّ هواه ورغبات نفسه أصبحت خاضعة وتابعة لمنهج الله الذي تشربته روحه فأصبح لا يرى ولا يسمع إلا من خلال معطياته.

وهذا ما أشار إليه ﷺ بقوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[٣].

إن إخضاع «الهوى» لما جاء به النبيّ ﷺ هو التفسير لقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

❊ ❊ ❊

---

(١) **الأخرق**: هو الذي لا يحسن العمل.

(٢) رواه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤).

(٣) قال في فتح الباري (١٣/ ٢٨٩): صححه النووي في آخر الأربعين.

ـ ٨ ـ
الأولويات في النوافل

«**وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه. .**».

هذا ما جاء في الحديث القدسي الذي سبق ذكره. .

و«النوافل» هنا تعني: كل ما زاد على فعل الواجبات، سواء أكان ذلك في العبادات أو المعاملات أو الأخلاق.

ومن المؤسف أنها إذا أطلقت لا يفهم منها بعض الناس إلا النوع الأول المتعلق بالعبادات، وهذا الخطأ مرجعه إلى أن للعبادات معنيين:

أحدهما: عام، ويشمل تنفيذ الأوامر الإلـٰهية كلها، **والثاني**: خاص، والمقصود به: الصلاة والصوم والزكاة والحج.. وقد فهم بعض الناس أنَّ النوافل تابعة للعبادات بمفهومها الخاص.

وما جاء في الحديث عام وليس هناك ما يخصصه بهذا المفهوم الضيق.

يضاف إلى ذلك: أن من مقررات القواعد الفقهية: أن الأعمال المتعدية النفع إلى الآخرين مقدمة عند الله على ما كان قاصراً نفعه على الإنسان ذاته.

أقول بعد هذا:

إن ديناً يعدّ قضاء حاجة لمسلم أفضل من اعتكاف شهر في المسجد النبوي الشريف.

ويعدّ أرفع أنواع «الذكر» الذكر عند ما حرم الله، كما سبق ذكر ذلك.

ويعدّ إقالة مسلمٍ نادمٍ في بيعه وشرائه وسيلة لإقالة عثرة يوم القيامة.

ويعدّ إفراغك دلوك في دلو أخيك صدقة.

ويعدّ. . ويعدّ. .

إنه لدين عظيم، فكل هذه الأمثلة خارج إطار العبادات بمفهومها الخاص، وهي من أعلى النوافل، ولا شك بأن فاعلها يجد من السعادة وراحة النفس الشيء الكثير.

هذا ما فهمه السلف رحمهم الله، ونذكر واقعة واحدة كمثال على ذلك:

جاء في كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أن عبد الله بن المبارك خرج مرة إلى الحج، فاجتاز ببعض البلاد، فمات طائر معهم، فأمر بإلقائه على مزبلة هناك، وسار أصحابه أمامه، وتخلّف هو وراءهم، فلما مرَّ بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها، فأخذت ذلك الطائر الميت، ثم لفته، ثم أسرعت به إلى الدار، فجاء عبد الله، فسألها عن أمرها وأخذها الميتة، فقالت: أنا وأخي هنا، ليس لنا شيء، إلا هذا الإزار، وليس لنا قوت إلّا ما يلقى على هذه المزبلة، وقد حلّت لنا الميتة منذ أيام، وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل.

فأمر ابن المبارك برد الأحمال، وقال لوكيله: كم معك من

النفقة؟ قال: ألف دينار، فقال: عدَّ منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مرو، وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حجنا هذا العام، ثم رجع»[1].

فهذا أفضل من حجنا هذا العام...

هذا ـ والله ـ هو الفقه.

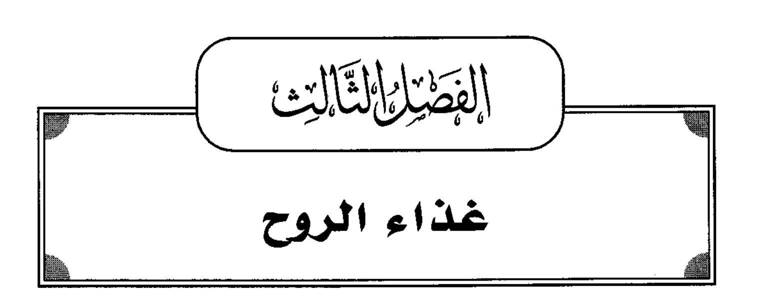
وهذه هي «النوافل» التي يتقرب بها إلى الله تعالى.

وما من شك في أن سعادة ابن المبارك كانت عظيمة، حيث يسَّر الله له أن ينفق ذلك المال فيما هو أفضل من الحج.

إن فقه الأولويات في النوافل أمر ضروري، كما أن هذا الفقه ضروري في كل الميادين.



(١) البداية والنهاية (١٠/ ٢٠٣).



الفصل الثالث

غذاء الروح

ما من شك بأن الروح تحتاج إلى غذاء، شأنها شأن الجسد، وغذاء كل منهما يتناسب معه، فلما كان الجسد مادة كان غذاؤه من المادة، وغذاء الروح يتناسب معها، فإنه غذاء غير مادي.

ورأينا في الفصل السابق كيف أن الإسلام وضع للإنسان السبل التي تساعده على تزكية نفسه والارتقاء بها.

ليس هذا فحسب، بل إن بعض مهمة الرسول ﷺ كانت تزكية نفوس أصحابه والمؤمنين عامة، وهذا ما سجله القرآن الكريم في أكثر من آية؛ منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فالتزكية عمل آخر غير تعليمهم القرآن والسنة..

فالتزكية هي ما ورد إيضاحه في صحيح السنة من أنه ﷺ كان يتعهَّد أصحابه بالموعظة ولا يكثر عليهم حتى لا يملوا.

ومن أمثلة ذلك: ما جاء عن العرباض بن سارية رضي الله عنه؛ حيث قال:

«صلّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب..»[١].

وكان بعض أصحابه ﷺ بعد وفاته يقومون بهذا الواجب، ومنهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي كان يُذَكِّر الناس كل يوم خميس.

وقد أحبَّ بعضهم أن يذكِّرهم في أكثر من يوم في الأسبوع فقال له: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكَّرتنا كل يوم، فقال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُمِلَّكم، وإني أتخولكم بالموعظة، كما كان النبيّ ﷺ يتخولنا بها، مخافة السآمة علينا[٢].

وقد سجلت لنا كتب السنة بعض هذه المواعظ؛ ومنها قوله رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ:

«.. **أحسن الكلام كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ.**

ألا وإياكم ومحدثات الأمور، فإن شرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

ألا لا يطولن عليكم الأمد فتقسوَ قلوبكم.

ألا إن ما هو آتٍ قريب، وإنما البعيد ما ليس بآتٍ.

ألا إنما الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره.

ألا إن قتال المؤمن كفر، وسبابه فسوق، ولا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث.

ألا وإيّاكم والكذب، فإن الكذب لا يصلح بالجدِّ ولا بالهزل،

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢ ـ ٤٤).
(٢) رواه البخاري (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١).

ولا يَعِدُ الرجل صبيه ثمَّ لا يفي له، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار.

وإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإنه يقال للصادق: صدَقَ وبرّ، ويقال للكاذب: كذب وفجر، ألا وإن العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[١].

ولقد قام بهذه المهمة في زمن التابعين الإمام الحسن البصري.

❊ ❊ ❊

ومع اتساع رقعة الإسلام قلَّ القائمون بهذه المهمة، وحلَّ الكتاب من جانب آخر محلَّ الرجل الواعظ عندما بدأ التدوين.

وخَفَتَ بريق هذا الجانب الذي يغذِّي الأرواح ويستنهض همتها، ويسعى في تزكيتها بسبب اتساع جوانب أخرى من الثقافة الإسلامية، وسيطرتها على الساحة حتى باتت القضية مشكلة تحتاج إلى حل.

وممن عرض لهذه المشكلة الإمام ابن الجوزي، إذ قال:

«رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب، إلَّا أن يمزج بالرقاق، والنظر في سير السلف الصالحين، لأنهم تناولوا مقصود النقل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها، إلى ذوق معانيها والمراد بها.

وما أخبرتُك بهذا إلَّا بعد معالجة وذوق، لأني قد وجدت جمهور المحدثين، وطلاب الحديث همة أحدهم في الحديث العالي وتكثير الأجزاء.

وجمهور الفقهاء في علوم الجدل، وما يغالب به الخصم.

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٦)، والدارمي (٢٠٧، ٢٧١٥).

وكيف يرقّ القلب مع هذه الأشياء؟!.

وقد كان جماعة من السلف، يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه، لا لاقتباس علمه، وذلك أن ثمرة علمه: هديُه وسمته.

فافهم هذا، وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهَّاد في الدنيا، ليكون سبباً لرقة قلبك»[١].

وهكذا يعرض ابن الجوزي المشكلة بكلِّ أبعادها من وجهة نظره..

وتمرُّ الأيام وتظلُّ المشكلة قائمة..

وفي زمننا الحاضر تعرض لطرح هذه المشكلة عالمان من علماء هذه الأمة؛ هما: الشيخ محمد الغزالي (السقا)، والشيخ سعيد حوى، رحمهما الله تعالى.

قال الشيخ محمد الغزالي:

«الدين الحق: عقل سليم، وضمير حي، أما الثروة الطائلة من النظريات، والفقر المدقع في المشاعر النبيلة والاتجاهات الكريمة، فليس تديُّناً مقبولاً.

والسؤال الذي نريد الإجابة عليه:

كيف نحقق هذا التدين؟.

وكيف نربي في القلوب الإحساس بجلال الله، والخشوع لعظمته؟.

كيف نجعل اليقين ينزل من السطح ليشتبك بالأعماق؟.

---

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي، الفصل (١٥٥).

كيف نحوِّل معرفة الله إلى مذاق حلو، يطبع النفوس على الرقة، ويصفِّي السرائر من كدرها؟.

إنه لا يتمُّ إيمان، ولا يثمر دين، إلَّا إذا أحسنَّا الإجابة على هذا التساؤل!»[1].

وقال الشيخ سعيد حوى:

«افتح كتاب توحيد، وكتاب فقه، فإنك لا تجد فيهما أي إشارة لقضية القلب وعلومه، فكتب التوحيد تعصم العقل من الخطأ في باب العقائد، وكتب الفقه تعصم العمل من الخطأ، ولكن لا تجد في هذه الكتب أيَّ تفصيل في باب القلب والنفس والشعور.

ثم افتح كتاب عقائد أو كتاب فقه، فإنك لا تعثر فيهما على بحث في أدب الحياة والتعامل»[2].

إنها المشكلة ذاتها..

ويضيف الشيخ الغزالي مبيّناً أسباب ذلك فيقول.

«إن فقهاءنا الذين كتبوا المجلَّدات في غسل الأطراف، ما كان يعيبهم أن يتناولوا هذا الجانب، وأن يضبطوه بأدلتهم الفقهية.

وإن المتكلمين الذين عقدوا الفصول الخطيرة في الشؤون الإلٰهية المغيبة، ما كان يعيبهم أن يحببوا الناس في الله.

لقد كان ذلك ـ والله ـ أجدى على الإسلام وأهله، من بحوثهم العميقة في الذات والصفات».

---

(١) ركائز الإيمان، للشيخ محمد الغزالي، ص (١٠٢)، دار الاعتصام.
(٢) جولات بين الفقهين، للشيخ سعيد حوى، ص (١١٨)، دار الأرقم ـ عمان.

وإذا كانت هذه بعض جوانب المشكلة؛ فما هو الحل؟.

ويقدم ابن الجوزي الحلَّ بقوله مخاطباً طالب العلم: «وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهَّاد في الدنيا ليكون سبباً لرقة قلبك».

ثم يعرض جهده في هذا الباب فيقول: «وقد جمعت لكل واحد من مشاهير الأخيار كتاباً فيه أخباره وآدابه، فجمعت كتاباً في أخبار الحسن، وكتاباً في أخبار سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وبشر الحافي، وأحمد بن حنبل».

وكأني بالشيخ الغزالي يتجه إلى ما ذهب إليه ابن الجوزي، عندما قال:

«وإني أعترف بأني حسَّنت صلتي بالله كثيراً على أثر كلمات قرأتها، لـ «الغزالي»، و«ابن الجوزي»، و«ابن تيمية»، و«ابن القيم»، و«ابن عطاء الله السكندري» مع ما بين أولئك جميعاً من تفاوت المشرب واختلاف النظرة».

ويرى الشيخ سعيد حوى ضرورة الاستفادة من الكتب التي وضعت في هذا الباب مع الحذر من «الدخن» الذي في بعضها فيقول:

«إن علم السَّيْرِ إلى الله، وعلم التزكية للنفس، وعلم التحقق بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان، والتقوى والشكر، فرائض لا بدّ منها، فإذا اختلط الكلام عن هذه المعاني بدخن كثير، فعلينا أن نتقيه من الدخن».

إن كتب «التربية» و«السلوك» دخل بعضها كثير من الأوهام والأساطير، وهذا لا ينبغي أن يحول دون الاستفادة منها، وقد يسَّر

الله لبعض العاملين في المجال العلمي تنقيح كثير من هذه الكتب، فأصبحت الاستفادة منها ميسرة[1].



(١) من ذلك: المهذب من إحياء علوم الدين، الذي نشرته دار القلم بدمشق؛ وتهذيب حلية الأولياء، الذي نشره المكتب الإسلامي؛ وكذلك: مواعظ الصحابة؛ وسلسلة مواعظ الأئمة والتي بلغت (٢٠) عدداً، وقد نشرها المكتب الإسلامي.

البَابُ الثَّالِثُ

آثار الالتزام بالإسلام على الجسم



تمهيد

الجسم، والعقل، والروح.

تلك هي مكونات الإنسان التي تعارف الناس على الحديث عنها عند حديثهم عن «الإنسان».

وهذا التقسيم ـ كما سبق القول ـ تقسيم مدرسي، وإلَّا فالإنسان كيان واحد، فليس هو عقلاً فحسب، ولا روحاً فحسب، ولا جسماً فحسب.

والجسم هو الوعاء الذي يضم بين جنبيه: الروح والعقل.

ومن هنا تأتي أهميته باعتبارين:

ـ باعتباره واحداً من مكوِّنات الإنسان.

ـ وباعتباره الكيان الذي به يقوم العقل، وبه تقوم الروح.

وقد اختلفت نظرة الثقافات إلى هذا الإنسان، ويبرز منها مذهبان رئيسان:

الأول: مذهب مادي، نظر إلى الإنسان من خلال «الجسم»، أو بتعبير آخر: من خلال حاجاته من الطعام والشراب والجنس، واعتبر تلبية هذه الحاجات هي غاية الوجود الإنساني، و«العقل» في نظر بعضهم مهمته هي العمل على تأمين هذه الحاجات..

وقد تربَّع «دارون» على رأس هذه النظرة عندما أرجع الإنسان إلى أصل حيواني، والحيوان مهمته البحث عن الطعام.. وهو ما قرَّره

«ماركس»، وذهب «فرويد» إلى أن جميع أنشطة الإنسان تقوم على دوافع جنسية.

وهكذا أضحى «الجسم» هو العنصر الأساس في كيان الإنسان، وتوارت الروح وتوارت معظم خصائص العقل ومهماته..

والثاني: مذهب تنضوي تحته الثقافات التي استقذرت الجسد ودوافعه..

فالشهوات واللذات من الدنس الذي ينبغي الابتعاد عنه، وعلى الإنسان أن يدخل في رياضات كثيرة للوصول إلى الرقي الروحي.. وقد يكون ذلك عن طريق إيلام الجسد وإجاعته وتعذيبه..

وكلا المذهبين كانت نظرته بعين واحدة، وأصبح «الإنسان» ذا بعد واحد، ولقد شقي الإنسان في ظل هذه الثقافات البعيدة عن هدي الله تعالى، فتحوَّل إلى حيوان في نظر الماديين، وتحوَّل إلى روح هائمة بغير منهج في نظر بعض الصوفيين... فكان الشقاء حليفه في كلتا الحالتين.

وجاء الإسلام فتعامل مع «الإنسان» مخلوقاً مكرَّماً، واعترف بعقله وبروحه وبجسمه..

ومعظم الخطاب القرآني كان للإنسان بكليته، وكذلك الحديث عنه..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [مريم: ٦٦].

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [مريم: ٦٧].

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [فصلت: ٤٩].

ولا يغفل القرآن العقل.. بل كثيراً ما استثاره ودعاه إلى العمل:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤، النحل: ١٢، الروم: ٢٤].

وللروح[١] دورها في الخطاب القرآني:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [قٓ: ٣٧].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨].

والعناية بالجسم واردة في القرآن الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦].

وهكذا اعتنى بنظافته ولباسه.

لقد تعامل الإسلام مع فطرة الإنسان التي تمثِّل كيانه كله، وبهذا تميز على جميع المذاهب الأخرى.

«فهو دين الفطرة..

إنه الدين الذي يعرف أسرار الفطرة، فيقدم لها ما يصلح لها، وما يصلحها.

---

(١) قد يطلق لفظ «القلب» على الروح، انظر ـ إن رغبت ـ تفصيل ذلك في كتاب: المهذب من إحياء علوم الدين (٢/ ١٠ ـ ١٣)، نشرته دار القلم بدمشق.

الدين الذي يعالج الفطرة على أحسن وجه، وأنسب طريقة، ليخرج منها بأقصى ما يستطيع أن تمنحه من الخير.

الدين الذي يتلبَّس بالفطرة، فيملؤها كلَّها، ولا يترك فراغاً واحداً لا ينفذ إليه.

الدين الذي يأخذ الفطرة كما هي، كلّاً واحداً لا يتجزأ، كلّاً يشمل الجسم والعقل والروح، فيعالجها العلاج الشامل، الذي يأخذ في حسابه الجوانب كلها، ويأخذها مرتبطاً بعضها ببعض في نظام وثيق.

ومن ثَمَّ لا يأخذ شعور الإنسان ويترك سلوكه..

ولا يأخذ «مبادئه» ويترك «تطبيقه»..

ولا يأخذ آخرته ويدع دنياه.

وإنما يعمل حساب ذلك كله في توجيهاته وتشريعاته سواء»[1].

لقد تعامل الإسلام مع الإنسان «كلًّا» وتعامل معه «عقلاً» وتعامل معه «روحاً» وتعامل معه «جسماً» ووازن بين هذه التعاملات.

وبهذا أبقى على إنسانيته، وحفظ له كرامته.

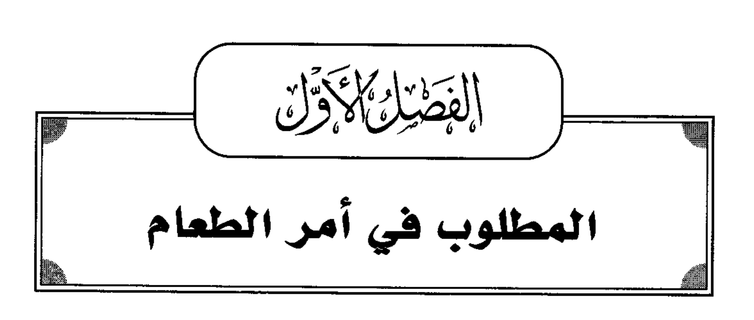
وقد سبق الحديث عن العقل والروح، وفي هذا الباب نتحدث عن الجسم من حيث عناية الإسلام به في طعامه، وشرابه، ولباسه، وغرائزه.. والحفاظ عليه.

وذلك في فصول...

❁ ❁ ❁

---

(١) قبسات من الرسول، للأستاذ محمد قطب، ص(١٦٩)



الفصل الأول

المطلوب في أمر الطعام

الطعام أول حاجات الجسم التي لا يمكنه الاستغناء عنها.

ومع ذلك «فليس الطعام غاية بذاته، بل هو وسيلة لتلبية حاجات الجسم كي يستمر في أداء مهمته في هذه الحياة، ومن هنا كان تناول الأطعمة بقدر الحاجات ضرورياً على مرِّ الأوقات.

وعلى الرغم من كون الطعام ضرورة وحاجة، فإن الإسلام لم يترك للإنسان حرية تناوله كما يريد، فعلَ الحيوان، بل جعل له دائرة الحلال يتناول منها، وجعل لتناوله آداباً يلتزم بها.

وبهذا ترتقي الضرورة والحاجة لتصبح عبادة، تُنَفَّذُ فيها أوامر الشرع في هذا الجانب من جوانب الحياة»[1].

وقد جاء في صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«أيُّها الناس، إن الله طيِّب لا يقبل إلَّا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر **الرجل**

---

(١) عن كتاب: من معين الشمائل، للمؤلف، ص (٣٦٣)، نشره المكتب الإسلامي.

يطيل السفر، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام فأنى يستجاب لذلك؟»[١].

فالحديث ـ مع الآيتين الكريمتين ـ بيَّن الصلة الكبيرة لأوامر الدين بقضية الأكل:

وأول ما ينبغي مراعاته: أن يكون الطعام ممَّا أباحه الله، وهو المشار إليه في الآية بـ ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ وقد بيَّن الله ما حرم علينا من الدم والميتة ولحم الخنزير.. وغير ذلك مما ينبغي اجتنابه وكذلك الخمر والمسكرات من المشروبات.

وأن يكون الحصول عليه بطريق مشروع، عن طريق الشراء بمال حلال مثلاً، أو عن طريق هبة أو هدية مشروعة، فلا يكون غصباً.. أو ما شابه ذلك، وهو ما أشار إليه الحديث في آخره.

إن الخلل في توفر هذين الشرطين أو أحدهما يحول دون قبول الدعاء الذي يتوجَّه به الإنسان إلى خالقه، وهكذا تدخل قضية الطعام في أمر أجلّ العبادات الذي هو الدعاء.

وقد سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال: يا أبا عبد الله، بِمَ تلين القلوب؟ فأطرق ساعة ثم رفع رأسه، فقال: يا بني بأكل الحلال[٢].

وفي البخاري: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان لأبي بكر غلام.. فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥).

(٢) تهذيب حلية الأولياء (٣/ ١٤٤)، نشره المكتب الإسلامي.

فقال أبو بكر: ما هو؟ قال: كنت تكهَّنت لإنسان في الجاهلية ـ وما أُحسن الكهانة إلا أني خدعته ـ فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه»[١].

وقد أورد القصة صاحب «الحلية»؛ وفيها: فجعل يتقيأ حتى رمى بها، فقيل له: يرحمك الله، كل هذا من أجل هذه اللقمة؟! قال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كلُّ جسد نبت من سُحت فالنار أولى به**» فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة[٢].

وهكذا تتضح العلاقة بين أمر الطعام وبين العبادة، فهو جزء فيها..

فاجتناب ما حرَّم الله تعالى واجتناب ما جاء من حرام، واجتناب الشبهات أمر واجب حتى يكون المسلم في تنفيذ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

وهذا لا يمنع المسلم من تناول لذيذ الأطعمة وأطايبها، ما دامت الشروط السابقة متوفرة، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

***

وإذا كان الإسلام قد انتقل بالطعام من كونه تلبية لحاجة إلى كونه تنفيذاً لنظام أثناء هذه التلبية، فقد جعل له آداباً تتناسب مع مهمته:

منها: التسمية في أوله، والأكل باليد اليمنى، وأن يأكل الإنسان

---

(١) رواه البخاري (٣٨٤٢).

(٢) تهذيب حلية الأولياء (١/ ٥٦).

مما يليه، وأن يحمد الله تعالى عند الانتهاء، قال ﷺ: «**يا غلام، سمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ ممَّا يليك**»(١).

ومنها: أن لا يصل إلى حدِّ الامتلاء والشبع، فقد قال ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاء شرّاً من بطن، حسب الآدمي لقيمات يقمن صلبه، فإن غلبت الآدمي نفسُه، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنَّفَسِ**»(٢).

ومنها: غسل اليدين قبل الطعام وبعده.

ومنها: عدم الإسراف والتبذير، ففي الحديث قوله ﷺ: «**كلوا وتصدّقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة(٣)**»(٤).

* * *

وإذا طبَّق المسلم هذه القواعد والآداب فإنه يكون قد تعامل مع الطعام تعامل الإنسان الذي كرمه الله.

أما حين يصبح الطعام هدفاً بذاته، ولا تطبق في تناوله تلك الآداب التي سبق ذكر بعضها، فإنه لا يكون حينئذ على طريقة المسلمين، وإنما على طريقة الكافرين التي حذَّر الله منها في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

إنها طريقة أصحاب الثقافة المادية التي نظرت إلى الإنسان جسداً ـ لا روح فيه ـ غايته إشباع لذَّاته، وقد سبق الحديث عنها.

---

(١) رواه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).
(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩).
(٣) **المخيلة**: الكبر.
(٤) رواه النسائي (٢٥٥٨)، وابن ماجه (٣٦٠٥).

«إنه تصوير زري ﴿كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ يذهب بكلِّ سمات الإنسان ومعالمه، ويلقي ظلال الأكل الحيواني الشره، والمتاع الحيواني الغليظ، بلا تذوق وبلا تعفُّف.. إنه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة، ولا من اختيار، ولا من حارس عليه من تقوى، ولا رادع عنه من ضمير»(١).

إنه لا ينبغي للمسلم أن تكون طريقته في الأكل كالأنعام، فهذا يتنافى مع تكريم الله تعالى له.

***

وإذا كنا نتحدَّث عن الطعام ونظرة الإسلام إليه وطريقته في تناوله، فينبغي أن ننبه إلى أن بعض جهلة المتصوفة، ذهبوا يمنعون أنفسهم من الطعام الذي يقيم أود حياتهم، أو يمنعونها عن لذائذ الأطعمة بحجة تربية النفس..

وهذا مخالف لما جاء به هذا الدين الحنيف.

وينقل لنا ابن الجوزي في واحد من خواطره مشهداً من سلوك هؤلاء، فيقول:

«بلغني عن بعض زهَّاد زماننا أنه قُدِّمَ إليه طعام فقال: لا آكل، فقيل له: لِمَ؟ قال: لأن نفسي تشتهيه، وأنا منذ سنين ما بلَّغت نفسي ما تشتهي.

فقلت: لقد خفيت طريق الصواب عن هذا من وجهين، وسبب خفائها عدم العلم.

---

(١) في ظلال القرآن، عند تفسير الآية الكريمة.

أما الوجه الأول: فإن النبيّ ﷺ لم يكن على هذا، ولا أصحابه، وقد كان ﷺ يأكل لحم الدجاج، ويحبُّ الحلوى والعسل.

وما حدث في الزهاد.. فأمور مسروقة من الرهبانية، وأنا خائف من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ [المائدة: ٨٧].

ولا يحفظ عن أحد من السلف الأول من الصحابة من هذا الفن شيء.

والوجه الثاني: إني أخاف على الزاهد أن تكون شهوته انقلبت إلى «التَّرْكِ» فصار يشتهي أن لا يتناول، وللنفس في هذا مكر خفي ورياء دقيق»[1].

إن الطعام مادة بناء الجسم، وقد شرع الإسلام في تربية النفس صوم التطوع الذي يسبقه السحور ويعقبه الإفطار.

وحرمان النفس من حاجتها ظلم.. ولو أدّى هذا إلى التلف لكان مسؤولاً أمام الله ﷻ.. وقد قال ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**إن لجسدك عليك حقّاً**».

إن النفس التي عليها أن تقوم بواجباتها، ينبغي أن تأخذ حاجتها من الطعام والراحة والنوم حتى تستطيع أداء العمل كما ينبغي.. وقد أمر الرسول ﷺ الصحابة بالإفطار في أيام رمضان يوم كانوا في طريقهم إلى بعض الغزوات؛ لأن ذلك مما يساعدهم على أداء ما هو مطلوب منهم.

---

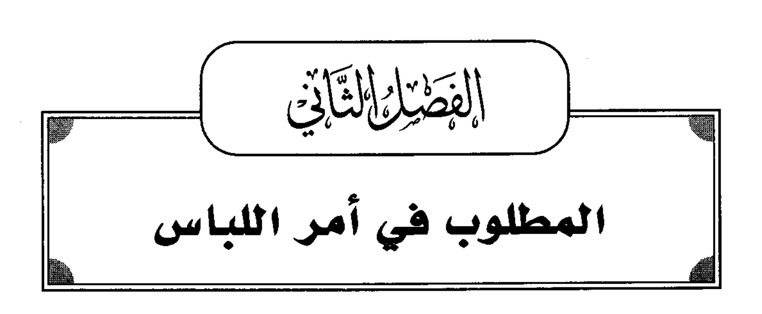
(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي، الفصل (٣٦) باختصار كبير.

وهكذا يتبيّن ـ وكما قال بعض السلف ـ أن الأكل[(١)] من الدين، وعليه نبّه رب العالمين بقوله: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١][(٢)].

❁ ❁ ❁

(١) أي: قضية أحكام الأكل، وكل ما يرتبط بذلك.

(٢) المهذب من إحياء علوم الدين (١/ ٢٩٥).



الفصل الثاني

المطلوب في أمر اللباس

إن للإسلام حكماً في شأن اللباس، كما هو الأمر في شأن الطعام.

واللباس حاجة فطرية، وحاجة ضرورية.

فالفطرية تتمثل: بستر العورة، والزينة والتجمُّل.

والضرورية: بالوقاية من الحر والبرد.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الأمر الأول بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وأشار إلى الثاني بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١].

ومن المعلوم أن النبيّ ﷺ كان يلبس لباس قومه، وحتى بعد بعثته لم يحدث أمراً جديداً من حيث شكل اللباس.

وقد جاء عنه ﷺ تحريم لبس الحرير على الرجال.

كما نهى عن تشبُّه الرجال بالنساء، وتشبُّه النساء بالرجال.

* * *

وقد طلب الإسلام من الإنسان أن يعتني بملبسه، حسب قدرته:

فقد روى أبو الحوص، عن أبيه، قال: أتيت رسول الله ﷺ، وعليَّ ثوب دون، فقال: **«ألك مال؟»**.

قلت: نعم.

قال: **«من أي المال؟»**.

قلت: من كل المال قد أعطاني الله، من الإبل والبقر والغنم والخيل والرقيق.

قال: **«فإذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ أثرُ نعمةِ الله عليك وكرامته»**[(١)].

وهكذا طلب منه ﷺ أن يكون مظهره لائقاً ما دام قادراً على ذلك.

وقد كان النبيّ ﷺ يعتني بلباسه وهو القدوة للناس.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل» وذلك في معرض الردّ على من انتقده في تأنقه بملبسه[(٢)].

وقد أقر النبيّ ﷺ الرجل الذي كان يحبُّ التجمُّل بملبسه، وبيَّنَ له الفارق بين محبة لبس الثياب الحسنة وبين الكبر..

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبيّ ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر**» فقال رجل: إن الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، قال: «**إن الله جميل يحبُّ الجمال، الكبر بَطَر الحق وغمط الناس**»[(٣)].

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٦٣)، وكذا النسائي، والترمذي.

(٢) السنن الكبرى، للبيهقي (٨/ ١٧٩)، ط الهندية.

(٣) رواه مسلم (٩١).

وقد حثّ الإسلام على الاعتناء بالمناسبات والأعياد، وأخذ الزينة لها، كما هو مقرر ومعروف، وفي مقدمة ذلك أخذ الزينة لأداء الصلاة المكتوبة؛ قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

على أن كلمة ﴿مَسۡجِدٍ﴾ هنا أعم من المتبادر من ظاهر اللفظ الذي هو مكان صلاة الجماعة، بل يراد بالمسجد أيضاً مكان السجود، فيكون المعنى: خذوا زينتكم عند كل سجود، أي عند كل صلاة، سواء أكانت في المسجد أو خارجه.

وهكذا فالإسلام يطلب من الناس لبس الثياب الحسنة في معظم الأوقات ما أمكن ذلك.

ولكنه ينهى عن ثياب الشهرة التي تقصد للاشتهار بين الناس بسبب نفاستها وتميزها، والتي تلبس تفاخراً بالدنيا وزينتها.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوباً مثله**»، وفي رواية: «**ألبسه الله يوم القيامة ثوب مذلة، ثم تلهب فيه النار**»[1].

وواضح أن هذا الثوب إنما كان الدافع إليه الكبر والتعالي على الناس.

وربما كانت الحكمة في النهي عن تطويل الثوب هذا المعنى نفسه، فقد جاء في الحديث قوله ﷺ: «**ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار**»[2].



(١) رواه أبو داود (٤٠٢٩ _ ٤٠٣٠)، وابن ماجه (٣٦٠٦ _ ٣٦٠٧).
(٢) رواه البخاري (٥٧٨٧).

تلك هي الخطوط العريضة في أمر اللباس التي ينبغي على المسلم أن يراعيها، تنفيذاً لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ، ويمكن تلخيصها بما يلي:

ـ منع تشبه الرجال بالنساء في اللباس، وكذلك النساء بالرجال.

ـ منع الرجال من لبس الذهب والحرير، وما كان أحمر اللون من الثياب.

ـ الأمر بلبس الثياب الحسنة والجميلة، ما أمكن ذلك، وبحسب قدرة الإنسان.

ـ ألا يكون الثوب من لباس الشهرة التي يقصد منها التعالي والتكبُّر على الناس(١).

* * *

وهناك أمران يتعلقان بشأن اللباس: أحدهما يتعلق بالرجل، والآخر يتعلق بالمرأة.

فقد ذهب بعض الرجال إلى الأخذ بمبدأ التقشُّف في هذا الأمر، ظنّاً منهم بأن هذا ما يطلبه الإسلام، فأخذوا أنفسهم بلبس الخشن!.. واعتبروا ذلك هو السنّة، وتقربوا إلى الله بذلك.

وربما أضاف بعضهم الإهمال في ذلك ـ بعامل الجهل ـ فلم يحرصوا على النظافة، وهذا كله مخالف للسنة، فقد كان ﷺ يلبس ما

---

(١) ينظر بالتفصيل في شأن اللباس: التربية الجمالية في الإسلام، للمؤلف، ص (٦٩ ـ ٨٤)؛ وكذلك: من معين الشمائل، للمؤلف أيضاً، ص (٣٦٩ ـ ٣٧٧)، نشرهما المكتب الإسلامي.

وجد دون تكلف، وهذا ما سجلته لنا كتب الشمائل، فلم يقصد يوماً إلى لبس الخشن، وما كان ﷺ يرغب بالأدنى إذا وجد الأحسن.

بل وربما ذهب بعضهم إلى لبس المرقعات وهو قادر على لبس الثياب الحسنة، وأقل ما في ذلك إظهار الفقر، وقد أمر الإنسان بإظهار أثر نعم الله عليه، وهذا يخفيها ولا يقوم بشكرها.

وكل هذا مصدره الجهل بأحكام الله تعالى.

***

وأما المرأة فإن الإسلام أباح لها أن تأخذ زينتها داخل بيتها، فإذا خرجت منه خرجت بثياب الحشمة والوقار، لباس الحجاب الذي يحجب زينتها عن الناس حتى لا تكون محلَّ ريبة وشكوك، وما الحجاب إلَّا للمحافظة على كرامتها التي كرّمها الله بها كالرجل على حدّ سواء.

والمرأة المسلمة هي التي تراعي تطبيق أوامر الله ﷻ في كل شؤونها، ومن ذلك عدم إبداء زينتها لغير محارمها كما أمرها الله تعالى.

ولكن ما يزال الشيطان يسعى لإغواء الناس، وميدان عمله لدى النساء ميدان واسع، وقضية اللباس قضية مهمة في أمر الإغواء.

وأول ما يحرص عليه كثير من النساء، أن تتفرد الواحدة منهن باللباس الذي تلبسه، فلا يشاركها في مثله غيرها، وهذا دافعه ـ في الغالب ـ نزعة الكبر والترفُّع على الأخريات، وهذا مما حرمه الله تعالى.

والأمر الآخر، فإن الإسلام يطلب في ثوب المرأة أن يكون واسعاً فلا يصف أعضاءها، وأن يكون سميكاً فلا يشف.

وقد تحدّث الرسول ﷺ عن بعض النساء وخروجهن عن أوامر الإسلام في هذا الشأن فقال: «**صنفان من أهل النار لم أرهما... ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا**»[١].

وهذا الحديث من أعلام النبوة، فهو ﷺ تحدّث عن هؤلاء النساء ولم يكن قد رآهن، ولقد أتيح لمن عاش أيامنا هذه أن يرى هذا الوصف الوارد في الحديث الشريف.

لقد استطاع إبليس وجنوده من شياطين الإنس والجن، أن ينزعوا عن المرأة حجابها شيئاً فشيئاً، ثم تَعْرِيتها شيئاً فشيئاً، حتى وصلت إلى حالة مشينة لا يرضاها لها عاقل، وأصبحت في عبودية مطلقة لكل زي جديد..

«إن بيوت الأزياء ومصمميها، وأساتذة التجميل ودكاكينها، لهي الأرباب التي تكمن وراء هذا الخبل الذي لا تفيق منه نساء الجاهلية الحاضرة، ولا رجالها كذلك، إن هذه الأرباب تصدر أوامرها فتطيعها القطعان والبهائم العارية في أرجاء الأرض طاعةً مزرية، وسواء كان الزي الجديد لهذا العام يناسب قوام أية امرأة أو لا يناسب، وسواء كانت مراسم التجميل تصلح لها أو لا تصلح، فهي تطيع صاغرة، وإلا «عيّرت» من بقية البهائم المغلوبة على أمرها»[٢].

«وإن الإنسان ليبصر أحياناً بالمرأة المسكينة، وهي تلبس ما يكشف عن سوءتها، وهو في الوقت ذاته لا يناسب شكلها ولا

---

(١) رواه مسلم (٢١٢٨).

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٢٨٤).

تكوينها، وتضع من الأصباغ ما يتركها شائهة، أو مثاراً للسخرية، ولكن الألوهية القاهرة لأرباب الأزياء والموضات تقهرها وتذلها لهذه المهانة التي لا تملك لها ردّاً، ولا تقوى على رفضها، لأن المجتمع كله من حولها يدين لها..»[١].

إن المرأة التي جعلها دينها لا تسير مع القطيع الذي تحدَّث عنه سيد قطب رحمه الله من حقِّها أن ترفع بذلك رأساً، وتحمد الله تعالى على ذلك، فما كان الحجاب إلَّا تكريماً لها واحتفاظاً بجمال أنوثتها، ألا يكون معروضاً في الشوارع والصالات العامة عرض البضائع في الدكاكين.. بل ليكون عاملاً في بناء الود والرحمة في إطار الأسرة.

إن الاختلاط الذي منعه الإسلام، قد أثر تأثيراً سلبيّاً على شخصية المرأة من حيث كيانها النفسي، وهذا ما يذكر بعظمة هذا الدين عندما منع تشبه أحد الجنسين بالآخر.

إن الاختلاط الدائم نشأ عنه ما أطلق عليه اسم «الجنس الثالث»، رجال مخنثون ونساء مسترجلات، وبات يصعب التفريق بين الجنسين.

«قال المعلق البريطاني «كونبتبن كرو»: كثيراً ما يختلط علينا الأمر في بريطانيا، فلا ندري هل طابور الدراجات البخارية المقبل من بعيد هو طابور نسوان أو رجال، فجميعهم شعورهم قصيرة، وكلهم يرتدون السوتير والبنطلون القصير، ويدخنون، وسبحان من قلب رجال العصر إلى نساء، ونساءهم إلى رجال».

ويقول: «ول ديورانت» مؤلف «قصة الحضارة»:

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٩٤٠).

«إن المرأة التي تحررت من عشرات الواجبات المنزلية، ونزلت فخورة إلى ميدان العمل إلى جانب الرجل، في الدكان والمكتب، قد اكتسبت عاداته وأفكاره وتصرفاته، ودخنت سجائره، ولبست بنطلونه..»[١].

وبناءً على ذلك يقول الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله: «إن الأنوثة لا تتمتع بها إلا المرأة التي تجلس في بيتها، حيث ترعى أولادها بنفسها، وتقوم بجميع أعمال المنزل، أما المرأة العاملة فهي مجردة نهائيّاً من الأنوثة»[٢].

إن الإسلام الذي أراد أن يكون للرجل لباسه الخاص به والملائم لوظيفته في الحياة، ويكون للمرأة لباسها الخاص بها والملائم لوظيفتها في الحياة، والذي يقوم على الستر «الحجاب»، إنما فعل ذلك للحفاظ على المجتمع في وضعه السليم، وعدم تعريضه للفوضى.

يقول «ألكسيس كاريل»:

«يجب علينا الآن أن نعيد إنشاء الإنسان ـ في تمام شخصيته ـ الذي أضعفته الحياة العصرية، ومقاييسها الموضوعة، كذلك يجب أن يُحدد الجنسان مرة أخرى، فيجب أن يكون كل فردٍ إما ذكراً أو أنثى، ولكي نعيد تكوين الشخصية يجب أن نحطِّم هيكل المدرسة والمصنع والمكتب، وأن ننبذ الحضارة التكنولوجية نفسها.

يجب أن يدرك الوالدان بوضوح: أن دورهما حيوي، ويجب أن

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون، للدكتور مصطفى السباعي، ص (٢٤٩ ـ ٢٥٠).
(٢) المرجع السابق، ص (٢٥٥).

يُعدّا لتأديته.. يجب أن تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التي لا تشتمل على الحمل فقط، بل أيضاً على رعاية صغارها»[1].

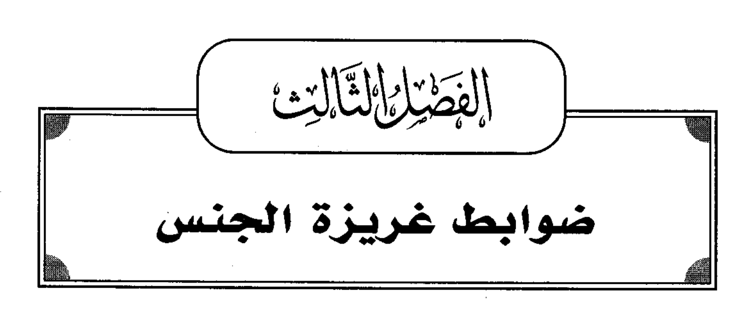
انظر إلى قوله: «يجب أن يكون كل فرد إما ذكراً أو أنثى» إنها صرخة عاقل يريد أن يتدارك البناء قبل أن يقع على رأس ساكنيه.

إن المنهج الإسلامي ـ وحده ـ هو القادر على أن يبقي على المرأة «امرأة» وعلى الرجل «رجلاً».

واللباس والحجاب، والفصل بين الجنسين حيث لا ضرورة للاختلاط هو وحده الكفيل بما طالب به الدكتور الكسيس كاريل.



(١) الإنسان ذلك المجهول، تأليف: ألكسيس كاريل، ص (٣٥٣).



جاء الإسلام ليعيش في واقع الناس، ليضبط أمورهم، وينظم مجتمعهم، وذلك من خلال تربية الفرد تربية صحيحة في بيئة تعطف عليه وتعنى به بدافع من الحب والعاطفة الجياشة نحوه.

ولا يكون ذلك إلَّا في إطار الأسرة المترابطة المتحابة..

وقد جعل الله في بنيان كل من الجنسين غريزة فطرية هي «غريزة الجنس» لتكون العامل الباعث على إنشاء هذه الأسرة.

فقد اعترف الإسلام بهذه الغريزة، ولم يستقذرها، كما فعلت بعض المذاهب والأديان، ولم يطلق لها العنان بالإشباع على طريق الحيوان.. بل ضبطها وجعل لها طريقاً مشروعاً معلناً.. وهو الاقتران بين الذكر والأنثى عن طريق الزواج..

وهذه الطريقة هي سنة الأنبياء والمرسلين، ومنهم سيدنا محمد ﷺ الذي قال في حق من رغب عنها: «**ليس مني**».

وجاء القرآن الكريم ليرسم صورة هذا الزواج فقال:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

فالزواج الذي جاء في هذه الآية الكريمة ليس مجرد اتصال جنسي لقضاء الوطر بشكل آني ثم يذهب كل في سبيله، إنه السكن

النفسي الذي يجده كل من الطرفين بلقائه الآخر، تخيم عليه ظلال الرحمة، ويوثق رباطه وثاقُ الودّ.

وفي مثل هذا الجو العامر بالحب والود ينشأ الأطفال في رعاية الوالدين.

هذه هي طريقة تلبية رغبات الجنس في المنهج الإسلامي، طريقة نظيفة، تترتب عليها آثارها، تقوم على أساس من التراضي الكامل بين الطرفين، محاط بمباركة الأهل والأقارب.

وبهذا تتحقق «كرامة» الإنسان، كرامة كل من الرجل والمرأة في حرية اختيار الطرف الثاني الذي سيصاحبه في رحلة العمر، وكرامة المولود القادم الذي سيكون محل ترحاب ومحبة وتوثيق للرباط بين الوالدين.

ومن أجل المحافظة على مؤسسة «الأسرة» منع الإسلام كل سبيل آخر لقضاء حاجة «الجنس» من غير هذا الطريق..

وكل تلبية للغريزة على غير هذا السبيل أطلق عليه الإسلام ـ وكذا بقية الأديان ـ عنوان «الزنى» وما يلحق به من شذوذ جنسي وغيره، وجعله محرماً، وفرض في حق فاعله عقوبة رادعة تتناسب مع ما ينشأ عنه من أضرار تصيب الأسرة والمجتمع.

وقد جاء النهي عن سلوك هذا السبيل في آيات عدة من القرآن الكريم؛ منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

إنه «فاحشة» بكل ما تعنيه الكلمة.

إنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها، يتبعه غالباً الرغبة في

التخلُّص من آثاره بقتل الجنين.. وإن تُرِكَ ترك لحياة شريرة، أو حياة مهينة..

«وهو قتل للجماعة من جانب آخر، إذ إنَّ سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة لها، ويجعل الأسرة تبعة لا داعي لها، والأسرة هي المحضن الصالح للفراخ الناشئة، لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلَّا فيه.

وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلَّا صارت إلى انحلال.

والقرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنى، وهي مبالغة في التحرز، لأن الزنى تدفع إليه شهوة عنيفة، فالتحرز من المقاربة أضمن، فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان.

ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسبابه الدافعة، توقِّياً للوقوع فيه.. فيكره الاختلاط في غير ضرورة، ويحرم الخلوة.

وينهى عن التبرج بالزينة.

ويحضُّ على الزواج لمن استطاع، ويوصي بالصوم لمن لا يستطيع.

ويكره الحواجز التي تمنع الزواج كالمغالاة في المهور.

وينفي الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد.

ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم.

ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين تقع.. إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج، ليحفظ الجماعة الإسلامية من التردي والانحلال»[1].

---

(١) في ظلال القرآن، عند تفسير الآية الكريمة (٤/ ٢٢٢٤).

وهكذا يحرم الإسلام الزنى تحريماً شديداً، ويضع عليه من العقوبات الصارمة ما يدفع إلى عدم التفكير فيه، وبخاصة أن سبيل «الزواج» ميسر مفتوح في ظل تعاليم هذا الدين.

على أن فاحشة الزنى لا يقتصر أثرها على الأضرار التي سبق ذكرها، وإنما لها آثار أخرى لا تقل ضرراً عما سبق ذكره، تتعلق بصحة المجتمع.

فقد قال الصادق المصدوق ﷺ:

«لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلّا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»(١).

والأمراض التي ظهرت ـ كما أخبر ﷺ ـ نتيجة لتفشي هذه الفاحشة وانتشارها كثيرة؛ حاول الطب أن يوجد العلاج لها..

وكان آخرها مرض «نقص المناعة» المسمى «الإيدز» والذي اكتشف منذ عقود من الزمن، وسخرت له الدول الكبرى إمكاناتها في مكافحته وإيجاد العلاج الشافي أو الواقي؛ فلم يعثروا على شيء حتى الآن.

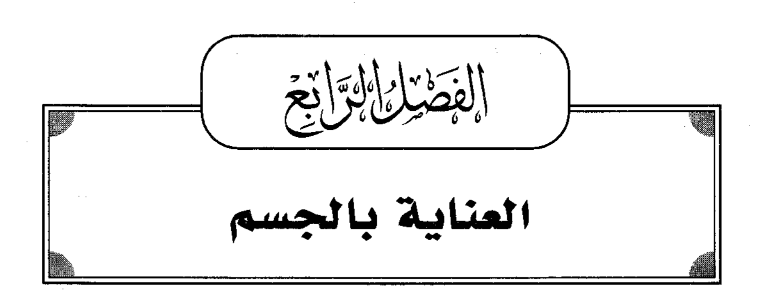
والغريب أنهم يعرفون أن السبب هو هذه الفوضى في ممارسة الجنس، ولا يحاولون الاستفادة من ذلك بمنع الناس من ذلك.

إن الالتزام بالإسلام يجنب الناس هذا الشر وغيره، فالله سبحانه هو خالق هذا الإنسان، وهو الأعلم بما يصلح له، ولذا فالتزام شرعه هو المنجاة...



---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩).



الفصل الرابع

العناية بالجسم

يُلزِمُ الإسلامُ الإنسانَ العناية ببدنه، ابتداء من الحفاظ على الحياة وحتى أدنى شيء يساهم في صحة هذا الجسم.

فالجسم ليس ملكاً لصاحبه يتصرف فيه كما يريد، بل هو ملك لله سبحانه، ومن هنا كان الانتحار جريمة كبيرة.. مثلها مثل أي جريمة قتل أخرى.

والإسلام إذ يحرم ذلك فإنه يمنع الأسباب التي تؤدي إلى التفكير فيه مادية كانت أو نفسية، ويسلّح الإنسانَ بالصبر.. الذي يمنعه من الوصول إليها.

وتقف عقيدة «الإيمان بالقدر» حائلاً كبيراً دون وقوع هذه الجريمة.

وبهذا التكامل في المنهج الإسلامي، يصون الإسلام «البدن» من اعتداء صاحبه عليه، كما يحميه من اعتداء غيره عليه.

إن أكبر الكبائر من الذنوب عند الله: الإشراك بالله، وقتل النفس...

* * *

وإذا كان الإتلاف المباشر للنفس محرماً، فكذلك الإتلاف غير

المباشر والناتج عن التهاون في الحفاظ عليها، ولهذا نبّه الإسلام على هذه القضايا حتى لا يفرط الإنسان ويتهاون بها.

- ومن ذلك الدفاع عن النفس ضد المعتدي عليها، ويعد المقتول في هذا السبيل شهيداً، فمن قتل دون نفسه فهو شهيد.

- ومن ذلك ما حرمه الإسلام من الأطعمة والأشربة، فكلها ضارة بالجسم، بل وكل ما ثبت ضرره ممَّا لم يأتِ نص به فهو حرام، وفقاً للقاعدة العامة: «**لا ضرر ولا ضرار**».

وطلب الإسلام العمل على الوقاية من الأمراض قبل وقوعها، وإذا انتشر مرضٌ معدٍ في مكان ما، فإنه يمنع الدخول إليه والخروج منه، حصراً للمرض في مكانه، وقد فعل الإسلام هذا منذ مجيئه قبل أن تتنبه إليه الأمم الأخرى بمئات السنين.

- إن الوقاية تكون قبل وقوع المرض، فإذا وقع فالمطلوب التداوي واتخاذ الأسباب في مكافحته، وقد قال ﷺ: «**تداووا عباد الله، فإن الله سبحانه لم يضع داء إلا وضع معه شفاء**»[1].

وقال ﷺ: «**ما أنزل الله داء إلَّا أنزل له شفاء**»[2].

وكان من دعائه ﷺ حين يصبح وحين يمسي قوله: «**اللَّهم عافني في بدني، اللَّهم عافني في سمعي، اللَّهم عافني في بصري، لا إلـه إلَّا أنت**»[3].

* * *

(١) رواه أبو داود (٣٨٥٥)، وابن ماجه (٣٤٣٦) وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٨).

(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٠).

وتعد النظافة الأساس في الحفاظ على صحة الجسم، وصحة البيئة، والصحة العامة. . .

وللإسلام نظامه الكامل الذي يتناول بيان ما ينبغي فعله للوصول إلى النظافة في الجسم وفي الثياب وفي البيت وفي الشارع. . وفي المدينة.

وليس من مجال في مثل هذا البحث المقتضب أن نتناول ذلك بالتفصيل، ولكني أكتفي بإشارات سريعة تدل على مجمل الموضوع:

● فالنظافة وإن كانت عملاً فطريّاً، تدفع إليه الفطرة، فإن الإسلام جعلها في مكانة عالية، فـ «**الطهور شطر الإيمان**» كما جاء في الحديث الشريف[(١)].

ويثني الله سبحانه على المتطهِّرين فيجعلهم أهلاً لمحبته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

● وهي أول عمل يقوم به المسلم عند دخوله في هذا الدين وانتسابه إليه، قال قيس بن عاصم رضي الله عنه: أتيتُ رسول الله ﷺ أريد الإسلام، فأمرني أن أغتسل بماء وسدر[(٢)].

● وهناك أوليات في النظافة، أطلق عليها الإسلام اسم «سنن الفطرة»؛ وهي ـ كما هو واضح من اسمها ـ أمور تدعو إليها الفطرة، ومع ذلك فالإسلام يأمر بها حتى لا يتهاون الناس بها، ومن ذلك: الختان، وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف شعر الإبط، وحلق العانة.

والملاحظ أن هذه الأمور منها ما هو ظاهر كقص الشارب، ومنها ما هو مستور بالثياب ومع ذلك فالأمر يتناولها جميعاً.

● وغسل اليدين قبل الطعام وبعده مما أمر به الإسلام، كما جاء

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

(٢) رواه أبوداود (٣٥٥)، والترمذي (٦٠٥)، والنسائي (١٨٨).

ذلك في قوله ﷺ: «**بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده**»(١) ومعلوم أن المقصود هنا بالوضوء معناه اللغوي، وهو غسل اليدين.

• والنظافة في الإسلام جزء من الحياة اليومية، يرسم خطها العام «الوضوء» الذي يتكرر في كل يوم أكثر من مرة.

والوضوء عملية غسل تتناول الأعضاء الظاهرة من الجسم، وفق نظام وترتيب، وهي تشمل: الوجه، واليدين إلى المرفقين، والرجلين إلى الكعبين، كما تتناول مسح الرأس والأذنين، ويكون تنظيف الفم بالمضمضة، والأنف بالاستنشاق.

ويسبق الوضوء عند قضاء الحاجة غسل المحل بالماء..

إن هذا الوضوء شرط للصلاة لا تصح إلَّا به.

• ويطلب الإسلام غسل جميع الجسم مرة كل أسبوع على الأقل، قال ﷺ: «**حق على كل مسلم، أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً، يغسل فيه رأسه وجسده**»(٢).

ومعلوم أن هذا الأمر يتناول الرجل والمرأة.

• ومن أجل صلاة الجمعة، يطلب ممن وجب عليه حضورها أن يغتسل.

• كما يطلب الغسل من كل من الرجل والمرأة عقب الوصال الجنسي بين الرجل وزوجته.

• وما نعتقد أن ديناً اهتم بالنظافة كما فعل الإسلام، وفيما سبق

(١) رواه أبو داود (٣٧٦١)، والترمذي (١٨٤٦).
(٢) رواه البخاري (٨٩٧)، ومسلم (٨٤٩).

ذكره أكبر دليل على ذلك، ولكنه لم يكتفِ بذلك؛ فعندما يكون هناك مناسبات يتجمع فيها الناس، فإن الإسلام يطلب الاغتسال لها، كالأعياد، وفي أداء مناسك الحج عدة مرات يغتسل الإنسان فيها، على الرغم من شح الماء في تلك الأماكن يوم جاء الأمر بفرض الحج.

• ليس هذا فحسب، بل إننا لنقرأ في سنن أبي داود قوله ﷺ وهو يوصي بعض أصحابه: «**إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رحالكم، وأصلحوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله لا يحبُّ الفحش ولا التفحش**»[1].

فهؤلاء الصحابة مسافرون.. وطلب منهم ﷺ أن يصلحوا رحالهم ويصلحوا لباسهم، وتغيير اللباس بالنسبة للمسافر يعني غسل الجسم.. حتى يكونوا كأنهم شامة في الناس، أي يكونوا متميزين بنظافتهم وطهارة ثيابهم وأناقة رحالهم.

تلك أمور تتعلق بنظافة الجسم، ويكملها الإسلام بطلب نظافة ما يلابسه الجسم، فلا بدّ من طهارة الثياب، التي تؤدّى فيها الصلاة، ولابدّ من طهارة المكان أيضاً.

وهكذا تكون الصلاة التي تؤدى كل يوم خمس مرات، عاملاً دافعاً إلى طهارة الجسم وما يحيط به..

وتلك ـ والله ـ غاية الطهارة والنظافة التي لا مزيد عليها[2].



---

(١) رواه أبو داود (٤٠٨٩).

(٢) إن رغبت التوسع في ذلك فانظر: التربية الجمالية في الإسلام، للمؤلف، ص (٥٧ ـ ٦٦)، نشره المكتب الإسلامي.



المقصد الثاني
آثار الالتزام بالإسلام

الباب الرابع

آثار الالتزام بالإسلام على العمل



ـ ١ ـ
تمهيد

ليس «العمل» واحداً من مكونات الإنسان، كالعقل والروح والجسم، ولكنه: «النشاط» الصادر عن الإنسان، والذي تتكون شخصيته ـ في المجتمع ـ من خلاله، وعلى أساسه يوصف بـ «الصلاح» أو «الاستقامة» أو غير ذلك من مدح أو ذمّ.

ومن هذا المنطلق تأتي مكانة العمل وأهمية الحديث عنه.

وقد تبيّن لنا من الأبواب السابقة المنهاج الذي وضعه الإسلام لكل من الجسم والعقل والروح، وإذا انتظم الإنسان مع هذا المنهج الذي يوازن بين نشاطاته، فإنه سيكون محلّاً لإنتاج كل عمل صالح.

كما تبيّن لنا من خلال بحث «الإحسان» في المقصد الأول، وبحث «تزكية النفس» في المقصد الثاني، الجانب التطبيقي، وكيف يكون على أرض الواقع.

إن «العمل» هو ميدان الاختبار، الذي يظهر من خلاله مدى التأثير الذي أحدثه الإسلام في بنية «المسلم» جسماً وفكراً وروحاً.

ولن يكون الحديث في هذا الباب عن «العمل» تفصيلاً، فذلك يحتاج إلى بحث مستقل، ولكنها خطوط عريضة، نستكمل بها بحث أثر الالتزام بالإسلام.

***

- ٢ -
المقصود بالعمل

والمقصود بـ «العمل»: كل ما يصدر عن الإنسان من نشاط؛ فيدخل في هذا التعريف:

- **العمل البدني**: سواء أكان مصاحباً بالعمل الفكري، أو كان منفرداً عنه.

- **العمل القولي**: الصادر عن اللسان، بما فيه الكتابة التي تقوم مقام القول.

- **العمل الروحي والوجداني**: وما يتردد على القلب من خواطر.

وهذا التقسيم - كما هو واضح - يتناول كل نشاط الإنسان وما يصدر عنه.

وقد سبق عند الحديث عن تزكية النفس، تقسيم العمل إلى ثلاث فئات: العبادات (بالمفهوم الخاص)، والمعاملات، والأخلاق.

ونضيف إلى ذلك: أن كل فئة من هذه الفئات، يمكن أن تكون عملاً بدنيّاً أو قوليّاً أو وجدانيّاً.

وبهذا يتبين المدلول الواسع في منظور الإسلام لكلمة العمل، وهذا المحتوى جميعه يدخل تحت مسمى «العبادة» كما سبق بيان ذلك.

وقد يكون من المستحسن ذكر بعض الأمثلة لبيان ما سبق.

فالصوم عبادة بدنية،وذكر الله، والدعاء، وقراءة القرآن، والأمر

بالمعروف، والنهي عن المنكر، عبادة قولية، وذكر الله في النفس[(١)]، والتفكير في مخلوقات الله سبحانه. . عبادة وجدانية.

وتأجير الإنسان نفسه لبناء جدار، معاملة بدنية،واستئجار محامٍ للمرافعة أمام محكمة في قضية، معاملة قولية، والتفكير في حل خصومة بين متعاملين، أو التفكير في التنازل عن حق مستحق على معسر. . معاملة وجدانية.

وأن تحمل متاعاً لإنسان ضعيف فتوصله إلى بيته، أو تساعده في عمل، فهذا عمل أخلاقي بدني، وأن تنصح إنساناً وترشده إلى ما يصلح به حاله، فهذا عمل أخلاقي قولي، وأن ينشغل فكرك بهموم المسلمين. . فهذا عمل وجداني أخلاقي.

وإذن فحينما نسمع قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥]، فلن ينحصر فكرنا في عمل معين كالعبادات بمفهومها الخاص مثلاً. . وإنما نفهم أن المقصود العمل في مجالاته الواسعة وبكل أنواعه، وكذلك عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] فهذه «الذرة» من العمل ـ في الخير كانت أو الشر ـ قد تكون في عمل من العبادة أو المعاملة، أو السلوك الأخلاقي.

وخلاصة القول: إن المسلم مسؤول عن عمله كله، لأنه داخل تحت الأمر والنهي، وبالتالي فهو عبادة.

* * *

---

(١) ومن ذلك ما ورد في حديث السبعة الذين يظلهم الله، ومنهم: «**ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**» البخاري (١٤٢٣).

- ٣ -
القول من العمل

سبق الحديث عن كون «القول» من العمل.

ولما لهذا النوع من العمل من أهمية خاصة بسبب مساحته الواسعة التي يشغلها من وقت الإنسان وتفكيره، فقد أولاه الإسلام عناية خاصة للتنبيه على خطره.

فقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]، وهذه الآيات الكريمة تنص على كتابة جميع أعمال الإنسان ومن جملتها الأقوال.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦ ـ ١٨]، وهذه الآيات تنصُّ على كتابة الأقوال خاصة.

وهذا يدلُّ على خطر عمل اللسان، حيث دخل في عموم الآيات الأولى، ثم جاءت آيات (سورة قٓ) خاصة به.

وإذا كان الأمر كذلك، فحريٌّ بالمسلم العاقل أن يضبط أقواله ويحاسب نفسه عليها، وأن يخضعها للتصحيح قبل أن تصدر عنه.

وقد جاء في حديث معاذ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال له: «**كفَّ عليك هذا**» وأشار إلى لسانه، فقال معاذ: يا نبي الله! وإنا لمؤاخذون

بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟!**»(١).

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ﷺ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إن العبد ليتكلَّم بالكلمة، ما يتبين فيها؛ يزلُّ بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»(٢).

والمطلوب من المسلم في شأن اللسان أمران:

الأول: عدم الكلام فيما لا يعنيه، وأن يكون بقدر الحاجة؛ قال الإمام الأوزاعي: ما عرف عبد أن منطقه من عمله إلا قلَّ كلامه(٣).

الثاني: أن يكون دقيقاً في كلامه، فلا يتكلَّم بالكلمة إلا بعد إخضاعها لرقابة العقل، فكما أن المسلم لا يقوم بعمل حتى يعلم حكم الله فيه، فكذلك شأن الكلام، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠].

إن شأن اللسان خطير، وهذا ما يفسِّر لنا كثرة الأحاديث النبوية التي تناولت هذا الموضوع(٤)، كذلك البحوث الطويلة التي كتبها علماء السلوك والأخلاق في كتبهم عند الأحاديث عن آفات اللسان(٥).

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والحاكم، و قال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

(٣) تهذيب حلية الأولياء (٢/ ٢٩١).

(٤) انظر ـ إن رغبت ـ في هذا الموضوع: الجامع بين الصحيحين، الأحاديث (٣١١٦ ـ ٣١٤٨)، وزوائد السنن على الصحيحين ـ كلاهما للمؤلف، الأحاديث (٦٩٠٨ ـ ٦٩٧٠).

(٥) انظر على سبيل المثال: المهذب من إحياء علوم الدين، للمؤلف (٢/ ٦٥ ـ ٩٦)

أكتفي بهذه النبذة المقتضبة عن هذا الموضوع، وهي في حدود ما يسمح به المكان ضمن هذا الكتاب.

- ٤ -
العمل المطلوب

والمطلوب: إطاعة الله تعالى.

ولله ﷻ أوامر ونواهٍ.

فالعامل على تنفيذ الأوامر، واجتناب النواهي، يسمى مطيعاً، ويوصف عمله بـ «الصالح»، ويسمى: طاعة.

والعامل على مخالفة الأوامر، وفعل النواهي، يسمى عاصياً، ويوصف عمله بـ «السيِّئ»، ويسمى: معصية.

والمطلوب من المسلم أن يكون من النوع الأول، وعندما يلتزم هذا المسلك يكون في عداد الذين يعملون الصالحات.

فالعمل الصالح نتاج «الإيمان» الذي سبق الحديث عنه، وقد جاء العمل «الصالح» مقترناً «بالإيمان» في القرآن الكريم، في أكثر من خمسين موضعاً بلفظ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

إن هذا التلازم بين الأمرين يؤكد أهمَّ مواصفات العمل، وهو استناده وانبثاقه عن الإيمان حتى يكون مقبولاً، وقد قال ﷻ في حق العمل الذي لم يكن كذلك: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وحتى يكون العمل صالحاً، فلابدّ له من شروط ينبغي أن تتوفر فيه، وأهمها أمران:

الأول: أن يكون الباعث عليه ـ المسمَّى بالنية ـ صحيحاً.

فالذي صلى حتى يراه الناس، والذي تبرَّع بمال عظيم بقصد الحصول على ثناء الناس، أو ابتغاء الحصول على منفعة مادية من وراء ذلك.. فهذا باعثه على العمل باعث فاسد، يجعل العمل فاسداً، وإن كان في ظاهره الصلاح.

إن النيّة الباعثة على العمل ينبغي أن تكون سليمة، أي ابتغاء مرضاة الله تعالى، أو تنفيذاً لأمره.. وقد سبق شرح جانب من هذا الموضوع.

والثاني: أن يكون العمل المنتج سليماً صحيحاً، سالماً من العيوب ـ كما سبق شرح ذلك ـ ومن أمثلته: ما وقع في زمن النبيّ ﷺ، ونزل القرآن الكريم بشأنه: عن البراء ﷺ، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو[(١)] والقنوين، فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فيضربه بعصاه، فيسقط من البسر[(٢)] والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير، يأتي الرجلُ بالقنو من الشيص[(٣)]

---

(١) **القنو**: العذق، وهو بالنسبة للنخيل كالعنقود بالنسبة للعنب.

(٢) **البسر**: التمر قبل أن يصبح رطباً.

(٣) **الشيص**: أردأ التمر.

والحشف[١]، وبالقنو قد انكسر، فيعلقه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، قالوا: لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطاه لم يأخذه إلا على إغماض وحياء، قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده»[٢].

إن إحسان العمل أمر مطلوب، وهو درجات، وتارة يكون عدم الإحسان سبباً في نقص الثواب، وتارة يكون سبباً في بطلان العمل.

جاء عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عُشْرُ صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»[٣].

وذلك بحسب الخشوع فيها، أو الأداء الصحيح.

وقد تبطل الصلاة كلها لو كانت الصلاة على أرض غير طاهرة...

وخلاصة القول: فالمطلوب هو العمل الصالح.



- ٥ - الغاية والمؤيدات

إن الغاية المنشودة للمسلم في الحياة الدنيا هي الوصول إلى محبة الله تعالى له، وهي بدورها سبيل النجاة في الآخرة.

---

(١) **الحشف**: أردأ التمر، أو اليابس الفاسد.

(٢) رواه الترمذي (٢٩٨٧).

(٣) رواه أبو داود (٧٩٦).

وقد يسَّر الإسلام سبيل الوصول إلى ذلك. . بالإيمان والعمل الصالح.

فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧].

إنها الأعمال الصالحة.

والارتقاء بالأعمال ـ كلها ـ حتى تحصل على وصف «الصالحات» أمر يحتاج إلى نوعين من الجهد: جهد وجداني، وجهد عملي.

أما الجهد الوجداني: فهو أن يرتقي العمل حتى يكون في مقام الإحسان، ولا يكون ذلك إلا حيث يرتقي الشعور بـ «الرقابة» إلى أن يصبح تطبيقاً لقوله ﷺ: «**اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

والقرآن الكريم يؤكد في آياته الكريمة الكثيرة على التذكير بهذه الرقابة، فإن استشعارها الدائم هو الواقي من الخلل والخطأ، والمساعد على البقاء في دائرة الإحسان.

ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الحديد: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وآيات.. وآيات.

إن صلة المسلم بالقرآن وثيقة، فهو يقرأ كل يوم هذه الآيات وأمثالها؛ فيتجدَّد شعوره بهذه «الرقابة» حتى تكون جزءاً من كيانه، وعنصراً قائماً في تكوينه..

فإذا كان كذلك، فيصعب والحالة هذه أن يقدم على ارتكاب معصية وهو يعلم أن الله مطلع عليه..

إن هذا الجهد الوجداني في أمر الرقابة، سيكون كذلك لمدة يسيرة من الزمن، ثم يعتاده المسلم ليصبح جزءاً من تكوينه كما سبق ذكر ذلك.

وأما الجهد العملي: فهو الإكثار من النوافل بعد أداء الواجبات، النوافل بمفهومها العام الذي سبق شرحه.. فإن العبد ما يزال يتقرب إلى الله بالنوافل حتى يحبه..

والقرآن الكريم يحضُّ كثيراً على القيام بأعمال الخير، التي تسهم في تقرب العبد من ربه؛ ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤].

وعندما يلتقي الجهد الوجداني مع الجهد العملي، فسوف تتمحض أعمال المسلم في دائرة «الخير»، وتصبح نفسه فياضة به، فهو غريزة من غرائزها وسجية من سجاياها، وعندما يكون كذلك فلن يكون فيها محلاًّ للشرّ.

* * *

ـ ٦ ـ
تصحيح المسار

ما سبق ذكره، لا يعني أن الإنسان المسلم سيتحول إلى ملك كريم، ولكنه يسعى جهده أن يظل في دائرة الخير، مع ذلك قد تزل به القدم، بسبب غفوة أو كبوة.. فإن ذلك لا يخرجه من دائرة الخيرية.. إذا رجع إلى الله تعالى بالتوبة النصوح.

وقد ذكر الله تعالى ذلك بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦].

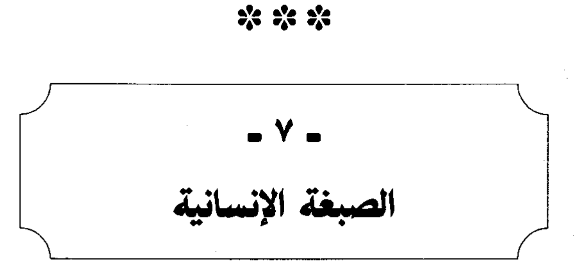
وقد وصف الله المؤمنين بقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فالغالب على حال المتقين أنهم ـ بعون الله تعالى ـ يتداركون أنفسهم قبل الوقوع في المعصية، وتبقى دائرة عمل الشيطان في الوسوسة التي لا ترقى إلى درجة الفعل والتنفيذ.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

* * *



ـ ٧ ـ
الصبغة الإنسانية

أراد الإسلام أن تكون «الخيرية» في المسلم غير مقيدة باتجاه معين، بل أرادها طليقة، كما سبق القول، حتى تكون كالغريزة تفيض من نفس المسلم، لتكون في نفع «الإنسان» بغض النظر عن الملابسات المحيطة به.

ولهذا المعنى جاءت النصوص الكثيرة، حاضَّة على فعل الخير، ساكتة عن المتلقي لهذا الخير، حتى لا تكبح من انطلاقه وتحصره في مكان ضيق...

وانظر معي:

إلى قوله ﷺ: «**في كل ذات كبد رطبة أجر**»(١) إن «الكبد» هنا لا توصف بالمسلمة أو غير المسلمة.. بل إنها لتتجاوز الإنسان إلى الحيوان، وهو سبب ورود الحديث.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤).

وإلى قوله ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»[١].

وهكذا يوجه الحديث الرحمة إلى «الإنسان» كل إنسان، ويتجاوز ذلك حتى يصل إلى الحيوان.

وقال ﷺ: «**أحبُّ الناس إلى الله أنفعهم للناس**»[٢] هكذا «**للناس**».

وقال ﷺ: «**ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلّا كان له به صدقة**»[٣] وهكذا تأتي كلمة «**إنسان**» بصيغة التنكير حتى تكون عامة وتشمل كل إنسان، والحديث بعد ذلك يتناول الطير والبهائم.

وإذا كان المسلم مطلوباً منه أن يكون في «خيريته» عامّاً، فكذلك مطلوب منه أن يكف شره عن الناس كل الناس، بالطريقة نفسها.

قال ﷺ: «**من غش فليس مني**»[٤] إن الحديث هنا يتناول فعل «الغش» ولا ينظر إلى من وقع عليه الغش.

وهكذا تُوجَّه «الخيرية» في نفس المسلم لتكون «إنسانية» لا تقف عند حدود الدين أو المذهب أو اللون أو الجنس.. أو الأرض..

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] فالمراد الذين اتصفوا بالإحسان، ولم يذكر سبحانه لمن يوجه هذا

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤).

(٢) صحيح الجامع الصغير (١٧٦)، ومجمع الزوائد (١٣٧٠٨).

(٣) رواه البخاري (٢٣٢٠)، ومسلم (١٥٥٣).

(٤) رواه مسلم (١٠٢).

الإحسان، بل اكتفى بذكر الفاعل دون ذكر المتلقي، ليؤكد بذلك المعنى الذي سبق ذكره.

وإذا كانت هذه هي الأرضية العامة «للخيريَّة» فلا شك بأن الإسلام يرفع من شأنها وثوابها كلما ضاقت الدائرة؛ فهي حينما تكون للجار مثلاً فإنه يضاف إليها ثواب إكرام الجار الذي أمر به الرسول ﷺ، وعندما تكون لذوي الرحم، فإنه يضاف إليها كونها صلة رحم، وعندما تكون للوالدين فإنه يرتفع قدرها لتكون امتثالاً لأمره تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [البقرة: ٨٣].



- ٨ -
خطأ شائع

كثير من الناس - بل ومن الخطباء الذين يوجهون المسلمين - يقعون في ذم الدنيا، وذم الاشتغال بها والعمل من أجلها..

وهو خطأ شائع من زمن بعيد، ولعله بدأ في عهد الصحابة رضي الله عنهم من قبل التابعين.

ففي «الأدب المفرد» للإمام البخاري، عن أبي نضرة قال: قال رجل منا يقال له: جابر: طلبت حاجة إلى عمر رضي الله عنه في خلافته، فانتهيت إلى المدينة ليلاً، فغدوت عليه، وقد أعطيت فطنةً ولساناً، فأخذت في الدنيا فصغرتها، فتركتها لا تسوى شيئاً، وإلى جنبه رجل أبيض الشعر أبيض الثياب، فقال لما فرغت: كل قولك كان مقارباً، إلا وقوعك في الدنيا، وهل تدري ما الدنيا؟ إن الدنيا فيها بلاغنا إلى الآخرة، وفيها أعمالنا التي نجزى بها في الآخرة.

قال: فأخذ في الدنيا رجل هو أعلم بها مني، فقلت: يا أمير المؤمنين، من هذا الرجل الذي إلى جنبك؟ قال: سيد المسلمين أبي بن كعب[١].

إن الدنيا هي الزمن الذي يعيشه الإنسان، فهي بهذا المعنى ليست محلّاً للذم، وإنما الذي يذم هو العمل السيِّئ فيها.

ولا نجد في القرآن الكريم عملاً للدنيا وعملاً للآخرة، وإنما وصف العمل فيه بأنه صالح أو سيِّئ، وأثنى الله تعالى فيه على الذين يعملون الصالحات، وتوعَّد الذين يعملون السيئات.

فالذم إنما يوجه إلى العمل السيِّئ.

والقرآن الكريم يتحدث عن الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وحديثه عن الآخرة أوسع مساحة وأكثر تفصيلاً.. ولقد بات أمر الآخرة ـ نتيجة لذلك ـ في حسِّ المسلم واقعاً يعيشه، فهو امتداد لحياته الدنيا.

ولقد ذم القرآن الكريم الذين تطغى عليهم هذه الدنيا بحيث ينسون بسبب ذلك الآخرة، وهذا ـ عندما يحدث ـ خلل كبير في حياة المسلم وتصوره.

وقد سبق الحديث أن أعمال الإنسان كلها داخلة تحت «الأمر والنهي» فهي بهذا المقياس إما أن تكون أعمالاً صالحة أو أعمالاً سيئة، وعلى هذا الأساس يكون الحساب في الآخرة.. وإذن فكل حركة يقوم بها الإنسان تدخل في «موضوع الدين» لأنه محاسب عليها، وقد رأينا كيف أنه ينبغي أن يكون هوى الإنسان تابعاً لما جاء به الرسول ﷺ.

---

(١) الأدب المفرد (٤٧٦).

وهكذا تكون الدنيا ميداناً للعمل والتزود من الخيرات كما قال أبي بن كعب رضي الله عنه.

وذم «العمل» إنما ينتج عن جهل، فلقد رأينا كبار الصحابة رضي الله عنهم من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف.. يلهيهم الصفق في الأسواق.

ومن هذا الصفق في الأسواق جُهِّز جيش العسرة وأمثاله.. ومنه كانت تحلُّ مشكلات المسلمين الاقتصادية.. بل كان الصحابي الكريم يدعى إلى المساهمة في إنفاق في الخير فلا يجد؛ فيذهب ليحمل للناس أمتعتهم، ثم يأتي فيتبرع ويساهم في عمل الخير كما فعل أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

لقد قال ﷺ: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**» وكيف تكون عليا إذا لم تكن عاملة؟!.

* * *

وقد سبق القول بأن «نوافل الأعمال» التي تقرِّب إلى الله تعالى قد تكون في العبادات وقد تكون في المعاملات، وقد تكون في ميدان الأخلاق.

ومما يؤكد هذا المعنى ويوضحه قوله ﷺ: «**إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها؛ فله بذلك أجر**»(١).

«ولعل آخر ما كان يدور في ذهن السامعين أن يقول لهم الرسول

---

(١) ذكره علي بن عبد العزيز في: المنتخب، بإسناد حسن، عن أنس رضي الله عنه «عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، باب: الحرث والزراعة». عن كتاب: قبسات.

ﷺ ذلك الحديث! ولعلهم توقعوا أن يقول لهم: فليسرع كل منكم فليستغفر ربه عما قدمت يداه، ولكنه لم يقل شيئاً من ذلك.

إن طريق الآخرة هو هو طريق الدنيا بلا اختلاف ولا افتراق.. إنهما ليسا طريقين منفصلين.. ليس هناك طريق للآخرة اسمه «العبادة» وطريق للدنيا اسمه «العمل».

وإنما هو طريق واحد أوله في الدنيا وآخره في الآخرة، وهو طريق لا يفترق فيه العمل عن العبادة.. كلاهما شيء واحد في نظر الإسلام، وكلاهما يسير جنباً إلى جنب.

وتوكيد قيمة العمل، وإبرازه، والحضّ عليه، فكرة واضحة شديدة الوضوح في مفهوم الإسلام، ولكن الذي يلفت النظر هنا ليس تقدير قيمة العمل فحسب، وإنما هو إبرازه على أنه الطريق إلى الآخرة الذي لا طريق سواه..»[١].

وفي ضوء ما سبق نفهم قوله ﷺ: «**خيركم من طال عمره وحسن عمله**»[٢]؛ فطول العمر لمن صلح عمله إتاحة الفرصة له لتقديم ما أمكنه من الخير في صلاح الناس ومساعدتهم، وفكرة أن يقعد الإنسان عن العمل عند كبر سنه، أمر غير مطروق في المنهج الإسلامي، ولكنه عندما يضعف الإنسان عن عمل فهو ينتقل إلى عمل آخر يكون له القدرة على ممارسته، فمن حسنات طول العمر زيادة العمل الصالح.

ولما للعمل من قيمة فقد استعاذ الرسول ﷺ من: «**العجز والكسل**»[٣].

---

(١) قبسات من الرسول، للأستاذ محمد قطب، ص (١٥) وما بعدها.

(٢) قال في (كشف الخفاء): رواه أحمد، والحاكم وصححه، والترمذي.

(٣) رواه البخاري (٦٣٦٧)، ومسلم (٢٧٠٦).

«إن تخلف كمال العبد وصلاحه، إما أن يكون لعدم قدرته عليه، فهو عجز، أو يكون قادراً عليه، لكن لا يريد فعله فهو كسل.

وينشأ عن هاتين الصفتين: فوات كل خير، وحصول كل شر»(١).

***

إن الخلل الذي يبدو في عمل بعض الناس، فيدعو بعضهم الآخر إلى ذمه، واعتباره عائقاً عن الآخرة، إنما يرجع إلى عدم وضوح الضوابط التي وضعها الإسلام لصلاح العمل في أذهانهم، أو عدم الالتزام بها، وقد سبق ذكرها، والرئيسة منها هي:

- النية الصالحة والباعث الخيّر، وهذا ينفي العبث وضياع الوقت فيما لا فائدة فيه.

- أن يكون العمل ذاته حسناً، أو بتعبير آخر: في دائرة ما يطلبه الإسلام أو يبيحه.

- اتباع سلم الأولويات في تقديم الأهم على المهم، وقد سبق بيان أن النوافل إنما تكون بعد أداء الفرائض، كما ورد ذلك في الحديث القدسي الذي سبق ذكره.

- التوازن: فقد أقام الله سبحانه التوازن في تشريع فرائض العبادات والمعاملات والأخلاق، وترك للمسلم أن يوازن في نوافله بين هذه الفئات.

إن «العمل» عندما يصدر وفقاً لهذه الضوابط، سيكون مدعاة

---

(١) الهدي النبوي في الفضائل والآداب، لابن القيم، ص (١٨٥)، نشره المكتب الإسلامي.

للقبول عند الله تعالى، وسيكون صاحبه ضمن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

* * *

ـ ٩ ـ
الأولويات في العمل

سبق في أكثر من مكان في هذا البحث، ضرورة التزام المسلم بترتيب أعماله بحسب سلم الأولويات، وفقه هذا الواجب يعدّ من القواعد المهمة لهذا الدين، وهذا ما جعل أبا بكر رضي الله عنه يستفتح نصيحته لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله:

«اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة..»[(١)].

فأبو بكر رضي الله عنه يضع بين أيدينا مثالين عن كيفية العمل في ترتيب الأولويات:

الأول: كل عمل له توقيت معين فيجب أن يؤدّى فيه، ولا يؤخر عنه، فالعمل الذي محله النهار لا يقبل بالليل.

الثاني: النظر إلى مكانة العمل فالفرض مقدم على النافلة.

ولما لهذا الموضوع من مكانة في فقه العمل، فقد رأيت ضرورة تجليته وإيضاحه بما يزيل اللَّبس عنه، وللإمام الغزالي كلام سديد في الموضوع، أذكر بعضه؛ قال:

---

(١) تهذيب حلية الأولياء (١/ ٦٠)، نشره المكتب الإسلامي.

«الترتيب بين الأعمال الخيِّرة واجب، وترك الترتيب بين الخيّرات من جملة الشرور.

فقد يتعين على الإنسان فرضان: أحدهما يفوت، والآخر لا يفوت، أو فضلان: أحدهما يضيق وقته، والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب كان مفرِّطاً.

ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى.

فإن المعصية ظاهرة، والطاعة ظاهرة، إنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت.

وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد، إذ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أدناك فأدناك**»[1].

فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج.

وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج، فربما يحج، وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج، وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه.

وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة، فالجمعة

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤١).

تفوت، فالاشتغال بالوفاء بالوعد معصية، وإن كان هو طاعة في نفسه..»[١].

وتطبيق قاعدة «الأولويات» إنما تتم عندما يحسن المسلم الاستفادة من الوقت، فالمحور الأساس فيها، هو شغل الوقت بالأهم وتقديمه على المهم.

فالوقت هو أثمن ما يحافظ عليه.

وبما أن العمر محدود، ولا يدري صاحبه متى انتهاؤه، فينبغي عليه بذل الجهد والإسراع في إنجاز أكبر قدر من العمل.

وهذا ما دعا إليه القرآن الكريم في أكثر من آية من آياته، فقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١].

وصورة «المسارعة» وأكثر منها صورة «المسابقة» واضحة لكل قارئ للقرآن لا تحتاج إلى تفسير.

والمسارعة والمسابقة تعني انتهاز الفرص المتاحة عندما تتوفر، وهذا أمر واجب، فقد تجيء الفرصة ثم لا تعود، وهذا ما وضحه ﷺ بقوله: «**من أراد الحج فليتعجَّل، فإنه قد يمرض المريض، وتضل الضالة، وتعرض الحاجة**»[٢].

---

(١) المهذب من إحياء علوم الدين (٢/ ٢٤٠)، نشرته دار القلم بدمشق.
وقال ابن الجوزي: ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل، ولتكن نيته في الخير قائمة، من غير فتور بما لا يعجز عنه البدن من العمل. انظر: مواعظ الإمام ابن الجوزي، ص (٨١)، نشره المكتب الإسلامي.

(٢) رواه أبو داود (١٧٣٢)، وابن ماجه (٢٨٨٣).

وفي الحديث قوله ﷺ: «**بادروا بالأعمال الصالحة**»(١).

وفي الحديث قوله ﷺ: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»(٢).

وهكذا تأتي الأحاديث الكثيرة لتؤكِّد أن من الأولويات اغتنام الأوقات فقد يتاح لك القيام بالعمل؛ فإذا أخَّرته فربما لا تجد له الوقت بعد ذلك.

وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما:

أما بعد: فإن القوة في العمل: أن لا تؤخر عمل اليوم لغدٍ، فإنكم إذا فعلتم ذلك تداركت عليكم الأعمال، فلا تدرون أيها تأخذون، فأضعتم(٣).

إن الاستفادة من الوقت، والتخطيط لهذه الاستفادة أمر مساعد على إنجاز الأعمال، يضاف إلى ذلك وجود «الإرادة» القوية.

قال ابن القيم رحمه الله:

«إذا حضر للرجل فرصة القربة والطاعة، فالحزم كل الحزم في انتهازها، والمبادرة إليها، والعجز في تأخيرها، والتسويف بها، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن الهمم سريعة الانتقاض قلما تثبت»(٤).

---

(١) رواه مسلم (١١٨).
(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٠٦) وصححه، ووافقه الذهبي.
(٣) كنز العمال (٤٤٢٠٥).
(٤) زاد المعاد (٣/ ٥٧٤).

وخير القول في هذا الباب قوله ﷺ: **«المؤمن القوي خير - وأحبُّ إلى الله ـ من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان»**[1].

ومن تدبر هذا الحديث الشريف وجد فيه المنهج الكامل الصحيح الذي سبق ذكر بعض معالمه.

إن التعامل مع قاعدة «الأولويات» ومراعاة عناصرها التي هي: الحرص على الوقت، والتخطيط للعمل، والإرادة القوية التي لا تقبل التسويف، كفيل بالنجاح الذي يريده الله تعالى لعبده.

* * *

تلك هي الخطوط العريضة في أمر «العمل»، أرجو أن أكون قد وفقت في عرضها، بما يؤدي الغرض، ويعطي الصورة الصحيحة.

وبهذا ينتهي المقصد الثاني من الكتاب، وبانتهائه ينتهي الكتاب، راجياً من الله تعالى القبول، والعفو عن الزلل والتقصير، وأن يجعلني ووالديِّ والمسلمين في عداد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، الذين سيجعل لهم الرحمن ودّاً، إنه سميع مجيب.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

تم الكتاب بحمده تعالى



---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).



فهرس الموضوعات

الباب الثاني: في معرفة «الدين»

الباب الثالث: في معرفة الرسول ﷺ

الباب الرابع: القرآنُ مصدرُ المعرفةِ

المقصد الثاني
آثار الالتزام بالإسلام

تمهيد: الثوابت والمقررات

الباب الأول: آثار الالتزام بالإسلام على العقل

الباب الثاني: آثار الالتزام بالإسلام على الروح

الباب الثالث: آثار الالتزام بالإسلام على الجسم

الباب الرابع: آثار الالتزام بالإسلام على العمل